أَسود دانتيل

«عن مكيدة الذاكرة»

حريَّة سُليمان

رواية

أنتَ نصفٌ يغرق..

أنا نصفٌ يحترق..

لماذا لا نُنقذُنا معًا؟!

1

وقعتُ صدفة بطريق تدويناته، بالطبع لم يكُن ليطلعني على ما فيها من نظريات نسبها لنفسه، فأصبحت بالضرورة «فلسفات عَلَوِيَّة»؛ لأن القواعد التي أخفاها هي الشيء الوحيد الذي كان بيننا، وجدت بها قاعدة سمَّاها «الميدالية»، تنص على أن لكل رجل ميدالية، ولكل ميدالية عددًا من المفاتيح، ومفاتيح الرجل نساؤه، فعليك أن تملأ ميداليتك بكل ما تستطيع منهن، واستعملهن واحدة تلو الأخرى، خوفًا من أن يعلوهن الصدأ.

كانت مشكلته مع «سارة» أنه دومًا معها، لا يستطيع أن ينشغل

بشيء آخر سواها، دومًا يحرسها.. يراقبها.. أيًّا ما كان المسمى، وكانت عقدتها أنها دومًا تبحث عنهم فيه؛ مرة بهدف أن تثير غيرته.. وأخرى إرضاءً لغرورها، ومرة لأجل متعتها الشخصية.

أما «ليلى» فلم تكن غير عصفورة أعياها الغناء فاستراحت على نافذته بشفاه مرتبكة، في البداية شغله صوتها الأنثوي عن صمتها الذي كان عليه دومًا أن يدفعه إلى الضجة، على الرغم من بُغضه للدُّمى؛ لذا كان حين يراها عاجزة عن أن توصِّل الماء لغابات مشاعره، يدرك أن اللحظة عبث، وأن الطريق حتمًا مغلق في وجهه، فيذهب دون أن يغرس بها شجرة، ربما اعترف أن اللكنة الفرنسية لـ«شانتال» حين تنطق «je taime» كانت تسكره، لكنها كانت تصر دومًا أن يترك نقودًا تحت الوسادة قبل أن يغادر، لا يعرف لماذا كانت تصر على ذلك، على الرغم من اشتعالها بين

أصابعه.. عندما سألتُه عني أجاب بطريقة شاعر: «ماذا أُخبركِ عنكِ وأنا لا أعرفني بدرجة كافية إلا حين أراكِ؟!».

كنت مندفعة إليه دون حذر، متذرعة بألف سبب، أما هو فكان يبتكر الأكاذيب، وكنت أصدقه على الرغم من انتشار رائحتها العطنة، لم يكن غير أفَّاكٍ حين دعاني لكهفه السري بغياب أمه، ولم أكن غير ساذجة يقودها قلبها حين قبلت خشية أن نُضبط متلبسين بقبلة ببهو السلمِ أو بسطح البيت، على الرغم من كون القبلة وقتها حدثًا عارضًا حاولت مرارًا الهروب منه، أتراني فعلًا رغبت بمسافة؟! ألم يدفعني الخدر الذي يلف كياني حين أحدق بعينيه الخضراوين لارتشاف قبلة شهية من شفتيه الممتلئتين ذكورة بضعف أنثويّ؟! ألم يعنني كونه كولومبوس الذي اكتشف القارة الشفقية؛ فأمنحه بالمقابل نضارة الجسد، وأهرع لأستدفئ بالأنفاس،

وأحارب البرد المعتمل بأوصالي بسخونة احتراقنا؟ كنت أفعل ذلك كله حين يبدأ طقوس غزله فيمد يده لترفع ذقني؛ لأعلن بعدها الهزيمة بين ذراعيه.. منذ لحظاتنا الأولى أيقنت أن الوقوع في الحب سبب كافٍ لتدمير حياتي، بماذا يمكن أن أصف عالَمًا تشاركناه بسيجارة، وبعض الكلمات لجبران، وكثير عبث؟ وماذا يمكن أن يكون هذا العالم لو أن هذا العبث كله أصبح حقائق أعيشها بكم من الحب غريب؟

– بحبِك.. فيه حاجات بتمناها يمكن لو حصلت تكرهيني بسببها.. أنا مش ممكن أتحمل ده، صدقيني.

كان عليه دائمًا أن يُنهي كلامه بـ«صدقيني». سألته عن سر ترديد الكلمة كلازمة، ولمَّا لم تأتني إجابة مللت السؤال، وكففت عن تصديقه، كان يؤرجحني بمكر، وكنت التقط حروفه كطائر

أبله احترف السقوط بطلقة صياد يعرف من أين تؤكل القلوب.

***

من قلب روكسي أستعيد الأمس بتفاصيله، تتوالى الأمور السيئة كلها والتي تسبق وجودي هنا، كيف يمكن أن أرسم حياة جديدة وحبال الماضي معقودة بعنقي، والهوة للأسفل تناديني؟!

كنت قد اعتدت هيجان الذاكرة بلا سبب، فأراني ممددة مفتوحة العينين أستعيد تلك الروايات التي كتبتها النسوة عن ماضيهن، أسترجع الحكايات التي تقاسمنها بلحظات الضجر. تشهد عليهن الجدران والأرائك والستائر المنسدلة، يتحدثن بينما تداعب أناملهن أكواب الشاي الباردة، يقطعن الصمت بأفكار قابلة للتمدد، وأحيانا للانكماش، يرمقن الأواني الفضية وأطباق البورسلان الفاخرة، تعيدهن لأزمنة سحيقة، يحتسين القهوة المرة. يدورن الفناجين

ليقرأن الطالع، وليبتكرن نهايات حاسمة لمواسم أحزانهن.

وحدي الآن أحتسي قهوتي، وباستغراقٍ تامٍ أمارس التأمل، اتجه للنافذة وكانت تبعثر رجفتها بحفظ صور الشارع الدافئة، أرمي نظرةً فاحصةً للخارج، صخب الميدان يبدد نعاس الوقت، مصابيحه المشتعلة بالضوء وهوامها المحلقة بشكل دائري في تصادم عجيب، ضجيج السيارات، أصوات المارة المتداخلة، المحال وروادها بالداخل وعلى الأسفلت برغم برودة الجو، شعاع الليزر الشاخص للسماء يرشدهم لافتتاحٍ جديدٍ، لافتات المحال تروج لموسم تخفيضات، والنسب المئوية أهم من رغيف خبز طازج وقطعة جبن مالحة. اومأت قليلا لأفكر، ليلة أخرى مؤرقة، سأداعب فيها خيط الماضي، وأرتشفه كسكِّيرة متمرسة.. ببطءٍ شديدٍ.. شديد جدًّا.. بكل ما فيه، «حي الزيتون» بتفاصيله القديمة

وشخوصه الرمادية المشوشة، تنساب كلها لتشكل روائحَ أشمها، وتستحلبها أنسجة الحلق على مهلٍ، تتسرب للروح مشاهد مخضبة بالحنين، أسفلت الشارع المتهالك بشقوقه الطولية، بالوعته المستديرة بالمنتصف لم تبتلع طفلًا لعامٍ كاملٍ بعد أن دفعوا شرها ببعض عروقٍ خشبية متقاطعة، توسطها شاخص حديدي بارتفاع نصف متر كخيال مآتة يحذرهم من الاقتراب، بالمقهى يجلس «داوود النوبي» بعمامة وجلباب أبيضين فوق دكَّة خشبية صُنعت خصيصًا له، يزعق في الصبية، ويجادل الزبائن بأسلوب خبير، أمامه طاولة يعلوها كوب شاي بحافة مذهبة، كان يقبِّل حفيدته وكانت تداعب بياض اللحية، وتشير بإصبعها المنمنمة للافتة قديمة مثبتة بصدر الشارع – تحمل اسم ريحان – فيعيد عليها الاسم بلكنة جنوبية.

«يا فتاح يا عليم يا رزاق يا كريم، أصبحنا وأصبح الملك لله».

يتداعى الصوت رخيمًا، تتبعه تواشيح النقشبندي بالراديو المرتكز على عارضة المقهى، يتحرك «سعد»، صبي المقهى، كبندول ساعة، ممسكًا بدلو الماء، متابعًا نثر المياه على أرض الشارع طولًا وعرضًا، ترسم بعض الظلال الداكنة كفرشاة تنثر رذاذها بعشوائية محتضنة الغبار، مصدرةً صوتًا مطمئنًا يشبه الربت على حزنٍ قديمٍ، ترسل عبقًا يشبه أريج المطر في غير موسمه.

رائحة الفول الطازج تباغت الأركان، وتثير لعاب أمي ونظرة غائمة بعينيها تحفزها نهنهات الحنين لماضٍ بعيدٍ وحدها تملكه ولا أدرك ما فيه، أندفع من دون إرادة لشراء حصتنا اليومية، أدلي «السَّبَت» بانتظار «الصاوي» بعد انتهائه من وضع حصص الزبائن الوقوف أمام العربة الملونة، يتأخر في إعداد طبقنا، بينما

يتتابع توافدهم على العربة، مسبلي الأعين بفعل حاسة يغريها صحن من الفول الساخن مغطى بالزيت الحار.. مصحوبًا ببعض أرغفة «مقمَّرة».

عيناي عالقتان بالمدى، تلمحان البعد اللانهائي، يشغلُ حيزَ الرؤية تجاورُ البيوتِ والتحامُها، أستمع لأهزوجة فتح النوافذ وارتطامها بالجدران متسعةً عن آخرها، مستقبلة الصباح بانتظارٍ شغوفٍ للمساء.. تأتيني أحاديثُ النسوة، همهمات متصلة في غياب الرجال، وشوشاتُ البنات وعراكهن، ألمح إشارات متبادَلة بالأيدي خجلة وموحية لفتية الحي المتنطعين بمقهى النوبي.. يروقني عبثهم بالخارج عند تشابك خيوط الدوبار المشبوكة بالطائرات سداسية الشكل بالسماء، وانحناء ذيولها في تناغمٍ تامٍّ بحركة ثعبانية ناعمة، متسائلين أيها أكثر ارتفاعًا وأكبر حجمًا

وأكثر مرونة برقصة مع الريح، أتأمل أصصَ الفخار على الحواف بزهورها الحمراء والبنفسجية، قطع الغسيل المتراصة بعشوائية الألوان والترتيب كاختلاف أمزجتهم.

لمحته عائدًا من عمله بوزارة التموين، دعوت الله ألا يكتشف القطة أسفل السلم قبل أن تذهب بصغارها، كان يمسك بذيولها ويطيح بها على امتداد ذراعه قبل أن تفرج عنها أصابعه لتصطدم بأسطح الجيران.. كلٌّ حسب اتجاهه. بظني كان يمنحها الموت بروعة التحليق، في الأيام العادية يكون مبرمَجًا كمؤقت زمني، تدق الثالثة ليظهر والدي ببزَّته الرمادية وحذاء أسود بنعل عريض ينقر أرض الشارع، متأبطًا الجريدة وكيسًا مجهول المحتوى، تشبثت عيناه ببعض الفتية بالأسفل، وكان أحدهم يرسل صافرة معلق النظرة بشرفتنا. أشار بإصبعه لأدخل قبل أن تأتي كلمته

بشيء من حدة: «ادخلي».. تغيَّر كثيرًا معي في اللحظة التي أدرك فيها أنني كبرت، ثمَّة أشياء ودَّ لو قالها وخذلته، يأمرني أن أجلس قبالته، ليظل يحدِّق بي، يدور رأسه يمينًا ويسارًا، يدقق بالسقف، ينقر الطاولة، يجرب بدايات مختلفة لجمل لا تأتي، يزفر زفرات حارة تكاد تذيب رأسي، وفي النهاية يتخلى عن كرسيه وينصرف، في كل عام يزداد تحديقه وتتكثف جهامته، تُرسم خطوط طولية وعرضية بجبهته، يفقد تدريجيًّا تفاصيل الطفلة التي كنتها؛ لأصبح مجرد امرأة ستتعرى في يوم لرجل.

لم أكُن غير صغيرة تركض خلف باعة الأحلام، وبجيوبها خبأت بعض السكاكر، تلتقي عيناي أحيانًا عينين حنونتين، كان حديثًا وديًّا لا يدوم، يعبرني بصمتٍ وينزوي خلف الجدارِ، كنت أتنكر لأنوثتي بثوبٍ طفولي لا يناسب تطوري، فلا يعتريني الخجل كلما

أرسلت نظرتي للمرآة ليفاجئني جسدٌ جديدٌ لامرأة أكاد أعرفها؛ فأدَّعي كَذِبًا أنني أنبذ أشياءها وأزدريها وأغادرها ناقمة، لكني لم أنسَ يوميًّا مساءً أن أمنحها قبلة بالمرآة، وتنهيدة حارة؛ لأني أدرك بقرارة نفسي أنه في يومٍ ما ستنبت الأجنحة، وتذعن الفراشة لمواسم من التحليق.

بنات الحي مختلفات عني، لم تعنِ لهن تحذيرات الأمهات أكثر من عدد حروفها، كان عليهن فقط ألا يتسللن للخارج من دون إذن، وألا يعبرن للميدان من دون سبب، يتواجهن صباحًا بالشرفات، لم تأتِني منهن حصاة تنقر النافذة كعلامة لموعد، لكنهن دومًا يفعلن، تداعب الأصابع فتحات النوافذِ، تلتف الأذرع حول الأعمدة. ما من بلورة تعكس الضوء على الأشياء فتهبها السحر، لكنه الفرح بأعينهن يعكس ألوان الضحكات، يلتقين

ويتبادلن القبلات، يتشابكن ويدُرن بحلقات، يتعثرن أحيانًا فلا يكترثن ويقفن من جديد، تعصب إحداهن عينيها وتحاول الإمساك بالأخريات، يدغدغنها ويجرين، يقتربن ويبتعدن، يضحكن ويرسمن بالطبشور مربعات على الأرض الرمادية، ينزوين بأحد الأركان أو خلف العربات، يتهللن، يصرخن فرحًا أو فزعًا، بالنهاية يجلسن على السلم العريض بمقدمة الشارع، يتسامرن حتى الخيوط الأولى للصباح، في المساء يشترين الحلوى، يمزقن الأغطية، يبرز المحتوى الأحمر منكَّهًا بالدهشة، يلُكْنَه بتلذذ، يمنحنني نظرة عابرة، أرقبهن بابتسامة لم تشغلهن لزمنٍ طويلٍ، لم يتوقفن عندها.. تتسع حلقات اللعب، أدور بانحناءاتها وأكبر، يكبرن أيضًا، يتابعن وشوم الحياة، أتابعهن بالمكان ذاته، بالروح ذاتها، بلا أي نقوش لوشوم.

يفاجئني صوت أمي:

- «جورية»!

يتسلل عبر المطبخ بزيوته وأبخرته، يحمل كثيرًا من الروائح؛ كما هو الحال مع البقع اللزجة والشحوم بنهاية الجدار، متباينة الشكل ومتشابهة التأثير.

تشكوه دومًا لجدتي عندما تشد الرحال إلينا؛ فتجمعنا جدران الغرفة الزرقاء، أندسُّ بينهما، يشغلني المصباح بمنتصف السقف، أزجر خيوطه الصفراء بتضييق عيني فتتفرق مبتعدة، ينبعث منهما أنين محموم حين تتكلمان عنه، حتى جدران الغرفة تجيد إحكام زرقتها عندما تدفن رأسها في صدر جدتي، يكاد صمتها يصرخ: «دي مش عيشة، مفيش ست سابها في حالها».

حتى «حنان»، بائعة الخضر، بيقيني لم يكن رجلًا، بل ذُلًّا جديدًا

تضيفه يوميًّا، تحمله كما الأطباق للمائدة، بين وسخ الصحون، بأكواب الشاي، بين أوراقه المتناثرة بالمحبرة، بجواربه وياقاته، ومع ذلك لم يسلم جسدها من أنامله التي تمتد إليها من خلف ثيابها؛ فتعاقبها كل خلية؛ فتحفظ رائحة لا تتبخر عنها، كادت تسبه، وتوقفت، ظلت تبكي، بحثت جدتي عن كلمة مواساة فلم تجد – غالبًا كنت مثلها – لم تتخيل لحظة أن تتلصص عليهما طفولتي لأفتح بابًا للطوفان، كانت هزيلة بين أحضانه، جافة كعود قمح يابس، يكاد يصرخ شبقًا فيغرس أسنانه بها لتتألم وتدفن رأسها بالوسادة، خلتها تموت، لم أجد مكانًا يخفيني لاتساع الصالة فتسمرت بمكاني، بعد أن تصلَّب جسده وتوقَّف اللهاث انزاح عنها، استجمعت نفسها وتكوَّرت، ألقى عليها الثياب وانزوى يلملم ذاته.. التجأت لغرفتي، تساءلت بنفسي: ما الذي يفعله بها؟

***

في الصباح، تواجهنا بانتظار إفطار لم نمسسه، مذيع الراديو يردد كلامًا عن اغتيال بذكرى النصر، ظل الراديو كما التلفاز يبثان آيات من الذكر الحكيم وصورًا ومشاهد مكررة.

التفتت إليَّ وكان الضوء ينعكس على وجهها عبر النافذة الكبيرة، بدأت تُعدُّ خليط السكر والشاي الجاف في قعر الكوب، صبت الماء الساخن من البراد النحاسي الذي انطفأت لمعته، تناولت ملعقة صغيرة وبدأت في التقليب، تأملت خطوط وجهها الذي بتُّ لا أعرفه، كانت شاردة، بدا غاضبًا من طريقتها، انسكبت بعض القطرات على الطاولة، عبق المكان برائحة الشاي الساخن، التقط الكوب من بين أصابعها في ضيق وزفر بعمق، استدار بحذر ليضعه على حافة النافذة، جلس على كرسيه العالي وتطلع إلى

الشارع الكبير.. رفع الكوب لشفتيه ولم يعجبه مذاقه، تركه كاملًا ليغادر، نظرتْ إليَّ بوَهَن، طلبت مني الذهاب إلى حيث وضعت بائعة العدس حبوبها لأبتاع غرضًا ما؛ أدركت أن للشمس بهجة حين تقرر السطوع، فما بين عتمة الليل ووضوح النهار محض خيط كنت قادرة على إفلاته كلما اختلست النظر لأمُر بينهم كساحرة صغيرة.. عليَّ فقط أن أختبئ خلف شال جدتي البني.

بالشارع، الأشياء كلها كانت غريبة، لم أعرف ما الذي يجري، حركة الناس غير عادية والبعض يركض بكل اتجاه، بدت وكأنها القيامة، وقعت عيناي على امرأة تداري وجهها بطرحة سوداء مغبرة، كانت تتلفع بالغموض، حدَّقت فيها طويلًا؛ وكأنني أبحث عن ملامحها، لم تسمح لعينيَّ أن تخترقا المسافة، لكنها اقتربت لتلمس وجهي، قالت بشيء من حزن:

– قتلوا السادات!

2

بمرحلة من التدوين تصبح مضطرًّا لأن ترفع رأسك لتستطلع الأمر؛ فأحدهم هنا، هم دومًا على مقربة منك، وعلى ذهنك أن يكون حاضرًا بقدر استطاعتك تمييز طعم الملح من السكر، بقدر ما يفعله فنجان قهوة الصباح في غيمة كسول، بقدر ما في الوجوه من أعين لترى، ومن آذان لتسمع ومن ألسنة لتبرر، عليك دائمًا أن تكون مستعدًّا، مستعدًّا جدًّا للانفجار، ليس كبيت استمر طويلًا ممتلئًا بكل الأصوات، ممتلئًا بكل شيء وأي شيء، متخمًا بما لا

يدفعه إلى الوقوف بشكل أخف؛ لو أن البيوت اختارت ألا تزعج نفسها بالإنصات، ربما لو جاءها صوت الطرقات وقررت ألا تفتح أبوابها لنعمت كثيرًا بالصباحات المفرغة من الإجابات والأسئلة.

مع آخر كلمة بتلك الجملة، أجدني مدفوعة للكتابة عنه، تنهشني رغبتان: واحدة لاختبار مشاعري بعد تلك السنوات، ورغبة ثانية بالخلاص من حنين مجنون للحكاية الأولى، وربما نمَتْ رغبة ثالثة بكتابة كل ما عرفته عن رجال حياتي.. لكنه كان الأكثر صخبًا.

***

عندما كنا صغارًا، كانت السماء تمطر أحلامًا وقرنفلات، وسمائي أمطرت سلمًا وكلمات، كانت ليلة حارة من ليالي أغسطس، دخل أبي عاقد الحاجبين، وكانت حروفه تتعثر على غير العادة، توجَّه

لأمي وبوجهه يرسم بعض الضيق:

- الشقة جالها ساكن، هاتي المفتاح.

لم ننَم ليلتها، كيف يكون البيت مع جيران؟ انتبهت لحظتها لشيء غاب عن إدراكي تمامًا، من المنطقي أن يكون لنا جيران، أعوام تمر، كنت أختلس النظر كلما لمحت الباب المغلق لأتساءل: متى ينفتح؟ لمحت ارتيابًا بعيني أمي، نظرات اتهام له غير مبررة، بدا الأمر غريبًا لي، أبي لم يرتكب ذنبًا، على الأقل حتى الآن، استحال الأمر واقعًا بعد أيام من مناوراتٍ غير معلَنة، زعق نفير التويوتا صباحًا ليعلن عن قدومهم، وأخيرًا ضمَّنا بيت واحد، التصقت أمي بالباب، كتمت أنفاسها لتسمع الهرج الحاصل على السلم.. وعندما طال أمد الضجيج سحبت جسدها، بتثاقل، باتجاه الأريكة التي تجاوره .

جلست لتفرك أصابعها بينما تتشبث عيناها بصفحة وجهي، تفرسَّت في ملامحي، حاولت أن تقرأ ما هو مخفي، أظنها قرأت الكثير، بدوت كصفحة مفتوحة لمن يجيد القراءة، مرت الدقائق رتيبة، رفعت عيناي لأواجهها فاستشعرت الأسى بين جفونها، أظنها التقطت شعورًا بالبهجة يكبر بداخلي، لم تعرف سببا له ولم تفكر فيما أفكر فيه، فبيقينها بدأ الجحيم، وربما كان الباب الموصد بيننا آخر فرص النجاة، أزحت أفكاري جانبا، ألقيتها دفعة واحدة، فالأفكار المجنونة مصيرها للعدم.

مساء، دق جرس الباب، كان الصوت لجارنا «علي»، ناول أمي إيجار الشقة، وانصرف، لم يزِد حديثه معها على بضع كلمات مهذبة: «مساء الخير يا هانم.. تفضلي». كان السلم مظلمًا ولم نهتم، لم نكن نخرج على أي حال، بعدما جاء أصبح قضاء

حاجات البيت حجة لأراه، يومها وبكثر من الحذر تحسست موضع قدمي، لكني تعثرت، كان سقوطًا مؤلمًا لم يخففه غير صوت انفراج الباب المقابل، انبعث الضوء من الفتحة لمساحة ممتدة بيننا، لم يكن الضوء مبهرًا بقدر خياله الرشيق المتعامد عليه.

- حسبتك قطة!

- كنت هقع.

- انتِ بخير؟!

أومأت بنعم.

على الرغم ممَّا حدث، استطعتُ تمييز ملامحه، كان مساءً مراوغًا، استعدت الموقف من أوله لآخره بينما أختلس النظر إليه، عيناه خضراوان لامعتان كعيني قط بري.

- فيه حاجة بتوجعك؟!

- لأ.

نهضت كالمجنونة غير قادرة على ترتيب أفعالي، بحثت عن أشياء في غير مكانها وارتد نظري إليه، قست طوله بالتقريب، يفوقني طولًا بحوالي عشرين سنتيمترًا، لفت نظري لمعان سلسلة فضية مندسة في شعر صدره حالك السواد. أوشك أن يضبط تعلقي به فانحنيت سريعا أتحسس الأرض.

- فيه حاجة وقعت منك؟!

- لا. قلتها بينما اتساءل: كيف أبدو يا تُرى؟ رتبت شعريَ بانفعال، قشعريرة لفتني، وميض حار سرى بجسدي كله، من أين أتت تلك المشاعر؟ وما كنهها؟ السلم يدور بي وأدور به في متاهة مغلقة، رفعت عيني لأجده ناظرا إليّ.

- فيه إيه؟

- بشوف القمر.

- نعم!

- انتِ أجمل شمس، وأحلى من أي قمر.. تعرفي.. ربنا مش هايسامحك.

- ليه؟!

- فعلا مش هيسامحك.. صدقيني.

- تقصد إيه؟!

- مين قال إن الشمس بتشرق بالليل؟!

غبت في ملامحه للحظات قبل أن يقشعر كياني كله، ويأتي صوته:

- بقصدك انتِ.. ما لك مرتبكة؟

لم أجد شيئًا لأقوله..

– إيه؟ مش مصدقة؟ أكيد اسمك «شمس».

– لأ مش «شمس».. اسمي «جورية».

لم أفهم ما حدث، ولا لماذا كان عليَّ أن أصدق أنه هنا من أجلي، لسبب ما، لقدر ما، كنت قبالته تماما، تراجعت خطوة للوراء، ومضَ شعاعٌ خافتٌ، لم أعرف من أين جاء، لكنه أضاء حولي فكشف حركة شفتيه، كتمتُ أنفاسي لأميز صوته، كان يدندن بلغة غير مفهومة، لم يهتم حتى لصوت أمي الذي جاء من خلف الباب واستمر يدندن، التفتُّ لأتجه للداخل فاستوقفني ممسكًا بذراعي:

– هشوفِك تاني؟!

لم أرد، حاولت الاحتفاظ برعشة جلدي حين لمسته أصابعه، لكن،

لماذا يداعبني هذا الشعور الغامض وكأن الحياة أخيرًا تفتح أبوابها لي؟! ألم يكن غريبًا أن يأتي بليلة عيد فيصبح هو العيد وزينته وبهجته؟!

- هشوفك تاني.. متأكد.

قالها وابتسم.

بدا جميلا فعلا، شعره الكثيف القصير، وجهه الحالم، ملامحه التي اختلطت طفولتها برجولته، يشبه وسيمًا بصورة على جدار جارتنا أخت الحلاق.. كانت عانسًا وكان الصيفُ يشعل ضجرها، حينها تتمدد على سريرٍ يواجه النافذة؛ فتسلم ساقيها لعجينة العسل المطاطة، فيستحيل بياضهما لكتلة لهب في دقائق.. أضحى العرض المذهل عادة تخلب لبَّ أبي في عمق الليل، تطير النوم من عينيه، ما إن نختفي أو نغفو حتى يتسلل في الظلمة إلى هذا

الجزء من الشرفة، يمكث هناك دون أن يشعل الضوء، كان المكان الذي اختاره يتيح له الكشف عن مساحة كبيرة من غرفة الستائر الحمراء، لم يكن يتأملها فحسب؛ وإنما كانت تتلوَّى بمقلتيه مخترقة مخه الملتهب، تحتشد الدماء بوجنتيه وأذنيه وتنفر عروقه في اللحظة التي تقع فيها عيناه على الفخذين العاريتين، قامت لتواجهه بمرآتها، ارتد إليه انعكاسها.. تدثر بنفسه خجلًا بعدما طاف المكان ببصره بحثًا عن لا شيء، جارتنا تتمشَّى في الشارع بأزياء غريبة، بذوق امرأة فاجرة، بلوزات مفتوحة عند الصدر، تنانير قصيرة وفساتين ضيقة، تضع أقراطًا كبيرة، وأحذية بنعول حادة، زيَّنت الجدران بصورٍ لرجالٍ نصف عراة وشديدي الوسامة، دومًا كنا نضبط أبي يحدِّق عميقًا، عميقًا جدًّا، في الجدار ولامرأة ينعكس ظلُّها عليه، مُذ عرفتْ أمي عادته وضعت ستارة كبيرة

بطول شرفتنا لتحجبها عنَّا. قالت أمي يومها بلهجة ساخرة:

– «مجدي» في سن خطر يا «أبو مجدي».

سألت «علي» مرة عن رأيه بجارتنا تلك، فقال:

– هي امرأة مسكينة لأنها مدانة بارتكاب الشوق لرجل لا يأتي أبدًا، وربما كانت تضاجع رجال الجدار في صورته؛ لذا وبدافع إنساني بحت سأخلدها بقصيدة لأمنحها رجلها المنشود.

«علي» يقرأ الشعر، يكتبه أيضًا؛ ولأن الجغرافيا امتلأت به تعلَّم أن يتعاطاه، عمل مدققًا لغويًّا في جريدة محلية، حين تسلم خطاب التعيين كاد يطير فرحًا، أخيرًا سيغادر ذاك السأم اليومي: استيقاظ الظهيرة، ضجيج السيارات تحت النافذة، ضجيج الراديو على عارضة خشبية بالمقهى، مراقبة نهود اللائذات بالشرفات، هناك أشياء أهمّ عليه فعلها، أهم من أحلام يحشو بها وسادته، أهم من

ضجيج مختلق يفتك به، يتعمد أن يصدر صوتًا حين يعد الشاي، صوت غليان الماء شيِّق، صوت سكب الماء في الكوب شيِّق، صوت دوران الملعقة في الكوب أيضًا شيِّق، لكن هناك أشياء أهم من ذلك كله، مشاريع مؤجلة، خططًا قيد التفعيل، كتبًا عن ذاته لم تُقرأ بعدُ.

قال مرة إنه كائن يحاول ألَّا يموت؛ لذا فهو يقرأ كثيرًا، يعمل كثيرًا، يرتشف الشاي بصوتٍ عالٍ، يعزف الهارمونيكا، يصطاد اليمام.. ويحبني.

كان يقول إننا لسنا في حاجة للآخر ما دمنا نقرأ؛ فوجود الآخر يعني استهلاكًا غير مبرر لكل شيء: مخزونك من الشاي، من البن، من المياه الباردة، من الظل.. وجود الآخر يعني بالضرورة افتقادك مساحة أكبر من الصمت؛ لأن المشكلة الكبرى أنك

تصغي حتى لو لم ترغب، وأن هذا الآخر في مساحته المفترضة تلك يتوقع أن تنتشله من الأشياء المملة والسوداء كلها، ومن دون وعي تجد أنك استحلت لنوع نادر من جذوع الأشجار، تحديدًا النوع الموغل في السمرة، هذا الذي يركنون إليه، يبولون، يصوِّبون إليه خيبة تلو أخرى، وفي صمت يرحلون، «علي» يتناول قهوته المرة، يجعلها مُرَّةً للغاية، فهكذا تحدد المذاقات الحقيقية للأشياء، يدخن كماكينة ديزل، يقول إن التدخين طريقته الخاصة للبصق على سخف العالم. لا يحب القطط لأنها تمارس الجنس من دون حياء، ويفضل كلاب «البول دوج»؛ لأن لها تعابير مضحكة، يؤمن أن الله لن يعاقبنا بذنوبنا لأنه أكبر، أكبر كثيرًا من أن يعذبنا بها، ونحن الفقراء الفارون إليه.

حين ناداني بـ«سارة»، مرَّرتُها من دون سؤال: أين أنت يا عقلي؟

أأذهبك اخضرار عينيه؟ أم بسمته الخلابة، أم ذاك الخدر الذي يلفك كلما همس «أحبكِ»؟ أتراها تلك الدوامات من البهجة كلما حضر؟ أم هذا الخواء القاتل كلما غاب؟ أمر محبط أن يقلِّب فيك أحدهم كيفما شاء، سمَّاني دمية السُكر، مازحني قائلًا:

– إيه حكايتك مع غزل البنات؟

قلت:

– بحبه.

قال:

– الحاجات الحلوة دي خطر عليكِ.

– ليه؟!

– شيء بديهي، دي من السكر وانتِ مش ناقصة، لو أكلتي منها هيزيد جمالك.

تحسب كل امرأة أنها قارة من شفق؛ لذا يجيد الأفَّاكون لعب دور كولومبوس، ونميل غالبًا إلى التصديق، سألته:

- حبيت كم مرة ؟

- قلبي في مهمة إنسانية.

- للدرجة دي!

- لكل شاعر قلب مفتوح ع البراح، ماسمعتيش عن المُلهمة؟

- كم مرة بجد؟ ليه بتهرب من السؤال؟!

- مرة واحدة.. ولما أقول مرة صدِّقي.

سألته عن اسمها.. فقال:

- «وفاء».

وقبل أن أسأل عن سبب الفراق قال بحسم:

- انتحرت يا «جورية».

في تلك اللحظة لم أسمع سوى توسله لأكف عن البكاء، رفع حاجبيه بمكر كمن استشعر قيمة مشاعري، فأنا أبكي بالفعل، أبكي بقوة، أبكي كما لم أفعل بحياتي، قال هامسًا: «بحبك يا مجنونة». بقيت ساكنة في مكاني وأحنيت رأسي بانكسار. ولم لا، فالحقائق كلها مؤلمة. يذكرها بطريقةِ عاشقٍ يعرف أن المرأة التي نامت معه تحبه، وتذوب هيامًا به، قرأتها بنظراته، بارتباكه حين أذكرها، بغضبه حين أسُّبها، بسعادته الخاطفة كلما دفعته لمقارنة بيننا، كنت أشُّم ذاك الشبق المدفوع بالتحدي لإثبات أن حبنا يقارب الإحساس نفسه، وأنه حقيقة لا تقبل الجدل، وأن جوعنا الجسدي لغة إنسانية جديدة تعني أن أفهم ما لا يقال، وأن ألمس ما لا يحس، وأنه ذاك المُحب الذي يدفع العلاقة دوما لحدود اللامعقول سواء ببداياتها الفارقة أو بنهاياتها المؤلمة، على الرغم

من هذا كله مسحت دموعي، تعلقت بذراعه، منحته قبلة خاطفة، أهديته صورة لي بقميص سماوي مزهر، ودفتر خواطر بغلافٍ أنيق، سألني عن شيء في المقابل. قلت: قصيدة حب، كتب عن زهرةٍ بريةٍ نمت بين ضلوعه خلسة وسافرت للريح.

3

صباح بعيد، خُيِّل لي أني التقطت «رضوى» بمدخل الشارع وكأنها تقفز كأرنبة، دسَّت أنفها بقرطاس الفلافل الذي اهترأ بفعل البخار، مدت أصابعها والتقطت قرصًا ملتهبًا، نفثت فيه سريعًا

وبالنهاية ابتلعته – أظن كاملًا – فعلت ذلك، وانحرفت يسارًا واختفت، بعد وقت لم تعُد تقفز كالأرانب، تمشي بتؤدة وعيناها معلقتان بنافذة خضراء على اليمين، مبتسمة لقطعة ملابس رجالي زرقاء على الحافة، بحس خفيض تدندن لحنًا ما – هكذا اعتادت – كان حبيبها «حسام» يسكن قبالتها؛ لذا كل شيء فيها اختلف، روحها، عيناها، مشيتها، صوتها.. وظل شارعنا كما هو، وككل بكور مجرد شارع هادئ، أبوابه مغلقة، وحركة ناسه لم تبدأ بعدُ.

بذهابي للمدرسة، بدت السحب كأقرب ما يكون، المقهى مفتوح والرجال يجلسون على الرصيف يدخنون الجوزة، يتبادلون النكات، ويراقبون النساء، بالزاوية بائع العرقسوس يؤرجح بضاعته، توقفت لشراء كوب على الرغم من تحذير أمي، كنت أرتشف بينما اتأمل البنايات الواقفة والنوافذ شبه المفتوحة والأخرى على اتساعها

تفضح أصوات الناس، تمنيت لو يطول الشارع، أو أن يتوقف الزمن قبل أن يظهر السور الأصفر برسومه المكررة، بوصولي كانت البوابة نصف مغلقة، والحارس يمزق رغيفًا لدنًا ليغمسه في صحن فول غارق في الزيت، أشرت له فلم ينتبه، تسللت للداخل فلمحت الناظرة، واجهتها بابتسامةٍ باهتةٍ، فزعقت عاليًا كصُفَّارة إنذارٍ وحيدة النغمة، واتسعت عيناها عن نظرةٍ بشعة، قرصت أذني وعاقبتني لنصف يوم كنت فيه ألملم الأوراق من الفناء لأضعها بصندوق جانبي، لم تكن قاعة الرسم مفتوحة لأتسلل إليها، كنا نجهز لمعرضنا السنوي بمثل هذا الوقت من العام ويبدو أنهم ذهبوا لتنظيم قاعة العرض، كنَّا مكلَّفات قبلها بإنهاء بعض القطع الفنية، كل واحدة حسب اختيارها، اخترت التطريز على القماش لأنه الأنسب لطبيعتي، كنت اتحسس من رائحة الخشب

حين يحرقنه بمكواة لها سن مدببة ساخنة، تخيلتها مرارًا تخترق جلدي وتترك أثرًا من الصعب محوه، لم يعدُ الأمر عن كونه هاجسًا لم يحُّل دون مشاركة البنات بتثبيت المرايا بالمنتصف لتحيطها رسومهن البنية، بالقدر نفسه وترني الزجاج المتكسر المنثور بطول الطاولة قبل أن يجمعنه ويطحنه ثم يلصقنه بحذر بالرقع المسطحة؛ فيكون تصاميم بديعة تعانق فيها خضرة الأشجار زرقة الماء، وتتراص فيها النسوة حاملات الجرار بتكاوين جميلة. كنت قد طرزت نصف جناح لفراشة زرقاء، بعدها اختفت قطعتي، بحثت عنها بكل مكان. حقيبة المدرسة، خزانة الملابس، الأدراج، بين قطع التنظيف وأغراض مجدي ووالدي، سألت أمي فأدارت وجهها عني وقالت: معرفش.. قلت: والعمل؟ قالت: روحي أودتك.. انتِ مهملة. وأعادت الهدوء لتقاطيع وجهها، دائما

يحصل ذلك حين تراوغ، ترسم الجدية على ملامحها وتتصرف لشئونها.

وبَّختني مُدرِّسة الرسم واستبعدتني من نشاط المعرض، وكالعادة بكيت، كان النهار قد انتصف حين عدت إلى البيت بقدمين منهكتين.. وبالكاد تناولت نصف طعامي، قطع الهدوء نقر بالباب، ليس كما اعتدنا حين يكون رجل البيت بالخارج، لا أحد يطرق بابنا عادة.. اتجهت للصالة.. وبتردد فتحت الباب.. وجدت امرأة فاتنة أمامي.

- مساء الخير.

قالتها بصوت أقرب للغنج.

- مساء النور.

أجبتها بينما أحملق في وجهها المصبوغ بالمساحيق.. عبثت

الألوان به فصار أكثر جمالا، أدهشتني نافذتاها المتوحشتان، كيف يمكن لقلم أسود أن يمنحهما اتساعا كهذا؟! عيناها عسليتان غامضتان فيهما من صخب البحر وجنونه، تظللهما رموش كثيفة، باقة من النصال المسنونة تطعن الناظر عند كل إطلالة، شفتاها مكتنزتان تغريان بلذة كاسحة، كأنما تهيء الرائي لقُبلة، قوامها فارع باستدارات مغوية وبراكين خامدة تنتظر من يفجر سكونها. حتى طلاء الأظافر القاني منح الأصابع شكلا وقواما آخر.

تقدمتْ خطوة لتقبلني فارتجفت وأخذتني الرائحة المثيرة لها.. تسربت نظراتها تتفحص المكان بينما توجه كلامها لي:

- ماما هنا؟

- أيوه.

- قولي لها «تهاني»... جارتكو.

- أهلًا وسهلًا.. اتفضلي.

ابتسمت فظهرت أسنانها البيضاء واتضحت أكثر نغازة الذقن، تراجعت خطوة لأترك لها مساحة للعبور فدخلت على مهلٍ، غيرتُ زاوية النظر تلقائيًّا من فتحة الباب المتسعة إلى عجيزتها المرتفعة وكانت لم تزل ترتج.. سربتُ من دون قصد نظرة مستفسرة إلى كل أنحاء جسدها رائع الاستدارات، توقفتْ بمنتصف الصالة لتتأمل كل تفصيلة، أشرتُ لها باتجاه الغرفة المغلقة، ترددت لبرهة، ثم واصلت على أطراف أصابعها كراقصة معتزلة تحفظ الخطوات.. وقفَت بالباب.. فتقدمتُها، جاهدة كنت أخفي نهديّ مشبكة ذراعيَّ، فتحتُ بابًا عريضًا يفضي لغرفة صالون مربعة بأرضية خشبية باهتة، توسطتها سجادة حمراء قانية ترتكز عليها كنبتُنا الكبيرة، قطعت عيناها الغرفة واستقرتا على صورة زفاف بمنتصف الجدار

جلس فيها أبي كطاووس تثقله زينة الذيل – لم أستبِن ابتسامة بالصورة – كان شاربه متموضعًا كوسادة تخفي الشفتين ولم يُخفِ وسامته، أما أمي فوقفت إلى جانبه بجسدٍ تشتاقه الأنوثة، توسدت كتفه إحدى يديها واحتفظت الأخرى بباقة زهورٍ بيضاءَ لها نفس تأثير بسمتها المؤرقة، بغرفتنا أربعة كراسي مذهبة متقابلة وفوتيه بقطيفة زرقاءَ اختارته الضيفة ليحتوي جسدها، وكان يواجه النافذة العريضة بلبلاباتها الصفراء.

اتجهتْ للفوتيه وعيناها معلقتان بالصورة، راودني شعور بالدهشة وبالكاد استطعت أن أخفيه. كانت المرأة، تقريبًا، الكائن الحي الوحيد الذي احتواه بيتنا منذ أعوام، كثيرًا ما تخيلت أبي يعد لنا أكواب الشاي وساندويتشات الجبن والخيار، فنأكل ونضحك، ونقشر ثمار اليوسفي فتسرقنا الرائحة، كثيرًا ما تخيلته نشاهد معنا

التلفاز، أو يعبر بنا الشارع قابضًا على أناملنا الصغيرة لنلهو بحديقة الميدان، ولم يفعل، كنتُ و«مجدي» نتقاسم عالمًا صامتًا، كان يقطعه بشرائط الكاسيت – بغياب أبينا – لـ«نجاة وثومة وعبد الحليم».. لم يكن يعرف عن الحب، لكن مذ طرق بابه لم تفارقه الأغاني، صحيح أنه لم يشارك والدنا جلسته الشتوية إلى جانب السبرتاية، وصحيح أن له رفقاء يلتقيهم نادرًا على الناصية حين يفتك به السأم ويخنقه الفراغ، ويسير مع بعضهم – في بعض الليالي – باتجاه الشارع الرئيسي، لكنه حين يضع رأسه بحجر أمي بليالي الرضا كان قلبه يدق ويغمض عينيه ويفر، يغط في عتمة بيضاء دافئة ورطبة.. سألت نفسي كثيرًا: لماذا لا أفعل مثله؟!

كنت أتسحَّب باتجاه الجرامافون القديم لأعيد تلميعه، وكان يقتصد

من مصروف الشهر لإصلاحه، وحين فشلت خطته اشترى مسجلًا بحجم كف اليد وأخفاه بخزانته، بعد فترة لم يكن الحب بقادر على منحه ابتسامات مجانية أو صورًا للفرح مؤجلة، يظل واجمًا لأيام، ومن دون حرف نقتسم قسائم البغض المجانية، بغض حاد كنوبات سعال أبينا وبصقه بأمسيات الشتاء، بغض رمادي كوجوم أمنا بالنهار، بغض باهت كجدراننا الباردة وقطع الأثاث، ولم تكن غير كتل تشاركنا المساحة، وتزينها بقع مستديرة تركتها أكواب الشاي اليومية لأبي.

***

أطلَّت عينا أمي بشغفٍ لتلتهم جسد الضيفة التي حجب الكرسي نصفها.. أخفت ارتباكها بجمل ترحيب قصيرة، قطعت بعدها زوايا الغرفة لتستقر على فتحة صدر الفستان الأسود للجميلة ونهديها

النافرين، لم تُخفِ فراغات الدانتيل نسيجهما الأبيض الوردي، كانا مبهجين بضَّين، بادلتني ابتسامة لم تحاول كبحها حين ضبطتني أتلصص على نهديها ومالت للأمام لتعتدل في جلستها. أحكمت أمي وضع الإيشارب حول شعرها المهوش بتوتر، وبحرص بالغ أغلقت آخر أزرار فستانها البيتي، سحبت قدميها برفق لتخفيهما تحت ذيله الطويل، أومأت لي لأقترب، ذهبت متباطئة بعد تفكير، دعتني للجلوس ففعلت.

تكلمت الضيفة عن زوجها المرحوم بأسى بالغ، قالت الجملة الشهيرة لـ «سناء»، بائعة الذرة، وكانت تهمس بها لامرأة تشكو من رجلها العربيد، كان يتوعدها بالطلاق لأنها امرأة شكاكة، يومها ضمتها «سناء» وأجهشت الثانية بالبكاء، فعلتْ مثلهما جدتي، وكانت تنصح أمي بالصبر وتربت على وجعها: «خليكي ناصحة،

ضل راجل ولا ضل حيطة».. أرسلتْ بعدها نظرتها لرجل الصورة ذي الطربوش، مصمصت شفتيها وبكت.. كنت أصدق جدتي حين تتكلم عن جدي لتقول بأسلوب خبيرة: إن كلامه الحلو لا يُقوِّم صدعًا، لكنه قد يطيل عمرها دهرًا، لم تكن جدتي تعلم أن دكان العطارة لجدي كان قِبلة للنسوة، وأن كلامه المعسول لهن كان عادة يومية يبدد مقابلها الوقت وينفقن المال، فما إن تدخل امرأة حتى ينتفض كجندي يؤدي التحية ليقول: «صباح الورد على الورد، صباحك سكر يا سكر».

كانت المسافة من مكتبه الأبنوس بآخر الدكان وحتى الباب المؤدي إلى الشارع قصيرة، يقطعها هرولة كلما لمح امرأة توشك أن تدخل ليبيعها غرضًا ما؛ فيكون في استقبالها، كنت أحسب المدة التي يقضيها في فعل ذلك، وأحصي مرات ذهابه وإيابه

وأضربها في عدد النسوة على مدار اليوم ثم في أسبوع ثم شهر، لأجدها مسافةً هائلةً تعادل الدوران حول صينية الميدان ليومٍ كاملٍ، في الواقع كان جهدًا خرافيًا بالنسبة لرجلٍ جاوز الستين وبعد لم تخذله قدماه، لم يكن وجودي أبدًا بمشكلة، كنت صغيرةً تقبع بركنٍ ما لتسري عن نفسها، ترسم أحيانا، تقارن بين الألوان لتختار درجة أخضر تناسب عشب الجنسينج، وأخرى بحمرة عين العفريت، وفي بعض الأحيان يغلبها الفضول فتسأل جدها إن كان للعرعر والزعتر نفس الفائدة؟! فيجيبها بشكل قاطع:

- لأ.

يضيق بأسئلتي فيحضر المزيد من الورق لأرسم، فاندفع لا إراديا لورق الجوافة وحبات الينسون النجمي، لأمدد الخطوط، وأحاكي الانحناءات، أسرع إليه لأريه رسومي لأجده منهمكا في تحسُّس

كف امرأة. يقلب فيه كمن يختبره، وبطريقة عجوز يمارس مراهقة متأخرة يصف مستحضرًا للنعومة.. كن يعدن محملات بأنواع من العطارة ومن الوصفات المجربة ما يزيل السحر ويطيل الشعر. وأشياء أخرى تعيد البهجة للياليهن الساكنة.

انتبهت على صوتُ أمي وكانت مستسلمًا لسبب ما:

- تعيشي وتفتكري.

قالتها بنبرة مشحونة وضحت ما سبقها من حديث؛ فردت الضيفة:

- كسرني حزني عليه.
- ربك مع المنكسرين جابر.
- سبحان من صبرني على غيابه.
- الإنسان لما يكون مؤمن، لازم يرضى.
- مفيش راجل في حنيته. نصيبي كدا.

– الموت بينقي.

– الفاتحة لروحه.

لوهلة ظننتها تصفُ عالمًا مغايرًا، لم تبدُ الحياة لي جحيمًا من دون رجل، حتى إنني كثيرًا ما تخيلت حياتنا من دون أبي، لم أجد فراغًا كبيرًا نعجز عن ملئه؛ بالعكس كانت صورة مبهجة نتسامر فيها حتى الصباح، نسافر للريف لزيارة أقاربنا الذين انقطعت أخبارهم، نعقد جلسات النميمة في المساء، نمد أكفنا الصغيرة لتتلمس دفء الفرن الطيني الذي لم تزل حرارته تشاغب برغم انطفائه، نتشارك لذة اقتسام كوب شاي ساخن حين يقرصنا البرد، نتسلل للخارج لنمارس ألعابا طفولية مجنونة، نحرق كومة قش لنتحلق حولها فتصبح لنا دون الكبار، نصنع العرائسَ من الورق المقوى ثم نثقبها لطرد العفاريت، أحجل مثلا، نعم، أحجل بينما

أضم ذراعيّ إلى صدري، فتهمس البنات ويستأنفن القفز.

كنت أصعد لالتقاط البيض من عشةٍ بالسطوح، أنتهز الفرصة لأقسم الأرض الأسمنتية لمربعات متساوية بقطع من الطبشور ابتعتها من بقال بشارعٍ خلفيّ، ألقي الحجر فيسقط بأحد المربعات، أنط غير عابئة باهتزاز نهديّ، أقفزُ من فاصلٍ إلى فاصل، وانتهي لأعيد القفز، أتدرب أكثر فربما لا أتعثر مرة فينتهي الدور.

كنت أتمنى لو يطول أمد الإجازة؛ فعلى الرغم من قصرها، كنت قد تدربت كثيرًا على اختزان التفاصيل، التنصُّت للأحاديث المسائية، ونقش وشوم الوجوه، يصبح قلبي وقتها كساقية ظمأى تشتاق إلى الماء فلا تتبخر عنها قطرة، ليت الزمان توقَّف عند هذه الأوقات ولم يتحرك. اتسعت عيناي في ذهول حين أدركت أن السيدة بمنتصف الغرفة لم تزل تتحدث وبالفعل ضاع مني نصف

الكلام، ضحكتْ بصوت عالٍ بينما تعود بظهرها للوراء لتكمل كلامها عن رجلها، قالت إنه بإحدى مرات استحمامه صدح صوته بالغناء، كانت عادة لم تفارقه، وإذ بالباب جلبة، كان جارهما العجوز يدق الباب، قال لها بالحرف الواحد: «أغلقي الراديو أو أكسره». سخرتْ منه فاستمر يجادل، سحبته من يده وأدخلته الحمام على زوجها وكان عاريًا، استمر العجوز يتحسس موضع قدميه حتى لامس الجسد الزلق، ثار زوجها، طارده في الشقة عريانا بينما الأعمى يتخبط بفزع، خاصمها بعدها لأسبوع كامل، لا أعرف لماذا كانت تصر أن تخبرنا عن طريقتها الخاصة للصلح! كدت ألمح بعيني أمي إشارة سماح بالذهاب، فالكلام كان جريئًا جدًا. أخبرتنا أنه سجَّل للإذاعة موشحات صوفية وأدعية، وفي سنة الحرب غنَّى النشيد الوطني بفاصل إذاعي وبعدها سجل

أغنية للنصر أُذيعت لعام كامل، سألتنا إن كنا نعرف عن ذلك فبُهِتنا.. كيف لنا أن نعرف مثلا؟!

أردفت بينما ترمي بعينيها صوب النافذة، إنه وقع في غرامها وكانت ترافق أمها للسوق، اصطدما فتسمر مكانه، لاحظت ما اعتراه من ارتباك فمدت الخطوة دون أن تنظر إليه، لمحته بطرف عينها يرسل قبلة وهمية، تتبعهما حتى البيت، وقبل مضي أسبوع كانت زوجة له، حكت عن أشياء غريبة أثارت حنق أمي وحيرتي.. كان يتسلل فجرًا لحديقة بطرف المدينة كلما جاء موسم التوت ليقطف لها بعض الثمار، ذلك كله كان عاديًّا، لكن هل يمكن أن تشاركه غُسله فيتجردا عاريين؟ كانا يستحمان معًا، وكانت تضع بزوايا الحمام أعواد بخور وتنثر بتلات الزهر الجاف بماء الغُسل.. تساءلتُ بنفسي: أي امرأة تلك؟ من أي كون

جاءت؟ حكت عن مرة عاد فيها مرهقًا من دوامه، وكانت له عادة لم يتركها حتى مات، كان كلما استبد به التعب وضع قدميه في الماء الساخن والملح، تركته لعادته وذهبت لإعداد العشاء لتجده نائمًا بعودتها، بينما «علي»، ابن العامين، يركل الماء بجسد نصف عارٍ.. أما ما استدعى شجنها فهو أنها نفَّذت وصيته بالحرف، لدرجة منحها حمَلة النعش جلابيبه الصوفية، واللحَّاد ساعة إنجليزية قيِّمة بمدلاة.

ظلت تتحدث لساعة، تبادلنا فيها الإيماءات، بعدها استعادت هدوئها، واستأذنت لتنصرف، غادرت الكرسي بحركة مفاجئة تاركة مكانها غورًا جميلًا.. ضمت شعرها برفق خلف أذنيها فظهر قرطها اللؤلؤ، لمعت عينا أمي كمن اكتشفت شيئًا، أدركت أنها تجاهلت تحيتها ولو بكوبٍ من الشاي، فاعتذرت عن النسيان،

أجابتها الضيفة بابتسامة باهتة، تفهمتْ أن ما حدث كان متعمَّدًا، وأنها غير مرحَّب بها في أنبوبنا الدقيق، استأذنتْ للانصراف، كان عبورًا سلسًا كعبور قطة تسمح لها المسافات الضيقة بالخروج.

أغلقت أمي الباب خلفها، سحبت جسدها بتثاقل، بطريقها لغرفتها التهمت عيناها المرأة بمرآة البوفيه.. كانتا متماثلتين – أمي ونسختها المكررة – أزاحت غطاء رأسها بتأفف، ففعلت الأخرى مثلها، ألقته بضيق، وفعلت الأخرى مثلها، تأملت شعرها، جذبت واحدة بيضاء، خُيِّل إليَّ أن الأخرى لم تفعل مثلها، دققتُ النظر، بدت كتمثال من الزجاج لا يخفى على من يراه شيء فيه، حتى ما يدور برأسه من أفكار.

ما الأسوأ من أن أعرف عن لقائهما كل مرة، أن أسمع سعاله الحاد؟ يخرج من الغرفة متسحبًا بقطعة ملابس سفلية، يبتلعه ظلام

الصالة وباب الحمام، يغيب لنصف ساعة، يتبع الهدوء المشحون توتر الماء على جسده وفوق المربعات الملتصقة بالجدران، ظننتها عادة لم يؤجلها إلا لمرض أو سأم، لم يمنعه سوى ليل الشتاء البارد واضطراره لمضاجعتها كوسادة، ومع ذلك كان يترك بنسيجها الباهت بعض علامات يفزعنني، كانت تخجل من مواجهتي حين أجدها، علامات زرقاء مدممة، بالرقبة والشفة السفلى، ورأيتها مرة بسمانة ساقها، وما بين تلعثمها وضيقها تخرج حروفها دوما خجلة:

– أنا بخير.. ما تبصيش كده.

فضحتها عيناها، أفصحتا عن كل شيء، تخيلت دفئًا يلف شتاءها، وصيفًا يرطبه النسيم، كانت تراكيب لاثنين غيرهما، ومواسم لاثنين غيرهما، ووعودًا لاثنين غيرهما، تمامًا كتنسيق رائع

لزهرات التيوليب بغلاف رواية رمادية الشخوص، طالعت وجهها المتعب، بدت كتمثال متصدع يصارع معول الريح.

دلفت لحجرتها، تبعتُها، كنت أقدم رجلًا وأؤخر أخرى، ناديتها أكثر من مرة وكانت شاردة، سألتها:

- ماما؟! ليه بتبكي؟

- أنا كويسة، متشغليش بالك.

- طيب ما لك؟

قالت بصبر نافذ:

- أنا مش مجنونة، نفسي تعرفي. فيه حاجات صعب تفهميها.

- مبقيتش صغيرة، فهميني أرجوكِ؟!

- روحي أودتك يا جورية.

- مش هاسيبك. قلتها بحنان بالغ. بادلتني نظرة حزينة ثم حدقت

في الفراغ وكأنما تستعيد كل شيء، كنت أسمع وأغيب أحيانا لأفيق على بكائها، بدت كمن تتمنى لو فقدت الوعي ليتوقف كل هذا، لتخبرني أنها اكتوت في اللحظة التي ضمهما هذا الجدار بسنينهما الأولى، وأنها تود لو تحرق جسدها قطعة قطعة، فهي ملوثة به، وكل الأشياء بطريقهما ملوثة بالضرورة، الجدران، النوافذ، الأبواب، المقابض، المناضد، الأطباق والملاعق، كل الأشياء وربما مجدي وأنا. تكره أن يشاركها الأنفاس، صمت البيت، ضجيج الأفكار. تكلمتْ عن خوفها منه، وعن عالم وقح يسحق الساذجات- مثلها- ببرود، كنت في سن لا تسمح إلا بتصديق أكاذيب الكبار، وربما كنت ساذجة تلوِّن الوهم فاستمعت على مضض، واجهت نفسها بالمرآة، كان الشرخ كبيرًا، يمتد من أسفلها لأعلاها في خطٍّ متعرجٍ، لم يتقابل نصفا الوجه تمامًا، كان

أحدهما يسبق الآخر، أجزاء الأدنى أكثر شحوبًا، الشفتان مرتخيتان، العين غائرة بظلال سوداء، الأنفُ مدببٌ حادٌّ، حتى شعره الأبيض كان جيريًّا باهتًا، كانت هناك مسافة مشوهة متعرجة التأم فيها النصفان.. هزت رأسها بأسى وأمرتني بالذهاب لغرفتي.

شعرت بالشفقة لحالها، فكيف يمكن أن تحيا وروحها مشتتة؟ أو تنشد السكينة وكل ما فيها يحلق في البعيد؟ تقاذفتني مشاعر متناقضة، وددت لو أبكي لتضمني بصدرها فتذهب عني رعشة الخوف تلك أو أغفو بجوارها حتى الصباح، لكنني لم أفعل ولم تدعني هي، غادرتها وعيناي مثبتتان بالشرخ الآخذ في الاتساع مباعدًا ما بين شطرَي روحها، لم أفهم إلا ما استوعبته مشاعري من براكين وجع لا تخمد.

اصطدمت عيناي بصورة على جدار الردهة، كانت لحوذي يعتمرُ قبعة، ويجلس فوق عربة تجرها أربعة جياد تركض بوادٍ يتوطنه القمح، كانت شمس اللوحة حمراء تميل للمغيب، وكانت السنابل تميل كلها للجانب بفعل الرياح.. أكثر ما كان يوجعني، كلما تأملتها، رغبة بالركض خلف العربة، ليس كفتاة جميلة تداعب الريح فستانها، وليس كفراشة رقيقة يغريها اتساع المروج، وليس كطفل عابث يستهويه التعلق بالعارضة الخشبية؛ وإنما كجروٍ صغيرٍ يلهو في أقصى اليمين.

لا أدري لماذا كان عليَّ دائمًا أن أحمل تلك اللحظة معي؟!

4

ساعات من نومٍ متقطعٍ، انتفضت على حلم ضاعت نصف تفاصيله، اخترقت الشمس النافذة وأرسلت وهجها بفتور، وفي روحي فيروز تردد: «أديش كان فيه ناس»، يومًا ما سأتحرر من هذا العالم، سيختفي كل البشر، سينتهي كل شيء، ويظل يلح سؤالٌ واحدٌ: «كيفَ أسامحه والمسافة بيننا أطول من جملة (طمني عليك)»؟

أفقت من شرودي على صوت رنين الهاتف.. كانت «غيداء»:

– كنتي فين؟ طلبتك كتير.

– نمت..

- يا سلام !

- حقيقي نمت.. ساعة يمكن.

- يااه.. ساعة بحالها.. أجازة بقى!

كنت قد طلبت إجازة، وبوقت لا تسمح فيه المجلة بإجازات، لم يتفهم «خالد» حالي حينها، وظنها محاولة لاتخاذ موقف سينتهي كالعادة بقُبلة لصالحه.. في مساء ما قبل الضجر، لم أجد مفرًّا من الرد على هاتفه، جاءت عباراته ثائرة، سألني بضيق:

- فينك؟ موبايلك مقفول من يومين!

- مفيش يا خالد.. تعبانة شوية.

- لما اسألك تردي.. فينك من يومين؟

لم أجد ما أقوله، كنت خجلة من نفسي، حزينة من أجلنا، مقهورة حد البكاء، تركته حتى أفرغ ثورته، وعندما سكت أخبرته أنني

أرتب لمفاجأة، وعندما أصر أن يعرفها أقسمت ألا أفصح عنها حتى أتمها، وطلبت منه إجازة مفتوحة من العمل حتى أنتهي منها.. لم يبدُ مقتنعا بكلامي، ردد عبارات ساخطة، وبالنهاية تركني لأصارع هواجسي.

اجتاحني الغضب، ألقيت الهاتف للجانب، وعدت بظهري للوراء لأرسم خطتي البديلة كعاطلة، كان الوقت مشحونا بالحركة ما بين خزانة ملابس تنفجر كأنثى بمخاض، وغبار عالق بشيش الشرفة والنوافذ، ونصف ساعة من الهرولة ما بين الموقد والبراد، رتبت البيت كمن تترقب زيارة من مسئول، انتبهت لشاشتَي الحاسوب والتلفاز وقطع الكريستال بالمكتبة، بعض البقع الداكنة تحت أصص الزرع، البخار المتراكم على سطح مرآة الحمام، لم يكُن مخيفًا أن يستغرق العالم في غيبوبة، ووحدي أقاوم رغبة بالنوم

لأعيد تنظيف قرميد المدفأة أو مقابض الأبواب، أو ألواح الباركيه، أو حتى لتبديل مياه حوض السمك بزاوية ينعكس عليها الضوء، لم تكُن الطحالب الخضراء بالحوض سيئة من وجهة نظري؛ لأنها منحته مظهرًا أكثر عشوائية، حتى الأعمال الكاملة لـ«درويش» بدت أكثر بهجة حين وضعتها من دون ترتيب كمزاجي، وكذا رف المناشف بخزانتي، اكتشفت أنني أضعت بشقة روكسي الكثير من الوقت، كنت فيه منعزلة تمامًا عن الجيران، وبالكاد أنظر حولي، في الطريق من البيت للعمل ومنهما للأماكن التي أتقصى منها أسرار مواضيعي، وحدها جارتي «ريبيكا» كانت تتكلم إليّ بعربية متكسرة أمام جنسيتها الأرمينية، كلما صادفتني، كنت أشعر تجاهها بتعاطف شديد كونها مصابة ب «الزهايمر».. وجدتها امرأة مختلفة، تقاوم الواقع بالنسيان. اليوم مضى على معرفتنا

وقت، رأيتها فيه تسع مرات، في كل مرة كنت أعرفها على نفسي. ريبيكا دوما مبتسمة، كأنما انتهت للتو من مشاهدة عرض كوميدي، أو كأنما بشرت من دائرة الهجرة بالموافقة على منحها إقامة دائمة هنا، أو كأنما تعثرت بابنها الذي فقدته منذ أعوام. مرت فترات بين تعارفنا قضيت معظمها متنقلة بين الهاتف والتلفاز والحاسوب والسرير، كانت أعظم خططي الجلوس لعشر دقائق أمام النافذة العريضة الممتدة من أول الجدار وحتى آخره، والمطلة على الشارع المزدحم بالباعة والناس، المؤلف من مائة بناية وأكثر من ألف شقة، والمقابلة لمحل الآيس كريم بمذاقاته السبع. كنت أقاوم الوحدة بأصوات أصدرها عمدًا، هذا الاحتكاك المبهج حين أزيل الصدأ عن الشمعدان، هذا الصفير الخافت حين أنفث الدخان، انهمار الماء بالحوض بينما أغسل الصحون، أزيز

محضر الطعام حين أديره فارغًا، بندول الساعة الذي أحفِّزه للمسير، وإمعانًا في الصقيع تخلصت من عاداتي الشتوية السيئة بركل أغطيتي الثقيلة، ونزع ملابسي الصوفية بينما أخطط لغزو ماكر مباغت لكل الفراغات.

كنت أُحَّفز اليقظة دوما بفناجين القهوة.. سئمت الأقراص المنومة، واضطراري للقبول بها كحلٍّ مؤقت ينقذني من أفكاري، ومن وسواسٍ يتداعى بالهاجس نفسه يوميًّا، يلازمني كقرينٍ، ماذا لو لم أنَم؟ ماذا لو لم أنَم؟ ماذا لو لم.. أنَم؟!

لِمَ يعطونه تلك الأهمية؟! تراه يهادن أحلامهم أم ينسيهم عذاباتهم؟! كتبت عن الذين يسعون للنوم بطقوس غزلٍ آلية تتركهم منهكين، وفي حالة استسلامٍ تامٍّ للنعاس، أو الهاربين إليه عمدًا بدخان الماريجوانا والماري جان، أو هؤلاء الذين يربطون بين

السكتات الدماغية المحتملة ونوم يسبقه فيلم مكرر بتلفاز أو قراءة متأنية لصحيفة قادرة على إفساد مزاجك حتى الرمق الأخير.

همس «كريم الرفاعي» بأذني ذات مرة، وهو مصورٌ صحفي زميلٌ بالمجلة ومتعاطٍ للماري جان، قال إن ما أظنها سُحبًا زرقاء هي معجزات صغيرة قادرة على التعامل مع الروح بمنظورٍ أبعد من فهمي المحدود، في البداية كنت أجادله حتى تهاجمني نوبة صداع تكاد تفتك بي، وربما كانت الميزة الوحيدة بعدها أنني استوعبت نوعًا جديدًا من موسيقى «الريغي»، كنت أستمتع بها حين كنت أُظهر العكس، كنا نتجادل حتى نصل لمنطقة اللاعودة فأصنِّفَه كهيبي؛ فيثور وينعتني بالتافهة، ويظل يتحاشى كلانا الآخر ليومين، ثم يعود ليفتعل حديثًا وديًّا لينهي الأزمة.

قررت أن أتعامل معه كمجنونٍ، من ذا الذي يجادل مجنونًا؟ كان

هو الآخر يتباهى بقدرته على الاستمرار بلا نوم لأسبوع كاملٍ، ومن دون إغفاءاتٍ ولو قصيرة.. وحين تنتفخ عيناه ويسودُّ جفناه يلف إحداها؛ فتنسحق إراداته متماوجة مع دخانها الأزرق، ويغيب العالم ويذوب الإحساس وتعتم الرؤية، أطلق على نفسهِ الدرويش، أدهشني جفناه الثقيلان وكفه التي تمسك بالمسبحة، وتعض عليها كما تتقن لف السجائرِ، كفٌ منكَّهة بالمسك، والأخرى تعطرها زيوت الحشيش؛ فوحده الحشيش – برأيه – قادر على ترتيب حياته المعقَّدة، ينسيه وجوههم، سخافاتهم المتكررة، حتى إنه يقربه – بظنِّه – من الله، مثله يخلق عالمه حسبما يريحه، ومثلي على قناعة تامة بوجوب عوالمنا؛ لأنها منح المتاح بقائمة محدودة الخيارات، ومع ذلك كله كنت أدرك طيلة الوقت أنني لو استطعت القبض بروحي على لحظة عشقٍ صوفي خالصٍ لكانت النجاة،

لكنني لم أنتظر إشارة، كنت أهم للصلاة بباطنِ الليلِ كدواءٍ، ودومًا يكون النهار مزعجًا وسخيفًا ومزدحمًا وحارًّا، وهناك تخذلني الإرادة؛ فتجذبني فخاخهم.

لا أدري كم من الوقت مر منذ اختفى صوتها، حتى فاجأني الرنين من جديد.

– كنا بنتكلم، رُحتي فين؟

– آسفة، سرحت ومخدتش بالي، قلت لك نبهيني قبل كده.

– مش أول مره! عادي.

بدت لهجتها كما لو كانت تكز على أسنانها فبادرتُها قائلة:

– قلت لك آسفة.. ارهاق اليومين دول مش طبيعي.

– ولا يهمك، انتِ كويسة؟!

– بحاول.

- تعرفي شفت مين!

كنت بمزاجٍ لا يسمح بحل الأحجيات، وكان عقلي مسافرًا إلى حيث يمكن أن يكون، طالبتها بالتوقف عن أسلوبها أو لتصمت فأذعنت مضطرة وقالت:

- «ديبو»!

- «عبد الرحمن»؟!

- أيوه «عبد الرحمن».

- بتهزري؟

- لأ مش بهزر، باتكلم جد، ومش لوحده، كانت بنته معاه.

- يعني بلد فيها 20 مليون بني آدم، ما تشوفيش منهم غيره؟!

- هكدب عليكي ليه، حقيقي شفته؟!

- وبعدين.

– لما آجيلك.. ساعة وابقى عندك.

***

كنت أناديه بـ«ديبو» وكان يكره ذلك؛ فعلى الأقل «ديبو» أفضل من «بيدو» التي كانت «نيفين» تداعبه بها، «ديبو» أقرب روحًا وملامح إليه، كانت عيناه بعمق وحدَّة عينَي ذئب، في يومي الأول بالجامعة بدت الأمور غريبة جدًا، دخلت من الباب الرئيسي، علق حذائي بقار الأسفلت وكان جديدًا ساخنًا، انتبه البعض وضحكوا عاليا، ارتبكت لبعض الوقت، لملمت خجلي وغادرت فالبشر لن يكفوا عن افتعال السخافات. تقدمت بينما اتأمل العالم بعينين شغوفتين، وجدت الشبان يقفون مع الفتيات بشكل عادي، أو يجلسون إلى جوارهن، يتبادلون الكلام وبعض النكات، يدونون أو يدندنون بشكل جماعي، هذا المشهد جعلني

في حيرةِ من أمري؛ إذ كان عليَّ بليلة سابقة أن أقسم لـ«مجدي» إنني سأكون حاسمة فيما يخص تعاملاتي، بدا المكان متسعًا جدًا واللافتات على كثرتها لم توضح أي شيء، سألت طالبًا يقف أمام أحد المدرجات عن مكان كلية الإعلام؛ فنظر إليَّ بتمعن وقال:

– خدي الاتجاه ده للآخر ولفي مع الدوران.. هتلاقي المبنى.

نفذت ما قاله بالحرف، بسيري كنت أتأمل الفتيات المدهشات ببلوزات ملونة ومكياج صارخ وقصات شعر مودرن.. كن يتضاحكن ويتحدثن بصوت عالٍ، كنت قد حملت ضيقي ومخاوفي من العالم، واختبأت خلف بلوزة قطنية فضفاضة وجونلة كلوش، ورفعت شعري بشكل ذيل حصان، فوجئت أنني عدت لنفس المكان أمام نفس الشاب. عاتبته قائلة:

– مش من الذوق أسألك وتتعمد تتوهني.

اعتذر عمًّا سمَّاه دعابة، وقال بتهذب:

– عبد الرحمن يوسف، وممكن تعتبريني دليلك في الجامعة.

ومن يومها اعتبرتني «نيفين» منافسة قوية لها.

أغرمنا بحماسه، كان ثوريًّا ممتلئًا بالشعارات، متخمًا بالسياسة حتى ظننت أنه يتنفسها، تراهنًّا مَن فينا يمكن أن تسأله عن أجمل اللقبين ليختار بينهما، لم أظن بنت الحسب والنسب تفعل، ستمنعها كبرياؤها من دون شك، لكنها فعلت، اندفعت إليه بالكافيتريا لتسأله ببساطة، فقال:

– أكره الاثنين كرهي للعدس و"غوركي".

جاء «عبد الرحمن» بعدها يشكو حصارها، تارة تصر أن تقله بالسيارة، وأخرى تدعوه لغداء فاخر، وثالثة تهديه عطرًا رجوليًّا من نوع غالٍ، أدهشني صموده، وأصبحت تلك هي الحالة الشعورية

المسيطرة عليها والتي ملأتها تصميمًا على الفوز به، أما هو فكان دائم الهروب منها وكثير اللجوء إليَّ، وبقينا نحن الثلاثة ننتظر ويرقب أحدنا الآخر، كنت الأخيرة سعيًا للمنافسة والأولى انبهارًا بمجلات الحائط التي يصممها كمحترف، وبمقالاته السياسية شديدة اللهجة، لم يرفع شعارًا بعينه، كان يناور في الاتجاهات كلها، أهداني كتبًا عن الاشتراكية، وكنا نتناقش دومًا، وعندما استحال النقاش لكتلة من المصطلحات المفخخة على شاكلة «ليبرالية، بيروستريكا، ماركسية، لينينية، سياسة مالية توسعية»، توقَّف عقلي عن الاستقبال، وظللت أسمع باهتمام، أفرد لي مساحة لكتابة القصص بمجلته، وظلت الموضة ورحلات الصيف شغل «نيفين» الشاغل مع محاولات مستميتة للاستئثار باهتمامه، كنت أستحلب لذة شريرة أقرب للشماتة عندما ينعتها بالتافهة،

درست ردود فعلها المختلفة بينما تختفي عن الأنظار لتخطط لشيء جديد، لمحتها مرة تتعثر بظلها، وضحكت.. منذ يومها تناديني «غيداء» بالشريرة.

غريبٌ هذا الأمر.. فكل ما تبقَّى مجرد محاولة للتعرف على الكنية وأسبابها، بضعة أحاسيس تدافعت، ولم يكن بينها شيء ذو قيمة، بدت في المجمل تفاصيل بعيدة أتابعها ببلورة، تذكرت جملة قرأتها لروائية معذبة بأنوثتها ومكبلة بذكورتهم، كانت تقول: «حين يلوحُ في البعيدِ سربُ يماماتك الموشوم بكفِّ القدرِ، أدرك أن الانتظارَ خدعة يمارسها الزمنُ بحقي ليهذب من رعونتي».

كنت على قناعة تامة أنه كان أكثر لحظات الانتظار مللًا وأكثر الخدع سخافة على الإطلاق.. حاولت كثيرًا بعده أن أطبب الجرح الذي تركه لي، يوم أن اتهمني بعد ثلاثة أعوام بالجامعة بأنني

رومانسية أكثر من اللازم، وبأنني أصدق «كل الشعارات الكدابة» وأن الحياة من دون قرش لا تساوي قرشًا.. يومها أدركتُ أنني راهنت بحياتي على حصان أعرج يسابق وحيدًا في ميدان.

***

أفقت من أفكاري لأجد صوت «غيداء» قد غاب، كانت تحتملني بصبر غريب، ظنتني مريضة يئست من الشفاء فاستسلمت للمرض - أو هكذا خُيِّل لها - كنت ألمح بعينيها أمومة مفتقدة، ولم تفلح وظيفتها كمذيعة بإحدى القنوات الخاصة أن تشغلها، على الرغم من الراتب الكبير والأزياء المبهرة، وحتى لون الشعر المثير الذي اختارته، يكمن عذابها في رفضها حقيقة أنها الزوجة الأولى لرجلٍ لم يحتمل عزوف رحمها عن الحياة ففاجأها بزيجة ثانية من امرأة أول ما اجتذبه إليها اسمها بصفحة التواصل

الاجتماعي، «رهف»، سورية الجنسية خارقة الجمال، كنت أمازحها بأنه «انجذب لنهديها النافرين بصورة البروفايل، وليس لاسمها بالغ النعومة». أكثر ما كان يؤرقها فكرة الناس عن الشاميات، وكونهن مكتملات الأنوثة مفعمات بالغنج، وموهوبات في افتعال مواسم غزل ساخنة؛ لذا هنَّ شهيات، وقادرات على اجتذاب أكثر الرجال شهوة وفحولة، كانت لتحتمل غريمة مصرية برضا مصطنعٍ، بينما تفتك بها الغيرة لكون شريكتها فيه من جنسية أخرى، ربما لم يشغلها عن تلك المشكلة غير مرض أمها بالعامين الأخيرين، ضبطتها تبكي أكثر من مرة أمام مرآة الحمام، كانت تخفي وجهها وتتصنع ابتسامة ميتة، ليتها لم تفعل، تعابيرها كانت تذبحني.

اتسعت القطيعة بينهما، واستحالت لقتالٍ موجعٍ، كلاهما يراهن فيه

على الصمود، كان يقامر على أشواقها، وكانت توقن أنه سيعود، أرهقت لياليها المؤرقة بانتظار هاتفٍ يبثها أشواقه – فقط لو يتخلَّى عن جموده – ومع ذلك كانت تحتوي اسمه بجوالها طيلة المساء، تهزم رغبة في التصحر ببعض ومضاتٍ منبهة بالذاكرة، كانت الغيرة تهزمها، تفتك بها حنينًا إليه، تذكرها بأنه من لملم حاجياته ورحل، تدفعها لبغضه وحبه وانتظاره والملل منه، تبثها هواجس ليلية ساخنة عن لقائهما كل ليلة.

– وكأنك معاهم!

– نفسه في طفل.

– كلهم بيعملوا ده طول الوقت ومن غير مبررات. الجنس احتياج.

– كل ما أتخيلهم مع بعض بموت.

– حتى المخلص بيتخيل في مراته «ميج رايان» عشان يستمتع.

- مش عارفة أعيش.

- اشحني نفسك ضده تلات مرات في اليوم، هتبقي كويسة.

- فعلا مش عارفة.

- حاولي.

خدعتها حين قلت ذلك، اختلقت الأسبابَ لنسيانٍ لن تجرؤ عليه. مع الوقت خارت عزيمتها وقلَّ جوعها للأشياء، فكانت تجيء وقد سحقها البكاء، بجفنين متورمين، وصوت مبحوح، لتقضي النهار كله بتبديل شرائح الخيار واحتساء الينسون، فلربما يزول التورم ويعود الصوت ويفر الضجر. انتفت ثقتها بذاتها، وتلاشى البريق الذي يحيطها كمذيعة، أصبحت ريشة هائمة بفراغ كبير، ربما لم تعثر على وظيفة كتلك بأجرٍ كهذا إلا لتعوض حرمانًا ما ولم تفلح، ومع ذلك ظل حلمها بعودته يراوغ على الدوام، حتى

علاقاتها الشائهة، معارفها الأغبياء وصديقاتها المبهرجات، كانت على استعداد تام للفظهم لو فكر مرة وعاد، أذهلني أنها برغم تلك الأوقات القاسية، ظلت كما هي، تضيع كليا بحضرته، تتبدد، تصبح تلك الطفلة التي تفعل كل شيء لتحتفظ منه بنظرة، بإيماءة، بوعد، تتوتر لتضحك، تبكي لتئن، يصبح همها الاستحواذ على اهتمامه الذي لم تعد تشغله. كانت تعرف أنني أكذب، لكنني وجدتها محاولة مفيدة، لن يكون القدر جبانًا فيبخَّل علينا بفرص جديدة لننسى عذابنا، ولن نستغلها أبدًا كلما داهمنا الحنين لأحدهم، سيحركُ العلاقة انتظارك لهاتف صباحي – كنوعٍ من الدعم التقني لذاكرة ترفض أن تموت – لعله الخوف من الغد الذي لا يحمل رنات هواتفهم، ولا حروف رسائلهم ولا اخضرار فصولهم.

للمرة الأولى منذ فترة تخونها دموعها أمامي وتبكي:

– أنا ميتة من غيره.

– صدقيني، هتنسي مع الوقت، ويمكن تسألي نفسك عن اللحظة الفارقة بين زمنين، تمام زي إحساس الدايت، جوع في البداية، وفي النهاية بتتعودي.

كنت أهاتفها يوميًّا لأكثر من ساعة؛ لأمارس دور طبيبة نفسية لامرأة تخلَّت عنها نفسها، وسلبتها الذاكرة فرص النجاة، تقول: يفعل «شادي»، يضاجع «شادي»، يقبل «شادي»، يثور وينفعل، يروغ وينفلت.. كما لو أنها رتبت الأمور بذهنها من أجل أن تحكيها لي، ربما كانت تنتظر هذه اللحظات بفارغ الصبر لتفرغ جعبتها، أمور كثيرة مربكة ومحيرة، لا تقولها إلا امرأة لامرأة، أشياء حميمة وخاصة، وكنت آمرها لتكف عن استحضار صور رجولته، ولتهب أوراقه وصوره للعدم.

صديقتي التي كنت أضمد جراحها أهدتني جرحًا بحجم نافذة وغمامة بوجه الصباح حين حدثتني عنهم، حين ذكَّرتني بأنني أواجهها بثورة حين أشتمُّ ضعفها، وأنا أكثر هلعًا منها حين يمرون بالذاكرة.

كانت ترقب الوقت بصبر لتذكِّرني بموعد البرنامج الأسبوعي للداعية الوسيم، لتغرق في وصلة بكاء حين يرق صوته بالدعاء؛ فينهنه الحضور، ولتظل تلوم نفسها على انشغالها بأمور دنيوية زائلة، مدت إجازتها، وبالصيف نفسه غطَّت شعرها، وكثير من الألق احتجب، حضرت دروس الدين، صلَّت قيام الليل، ناقشت عرض عمل بقناة فضائية خاصة بالمحجبات، كان برنامجًا يناقش أزمات الفراش بين المتزوجين وأزمات ما بعد الطلاق، وفي النهاية اعتذرت، ازدادت عزلة وتعلقًا بدرس الداعية، وأصبح التلفاز ملاذًا

هانئًا للمُحبَطة.

- شوفي إزاي اتحصَّن بالقرآن وماستسلمش للشهوة، شوفي كام فنانة ربنا هداها بسببه!

في الشتاء الذي يليه كانت قد ازدادت شحوبًا، وغريمتها جمالًا، وزوجها بُعدًا، وصلاتها تقطعًا، وبعدها خفَّ إحساسها بالذنب.. عادت لعملها بحجة الفراغ، وصبغت شعرها بلون جديد، وسواء كنت مقتنعة أم لا، تركتها تفعل من دون أن أعلق بحرف، كنت شبه متأكدة من أن ما كتبه الصحفي «ضياء الحسيني» بعموده اليومي عن الشفاء بالقرآن وحلقات الذكر بأضرحة الأولياء، لم يكن مجرد بدعة؛ لأنه تكلم عن تجربة واقعية خاضها بعد وفاة زوجته وجنينهما بحادثٍ، وكيف أنه تخلص من آلامه بالذكر، في حين فشل طبيبه النفسي في علاجه، لم أجده درويشًا كـ«كريم»؛

لكن كما أدهشني الأول بأسلوبه البوهيمي، أقنعني الآخر بوجوب العودة لله؛ لأنها محطة للذات؛ لذا فإنني حين أفعلها أكون على قناعة تامة، كان طقس استرخاء أقرب للتطهر، أغمر نفسي بالماء بحوض الاستحمام لوقت يقارب الساعة، تحتضنني فقاعات الصابون ممتزجة بعبير الياسمين، كنت أوقد شمعتين كبيرتين فتطلقان عطرهما الطيار، أشم اشتعال الزيت وطقطقاته، أتعرَّف على نفسي حين يزداد الوميض، لا أتوانى في غمرة انتفاضتي على نفسي أن أدفع احتياجي لـ«خالد»، فلا يعتريني شعور بالذنب حين أنشد الخلاص، بلحظة محددة أعلن أنني اكتفيت، وبرحلة كشفية للتنقيب عن الحقيقة أقر بأنه الماضي، وأنهم ليسوا بأشباحٍ مخيفة تسعى للنيل مني، ولا قتَلة بانتظار دورٍ رئيسي بمشهدٍ دموي، بل مجرد كوابيس ليلية انتابتني بعد عشاءٍ ثقيلٍ، أو ربما

ضلالاتٍ وهلوساتٍ سبّبتها الوحدة واللوذُ بالوهمِ، أخرج من الحمام، بعد أن اغتسلت وتوضأت، أبحث عن سجادة الصلاة، أصلي، وبين دفتيه الآمنتين أعلن الشفاء بـ«طَهَ * مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ».

عدت بظهري للوراء، ارتكنت للجدار، زفرت زفرةً حارة، التهمتْ عيناي نصوع السقف، ودائرة مضيئة بالمنتصف، بأحد الأركان تدلَّى خيط رمادي رفيع لنسج عنكبوت ينتهي لشبكة سداسية التكوين، ارتكزت عيناي إلى بؤرتها، تساءلت: كيف أفلتت مني؟!

***

كان المطر الذي تساقط ليلة أمس قد توقف وترك بِرَكًا صغيرة يتقافز عبرها الصغار، وكان البشر القليلون يمضون بسرعة لا تتطلبها الأرصفة شبه الخالية، ارتدت عيناي عن المباني المبتلة

لتركض خلف الهررة بالشارع، كان نهارًا غائمًا أمضيته بالفراش، لا أذكر أنني غفوت ساعة على بعضها، كانت عقارب الساعة تشير إلى السادسة مساءً حين تطرق لأذني صوت تلفاز الجيران، هممت بالذهاب للمطبخ لصنع كوب من القهوة، لولا الشعور بالحرقان بعيني، تذكرت ما كان عليه الأمس من كآبة، قفزت لذهني صورة مدير النشر بعد أن سمحت لي حمراء الشعر بالدخول، كان يجلس خلف مكتبه، واضعًا على أنفه نظارة للقراءة – لم يهتم بدخولي كثيرًا – أشار لي بالجلوس، قال بالحرف الواحد:

– مش عارف.. عاجباني فعلًا بس فيه حاجة ناقصة.. أنا متأكد.

قلت بضيق:

– من فضلك لما تعرف كلمني.

نهضت من مقعدي، نزلت إلى الشارع، تذكرت كيف قدت السيارة، وكيف توقفت بها بشارع جانبي؛ فلا يلحظ الناس بكائي، أحتاج لزوجين من العدسات، أحدهما طبي والآخر يمنحني نظرة أخرى أكثر مرونة للأشياء.. أشعر بعدم الإنصاف، لا أعرف ما الذي يعيب الرواية، أمضيت عامًا كاملًا أضيف هنا وأحذف من هناك.. وكانت النتيجة دومًا غير مرضية، سألتك عن نقاط ضعفها فقلت إنها البدايات، وقلت اذهبي، واجهي أشباحك، جديهم تمامًا أو لا تكتبي.

***

بالمساء جلست للحاسوب، أضاءت نافذة الرسائل بستٍّ جديدة، لم أفقد الأمل في رسالة منك، تفقَّدتهن، بعث الناشر بتقرير مفصل عن الرواية، حدد بنهايته التعديل المطلوب في نقاط، وشدد على

ضرورة إنجازه لتلحق بالمطبعة.. ثم قصيدة عمودية من سلفي يكتب الشعر سرًّا ويسميني الملهمة، وبرقية شكر من أحدهم لقبول الصداقة مع رغبة مشددة بضرورة التواصل، ودعوة لحضور كورس ببرنامج تنمية بشرية بأحد المراكز الثقافية الشهيرة.. وأخرى للمشاركة بوقفة صامتة احتجاجًا على مقتل الشاب السكندري بأيدي عناصر شرطية، والأخيرة لم تكن غير اقتراح مهذب من قارئ باستبدال عنوان عمودي اليومي ليصبح «رؤية» بدلًا من «لمحة».. كنتَ تراسلني يوميًّا بهذا الوقت، ترسل قلوبًا وأيقونات مضحكة، بعض زهور برية وصور جياد وجُملًا معكوسة لن يفهمها سوانا.. طال غيابك هذه المرة، لم تُجب على رسائلي، ولم تتصل.

تذكرت كل ليلة كنت أستيقظ فيها لأجد خيالي بجواري، أفقت ليلة

الأمس أكثر من مرة، رفعت رأسي لتطالعني صورتك، كنت وسيمًا على الرغم من أعوامك الخمسين، فكرت أن أتصل لأصرخ فيك: ألم تنتهيا بعدُ؟ كنت أتساءل: كيف تحب امرأةٌ رجلًا يضاجع غريمتها يوميًّا؟ وكيف تستمر في الحياة على الرغم من يقينها من ذلك، ثم تعود ببساطة لتخط اسمه مفردًا «خ ا ل د» بكل صفحة قبل أن تكتب؟.. الأمس حلمت بك على الرغم من أنني أقاوم جنون مشاعري، نهضت من فراشي، أمسكت بحاسوبي، فعلت الرسائل، وكتبت: « أيها الخالد.. هذا الغياب كله من دون وداع !».. في النهاية حذفت الرسالة.

5

كان صباح اليوم التالي أكثر غرابة، لم يفتح الباب طوال النهار حتى لبائع اللبن.. أزحت ياقة القميص عن عنقي، داومت على تمرين الاسترخاء لثلاث دقائق، امتلأت بالرضا، أعدت على نفسي الاكتشاف ذاته؛ فاليوم الذي عادوا فيه كان عاديًّا، عاديًّا جدًّا.. فعلت الأشياء نفسها، بغير ترتيبها ربما، قرأت الجرائد نفسها، تناولت قهوتي، تجاوزت عيناي نافذتي المتسعة.. الضيقة جدًّا، حاولت أن أرى شيئًا غيرهم فلم أجد، واربت النافذة، التقطت عيناي فوضى الخزانة، واجهت اصفرار فستاني بوجه باهت ممتقع، أزحته بعيدًا، اتصلت بالشقراء ذات اللثغة لأؤجل موعد الأديب الكبير، استلقيت على الأريكة وعيناي تتساءلان: هل كانوا فعلًا هنا: سيدة الشال، والرجل الضخم ذو الشارب وأنثى العلكة وصياد اليمام، هل عبروا من دون أن يتأذى أحد؟!

اكتشفت أنني لم أكن مضطرة للجلوس على عتبة منزلي لخمسة عشر عامًا؛ كما فعلت «برتا» برواية «باولو كويلو» لأعرف أن ثمة شياطين تذهب وتجيء في كل لحظة من دون أن يؤدي حضورها بالضرورة لارتباك الأمور؛ لأنها ببساطة تطوف العالم لترى ما الذي يجري، ولتختبر هذه الروح أو تلك.

أدركت ذلك حين تفقدت صورهم فوخزني الجرح القديم، سبع مرات كانت كافية لأدرك أن الغرس بغير موسم خطأ كبير، لماذا اضطررت لفعل ذلك سبع مرات؟ لعله الخدر الذي ينتابني كلما لمحت نصوع أسنانه وانفراجة شفتيه حين يهمس: «أريدك»، كم مرة تلزم الهرة لتدفع خجلها قبل أن تلتهمها فتحة الباب لتظفر بوجبة «عَلَوِية»؟ كم مرة عليها أن تقاوم هذا الهاجس لتبرهن على مرونتها، ولتثبت أن الفراغ المحدود قادر على استيعابها؟ تسللت

برشاقة منجذبة لشعاع الضوء النافذ ما بين شطري الباب، متوسطة الردهة بقدمين مرتعشتين، كان النقر على الباب آخر المسافات الآمنة، ذاب الخجل كما يذوب الثلج على سطح ساخن، بدت الصالة أكثر اتساعًا من براح السطوح، كنا نتساءل: من فينا يصعد إلى السطح أولًا؟ أذكر أننا مرة تسابقنا إلى الدرج الخشبي لنمسك بيمامة قال إنها تشبهني، عجبت له، كان يكتب الشعر ويهديه لطيور الكون التي صادفت وجه حبيبته في تحليقها البعيد، لم تكن غير يمامة بعينين وادعتين وقلب من حرير.

كان الفجر إشارتنا، ننتظر بشائر الصباح، أحدنا يسبق الآخر للسلم ومنه لدرج خشبي يفضي لعارضة معدنية عريضة يرتكز عليها اليمام ليحدق فينا بنصف عين، تجاورها عشة الدجاج، كان شبحه متربعًا على العارضة، بينما يحرك ساقيه بطريقة اهتز لها

جسده، سبقني كالعادة للصعود وكنت أسبقه دومًا للنزول، كنت أرقب وجهه بينما يمسك لي السلم المؤدي للعارضة حتى أصعد ليضبط اتزانه، يرقبني في ذعر بينما أرتقي الدرجات، خوفا من أن أقع، لم أكن حتى أفكر في امكانية الوقوع لعلمي بوجوده، كل ما كنت أفكر فيه أن أخيفه أكثر، فأتمايل فيهتز السلم ويتشبث به، كنت أحدثه عن كل شيء، خصال والدي الصعبة، ما إن أصف حالنا معه حتى يضحك، قال بثقة إن من له بنت بمثل جمالي لا بد أن يصيبه الجنون، وإن الجمال أحيانًا ما يكون نقمة على صاحبته، وربما كانت قسوته نوعًا من الحرص الزائد بدافع الحب، ملأني القهر وقلة الحيلة، أذهلني منطقه وعجزت أن أستوعبه؛ فالوضع برمته غريب، فـ«مجدي» كرجل يعاني جبروت أبينا وبكل طاقات الإحباط الممكنة استحال لخيال يمارس رجولته في

الخفاء.. حكيت عن حسناوات يسكنّ المجلات ويختبئن بدولابه مع بعض الكتب السرية، ناقشنا غموض المعلقات وصعوبة المفردات بقصائد امرئ القيس، وزُهَير بن أبي سُلْمَى، فألقى عليَّ قصيدة سهلة للسيَّاب، قارنت بين لغتها والأخرى بالغة التعقيد للأبرص والأعشى والذبياني، وحين فعلت ضحك ساخرًا مني، تناثرت بحديثنا كثير من الأسماء لأدباء وشعراء ومفكرين، كانت أحاديث طويلة منمقة، لم أتخيَّل أن عالمًا كهذا يفتح أبوابه لي، لم يكن عالمي سلسًا إلا معه، وحده يلونه من دون رتوش زائدة ولا بهرجة، كانت دهشتي كبيرة وإعجابي به أكبر، قررت أن الساعات الطويلة التي أقضيها خاملة بغرفتي يمكن أن أستغلها في القراءة، اتفقنا أن يعيرني بعضًا من كتبه، وأن أعيره بعضًا من ضحكاتي.. لا أعرف أبدًا سر الرضا الذي تسرب إليَّ عندما تأملته بظهيرة هذا

اليوم، هل كان قميصه الجديد أم الشمس التي داعبت عينيه فتلألأتا؟ كنت أود أن أترك لعينيَّ حرية التجوال بملامحه، لكن شيئًا ما حدث حين قال:

– وحشتيني.

وصلني صوت أمي، تلفتُّ خلفي، صفَّر «علي» بحدة وأشار للسماء، كانت الطائرة الورقية لجارنا الأخرس «عمر» تتماوج مع الريح بشكل انسيابي وعلى ارتفاع كبير، كان مدللًا ومكورًا كـ«دب باندا»، وكان وحيد أمه، التفتُّ إليه لأتذكر صراخها قبل عامين ومداسها ينهال فوق مؤخرته بينما يضحك ببلاهة ممسكًا بذيل أسود فاحم؛ لم يكن غير ضفيرتها الطويلة وثبتها كذيل للطائرة.

فاجأني «علي» بقبلة على خدي، أطلَّ «عُمر» برأسه فجاة وكانت عيناه تجحظان، برز كشيطان، نادت أمي بصوت أكثر حدة،

ضحك «عُمر» فالتجأت للركن وبكيت.

- شافنا.

- انتِ جميلة قوي.

- شافنا يا «علي».

- حتى وانتِ بتبكي جميلة.

- بقولك شافنا.

- انتِ إلهة يا «جورية».

- تعرف، لما بكون معاهم بغمض عيوني، غصب عني بخاف يشوفوك جواهم..

- إيه الكلام الحلو ده!.

- لازم انزل ياعلي.

- هستناكي بكره، تعالي بدري.

رسمت ملامحي ابتسامة شاحبة.. أسرعت للنزول قبل أن يعود صوتها، كنت أحدث نفسي بأنه لقاؤنا الأخير، ليكن موجعًا إذًا حتى يبقى في الذاكرة، افتقدت «علي» وبدا السطوح كابوسًا كلما أمرتني أمي بالصعود لأُطعم الدجاج، تعللت بكثير حجج، ما منعني سوى عيني «عُمر» الجاحظتين وبياض أسنانه وبسمته الصفراء.

***

أسبوع من ترقب مخيف وانتظار لأشياء ربما لا تأتي.. بهذا الأسبوع كان «علي» يكتب الرسائل ويجمعها بصندوق، متحينًا فرصة للقائي من دون فائدة، صباحًا وقبل أن يمررني الميدان إلى المدرسة فاجأني وقد وقف قبالتي، أنفاسه قريبة إلى حد كبير، احمرَّت وجنتاي من الخجل، وتصاعد الدم إلى رأسي، دس بيدي

رسالة وانصرف؛ تلفت حولي فلم أجد أثرًا له، قرأت الرسالة واتسعت عيناي في ذهول.. كم مرة أغلقت عيني وفتحتهما لأتأكد مما أراه، لا أعلم، ركضت للداخل في جنون، ركضت حتى شعرت أنني ابتعدت، دفنتها عميقًا بالفناء.. جاءت البنات مسرعات يتفقدن الخبيئة.. قذفتهن بحفنة من الرمال فانصرفن مهرولات.. لملمت خبيئتي قبل أن تلحظ المشرفة، ويصبح فصلي أمرًا محتمًا.. بدورة المياه كان المستقر لقطع صغيرة من الورق أكبرها بحجم ترددي.

«أنتِ لا تفهمين يا جورية.. توحشتك كثيرًا، هذا قدري أن أنتظرك فجرًا كل يوم من دون فائدة أو أرقبك بذهابك في الصباح وأيضًا من دون فائدة.. ثمَّة أسباب تدعوني لرؤيتك، أولًا: المجلات الأمريكية التي وعدتك بها، ثانيًا: آلتي الموسيقية الجديدة، ثالثًا:

وقبل كل شيء وربما لن تصدقي.. توحشتك أكثر من يمامتي المدهشة.. تعالي جورية في الخامسة.. ستغيب أمي ليومين.. ستكتشفين أشياء كثيرة عني فقط لو تحضرين.. عديني أن تفعلي. أحبك».

ما الذي أفعله بنفسي؟! ما الذي أفكر به؟! خرجت من الباب في الصباح الباكر، تمهلت في استعداد مهيب للغياب عن المدرسة للمرة الأولى من دون إذن، ملأت الوحشة قلبي، جلست على الدرج للحظات، كأنني أرى الباب لأول مرة، صارعت هواجسي، تساءلت عن معنى انتظار رجل لامرأة وكلاهما مفتون بالآخر، رغبت في التراجع، قدماي تقودانني إليه وروحي تخذلني، طاردتني صورة لعاريين يمارسان الحب بجنون، طمأنت نفسي بصوت عالٍ: «مستحيل، انا مش مجنونة»، أزحت العلل جانبًا، وقفت

ببابه، ضغطت أصابعي زر الجرس، لم يكن بحاجة لأكثر من هذا، بالفعل كنت هناك بتلك الغرفة الوردية تحيطني جدران ومروحة سقف وبعض صور لـ«جيفارا» وصورة لأمه، هل كنت غبية لهذا الحد حتى إني هيأت نفسي لقبلة على الجبهة واتكاءة على المقعد بينما أتصفح مجلاته؟ ربما أسرتني صورته بينما يداعب الآلة الموسيقية، يهبها بعضًا من أنفاسه ويهبني بعضًا منه، وربما همست لنفسي وقتها أنه من غير المقبول أن يحدث بيننا أكثر من ذلك ببساطة لأنني أستمتع بأكاذيبه وأسميها «مراودات عابرة»، ربما لأن كل ما رغبته مجرد إغفاءة على صدره، بعض عطوره، بحة صوته، لكن لم يخطر ببالي أبدًا أن نتصفح معًا فن الهوى لـ«أوفيد».

- إيه كل ده؟!

- فيه إيه؟ مالك؟

- عُري غريب!

- تكاوين الأجساد كلها سحر.. ده فن يا «جورية»، مش مجرد عُري.

- يا ريتني ما جيت.

- يا ريتك ما اتأخرتي.

- أقولَك سر؟

قاطعني قائلا:

- انتِ أجمل أسراري.

أي سر هذا الذي كنت أخفيه؟ شعرت بخجل كبير، حتى الحماقة لها درجات، لم يرُقني هذا التحايل على الضمير، لكن شيئًا ما يقهر مقاومتي، ليته كان طيفًا نورانيًّا يأخذ بيدي لنُصلي.. لكنهما

يداه بدأتا مناوشة.

– مش بإيدي يا «جورية»، أنا ما حسيتش إني عايش غير لما لقيتك.

– عمري ما خفت زي النهارده.

مفزع هذا الإحساس، لم أستطِع تخطيه، على الرغم من أن كل خلية بي تنطق باسمه، كنت أفكر في الله، أذكرني بصلاة لم تتم لهذا السبب تحديدًا، أبحث عن النقطة المضيئة بداخلي، وكان في الوقت نفسه يسارع بمحوها.. حدقت في السقف، ماذا لو سقطت المروحة الآن؟ سأكون آخر لوحات الجدران ويسكن كل شيء.

– انتِ مش عارفة أنا حاسس بإيه، لو كنتِ مكاني هتعرفي، تعملي إيه لو ربنا بعتلك أنثى بروح طفلة لو بكت يرتعش القمر ولو ضحكت يغني سرب يمام؟!

كانت روحي مواربة كـ«شبابيك» منير، واللحن خافتٌ يليق برهاب اللحظة، استسلمت لغيبوبة افتقدت فيها العالم ولم أشعر بشيء سواه، لم أدرِ إن كنت أوصد نوافذي أم أفتحها عمدًا بيوم ريح، أغلقت عيني وملت برأسي للوراء، كان برفق يضغط كفي، انحنى ليقترب من شفتيّ، لم يبتعد سوى سنتيمترات.. استكنت، ذوبتني أنفاسه، التقت الشفتان، لفتني قشعريرة حين تذوقت قبلته الأولى وتسلل ريقه لفمي، أخذني بين ذراعيه، قال إن لي جسد آلهة أوليمب يليق ببعض مئات من القبلات؛ لذا كان عليه ألا يختصر رغبته في مجرد واحدة، بعدها بدأ موسم التقبيل، برفق رفع شعري من على جبيني، تطايرت قبلاته المحمومة على وجهي، فتحت عيني بذهول، تململت، لم يكن خوفًا وإنما... لماذا رأيت «رضوى» حينها؟! ولماذا كلما همس بأذني تسلل صوت الكناري

وتذكرت أمي؟ ما الارتباط بين اشتباكينا بـ«رضوى»؟ ولماذا يهرب مني وجهي بالذات؟

- أمي بتنادي يا علي.

- هششش.. بيتهيألك..

- كفاية يا علي.

- صدقيني بخاف عليكي اكتر من نفسي.

أدرت وجهي عنه، واجهني انعكاسنا عبر صورة كبيرة على الجدار.. بدا فيها شعر صدره كغابة من كافور وسنديانات، تساءلت عن اللحظة التي ستسقط فيها آخر أوراق التوت، تأملني عميقًا كمن يعيد اكتشافي، مرر أنفاسه وصنع زمنًا من همس، تسللت أصابعه ببطء لتتشابك مع أصابعي.. أفلت أزرار القميص، التقم أحد النهدين، ضغطت أسنانه نسيجه الوردي، ارتد كطائش

ليبيح لذة الافتراس، وكأن الأرض والسماء والبحار والتخوم كلها تهيأت لتلك اللحظة، طوق خصري بقوة، أرسل تلك النظرة العميقة وكأنها تحمل أمرًا بالخضوع، استسلمت لحصاره، وهنت تحت وطأة الإصرار، قبلني فأطال، عانقته بلهفة، صرخت من وجع مفاجئ لألمح بعض زهيرات حمراء تتشكل أسفلنا، والتقطت أنفي رائحة لم أشمها من قبل، همس بأذني:

– بحبِك..

كان العرق يتصبب من جبينه إلى عينيه ومن أسفل ذقنه إلى وجهي، مالحًا حارًّا.. ترك نكهة من كل شيء، صخبًا، جنونًا، وجعًا، جسدًا مَوَّارًا بالرغبة، وعند النهاية عناقًا حميمًا.

– صدقيني بحبِك.

فتاة السابعة عشرة صاحبة الحماقات الأكثر بشاعة في تاريخ

خيالها وطأت الأرض المسحورة، لم تعد تتمنى لو تستعيد ثوبها المغلق، ساقيها المضمومتين، زهورها النازفة، وضميرها المثقوب، تحس بتعاطف مع جسد أمها الساكن كبحيرة، لم تُمنح أبدًا قبلات كتلك، ولم تُترك مبعثرة لقطع من نار.. في هدوء أرخيت عيني، كأنني لا أريده أن يرى ندمي، وكأنني اتخذت قرارًا مسبقًا بأن يستمر، هو يعلم جيدًا أنه لا مفر ولا خيار آخر أمامي سواه، تركت له ما تبقى مني، وأغمضت جفني في قوة، بعد جولة متأنية على مسامي تسربت كفَّه لي بهدوء واضح كي يعيد تدوير المشهد، اشتبكت أصابعنا معًا، حائرة أنا، أطلق خيالي في سمائك يا رب، جردني من ضعفي، ومن صور تبتعدُ لتعود إليَّ، جناح الفراشة، بقع الشاي على الحافة، حبل اللبلاب المتهرئ، روائح الشارع، غبار الكنبات، مصابيحنا المحترقة.. وزجاج المرآة

المشروخ، لكن مَن تلك، هناك؟! أخرى تبصرها عينا روحي عند انعكاس الضوء على الصور، كانت أمي. أطرقت خجلًا، رفع وجهي، اعتصر الشفتين، تلاشى الضوء كما كل شيء، عاريين كنا إلا من نزق وشبح ابتسامة تخبو وبقايا مقاومة.. أربكتني ضحكته ونشوة عينيه، أخبرني: «لن تكون آخر ليالينا». كنت يمامة ذبيحة، اقشعرت روحي، تمنيت لو يمنحني ضلوعه مرفأ فأغفو بصدره، أو أنها الغيبوبة الأبدية، فلا يصلني صوتها، ولا تسألني الرجوع، حين هممت بالذهاب همس لا يريد أن أغادر، تثاءب الحزن بروحي، فعدت لحضنه من جديد.

6

لا أذكر شيئًا من مراهقتي غير تلك الأوقات، تهبط من دون مقدمات كعصا لا تقرع دماغي، وإنما كأداة تنبيه تشير لهم في الصحو كما تدنيهم في المنام، تلزمني بالصمت أيضًا، ذاك الشيء الوحيد الذي تعلمته والتزمت به كعادة يومية، في البداية كان الخوف من البوح، فلكل منا سره الذي لا يعرفه سواه، والآن هو الصمت الصاخب الذي يسبق تحقق النبوءات، الآن أردد كثيرًا أني خائفة، ربما من أن يتسع الفراغ أكثر فيلتهمني، فراغ الغرفة لا يمتلئ بدخان السجائر ليحجبني عن المرآة، ولا المطفأة تكف عن استيعاب رمادها.

كان «مجدي» يكره «رضوى»، أو هكذا ادعى، كدت ألمح غيرة بعينيه، حتى ضيقه منها لم ينفِ تعلق عينيه بها حين تظهر على

ناصية الشارع ولا احمرار وجهه وعبوسه حين اكتشف أن لها قلبًا معلقًا بنافذة أخرى تجاور نافذتنا.

– مش عاوز بينكم كلام بعد النهارده.

وجَّه كلامه لأمي بعدها:

– إيه يخلي بنت في سنها تلبس كده؟ وليه أمها تجوزها بدري؟

لم يكن يعرف شيئًا عن همسها بقاعات الدرس، ولا عن أسرارها المخجلة.. تخيلت لو عرف عن رسومها المبتذلة لفضحها.. شيء يتسلل رغمًا عني حين تبدأ الحكي، ترسم أشياء كثيرة، أتابعها بشغف، يتقلص إحساسي بالـ«دو» والـ«ري» والـ«مي» والـ«فا» حتى ينتهي الدرس أو تقرع ميس «زينب» أدواتها لتنبيهنا: «بنت أنتِ وهي»، حكت عن قبلتها الأولى، كانت على خدها الأيسر.. انتابتها قشعريرة وتهدجت أنفاسها، وضعت أصابعها على فمه،

وقالت محذرة بغضب: «أنت قليل الأدب». صفعته بغيظ، قالت إنها لم تكن تعرف بأنها ستسمح له بعد ذلك بتقبيلها عشرات المرات، فضحكت، ما إن تكتشفه أمام المدرسة حتى تتعلق بذراعه، ويسيران متجاورين كرقم «عشرة».. يفوقها كثيرًا في الطول.. تصورتهما مرارًا يتبادلان القبلات، خلتها مرة فوق كرسي، ومرة يحملها بين ذراعيه، ومرات ببهو السلم متعانقين بينما يجلسان، رسمت قلوبًا كثيرة بدفاتر الدراسة يتوسطها حرفه، وكثيرًا ما نثرت العطر على الرسائل المختبئة بين طيات الكتب، لم ينقطع كلامها عنه لحظة، حكت عن أشياء فعلاها معًا، أشياء لذيذة ومضحكة.

خطت حاجبيها ونزعت الشعر الزائد بينهما وفوق شفتيها، استعرضت ساقيها النظيفتين تمامًا، رسمت قميصها الفاقع وأخفت

إصبع أحمر شفاه بحقيبة المدرسة وتباهت بأنها التقطته خلسة من أحد أدراج أمها، أهداها «حسام» زجاجة عطر مركب من عطرين لم يعجباني، على الرغم من اشتياقي لرائحة لم تحتويها أدراج أمي ولا أي من أدراج بيتنا.

كان طبيعيًّا جدًّا وقتها أن تشرح أستاذة هدى، مدرسة اللغة العربية، يوميًّا أبياتًا من الشعر الرومانسي وتزفر بارتياح غريب، وأن تتناقض والصورة التي ركبتها لغرام «رضوى» بـ«حسام»، بدت صورًا ملموسة تتحرك على قدمين، تفرز أشياء، تصنع زمنًا مسحورًا وتبرر الحاجة للحب، وتدفعني لتأمل نفسي بالمرآة؛ لأكتشف أن الناحية الأخرى تسكنها امرأة تشبهني، لها الوجه ذاته والتفاصيل كلها.. لكنها أكثر جوعًا للحياة، مؤكد أن لأستاذة هدى الصورة المتطابقة نفسها في المرآة، على الرغم من أنها تتسل

بهدوء باتجاه نافذة الفصل ثم تعود لتدوّن شيئًا رومانسيًّا بدفتر وردي، بعد عام كانت ترتدي الأسود، لم نعرف منها من مات ولم نعرف فيمن نعزي، لم تترك للحزن شيئًا ليلتهمه حتى شعرها الناعم، الذي اختلط سواده ببياضه.. وبعض من روحها.. أذكر أني ضبطتها مرة تبكي بغرفة المعلمات، وكنت أحضر لها الدفاتر.. وقتها صرخت بي: «سيبيهم وروحي فصلك».

لم تخلع السواد لعام كامل، جف جسدها ونحل، اكتسى وجهها بمسحة صارمة، أصبحت كئيبة ضيقة الصدر، كثيرة التشاحن مع البنات.

***

انتهى العام الدراسي بحلو ومره، انتظرت «رضوى» لتحكي عن عطلة صيفية مختلفة عمَّا اعتدته لكنها لم تأتِ.. تزوجت

وانقطعت عن الدراسة ولم تنقطع أخبارها، سكنت بيت أمها، الشقة نفسها وبغرفة نوم تجاور غرفتها، انضمام «رضوى» لعالم النساء الخبيرات في أمور الحب والزواج جعل شرفتها قِبلة يومية للمتعطشين للمعرفة، تارة نضبط أبي يمعن النظر لقطع ملابسها الكاشفة على الأحبال، وتارة «مجدي»، بينما يقاوم فضول النظر لممر شهي بين نهديها، عددت أمي ملاءاتها لشهر كامل، أما أنا فكنت مشغولة بالأهم.. شعرها المبتل دومًا، بشرتها المتوردة ونظرتها الصافية، بصفنا الثالث الثانوي تزوجت أستاذة هدى من مدرس الإحصاء الذي ماتت زوجته بنزيف أعقب ولادة طفلهما الثاني، وبدت نهاية درامية لعلاقة حب أنهكت خيالها طوال عامين، نبهتني أمي لعدم الحديث مع أي من زميلاتي اللاتي انقطعن عن المدرسة لزواجهن أو حتى لخطبتهن، تخيفها سيرة

«رضوى» بالذات، ربما لميوعتها، نبهتني لعدم الوقوف معها بعد أن ضبطتنا نتكلم بالشارع، مرة نهرتني، بعدها تفرست بملامحي؛ وكأنها تود استنباط شيء تعرفه:

- اتكلمتوا في إيه؟!

- مفيش.

- بتخبي ليه؟ أنا خايفة عليكِ.

عندما تفرست بـ«رضوى» أدهشني خلوها من العلامات المدممة التي كثيرًا ما اكتشفتها بجسد أمي، لكن شفتيها كانتا أكثر امتلاءً ونضارة، اختفت تشققاتهما الشتوية المزعجة، وحلت مكانها لمعة الطلاء.

- اتكلمتوا في إيه؟ ما قلتيش.

- مفيش يا ماما، كلام عادي، صدقيني.

تقلقها الجدران وماخلفها، والليل وما يسفر عنه من مآسٍ، أشياء مريعة تلك التي تحدث وتلمح لها مشاهد ساذجة يسحق فيها قطار كل ما يقابله.. كائن هش يلتهمه صقر بكهف ما، جسد ضئيل يتلوَّى بنشوة بينما تفضح عريه إضاءة ماكرة، وربما أن ثقب الباب نفسه يشي بتلك الأشياء المخجلة، شعور ثقيل كلما اضطررت أن أخفي وجهي عنها كلما مدت عينيها، وأرهفت السمع للكروان بالفيلم العربي، بدت شفتاها متحفزتين للكلام، كانت تود تمرير رسالة ما وأحجمت، لم يكن الكروان يغرد وقتها ولكنه كان ينتحب، رغبت بسؤالها:

– ليه الكروان بينوح؟!

7

أعاني حنينًا هستيريًّا لصور خِلتني عشتها في زمن لا أعرفه، وأعتقدها دومًا تخص امرأة غيري؛ لذا فأنا على قناعة تامة أنني أسكن جسد امرأة أخرى، وربما أنها تبحث عني لنتبادل الأجساد، وتعود كل منا لحياتها.

هبط الظلام وما زلت في مكاني مستلقية على الأريكة، فِرَاشي البارد راودني عن حرارة جسدي لكني لم أذهب، صوتي مبحوح، أصابعي مرتعشة، وأوامر المخ لا تنتقل بسهولة عبر الحبل الشوكي إلى الأطراف، نوافذي المغلقة تشي باصطخاب الشارع، بالجانب ضوء خافت لمصباحٍ جانبيٍّ، تفرقتْ بعض الكتب على الأرضية الخشبية بلا نظام، ذبابة الأمس ما زالت تطير بتثاقل، استقرت بعلبة الطعام الصيني لتنهل من فتات وجبة المساء،

قطعة السوشي غير طازجة، واتخذت مظهرًا بلاستيكيًّا منفرًا، زجاجة الكولا الفارغة تركت أثرًا مستديرًا لزجًا على حافة المنضدة، وفنجان القهوة المرة له يومان بالمكان نفسه، أم كلثوم تغني..

وقلبي سلم لك أمري..

- انتِ فين يا بنتي؟

- هكون فين؟!

- شكلك تعبان..

نظرت إليها بارتباك وعيناي تقاومان الضوء بصعوبة، ومن دون إرادة تتفحص الروزنامة على الحائط.

- قلة نوم، إيه آخرك؟!

- الشوارع مش طبيعية، مصر بتولع؟!

- ربنا يستر.

- مش حاسة هاتعدي المرة دي.

- هاتنزلي؟

- أنزل فين؟!

- معاهم؟

نظرت إلي مبتسمة وقالت:

- تعرفي عني كده؟! انتِ صحفية وطبيعي تغطي اللي بيحصل.

- وانتوا!

- يمكن القناة تبعت مراسلين.. بس انا مش هانزل بنفسي.

- مش هايقولوا.

- مين هم ؟!

- مش هايسمحوا أصلا.

- آااه، بيتهيألك.

- بكرة تشوفي.

وضعت الكوبين على المنضدة، انفلتت بعض القطرات، وانسكبت على الحافة.. سارعَت بتجفيفها بمنديلٍ ورقي وتململَت ضجرة، تفعلها دائمًا ويظل الأثر المستدير يشاغب عند انعكاس الضوء، تمطت مجهدة وجلست، أمسكت بأحد الكتب الملقاة على الأرض، قلبت فيه مبتسمة وألقته على الجانب بلا اهتمام..

- مفيش دماغ في الكون تستوعب كل ده.

-انتِ بس شايفة الدنيا من خرم إبرة.. متوقعة تشوفي إيه من مساحة مخنوقة بالشكل ده؟!

وضعت يدها على خدها، وتفرست بي كأنما تنتظر تتابع الكلام.

- معقول في عمرك مفيش كتاب واحد له قيمة دخل دماغك؟! إيه الدماغ دي؟!

- على الأقل مرتاحة.

- ساعات بفترض إن كلامك صح؛ لأن المنطق نفسه فشل إنه يلاقي حل لكراكيب دماغي.

- يبقى مجنون اللي يقولك إنه فهم الدنيا، صدقيني مفيش نتيجة.

واجهتني بوجهٍ عبوس، ربما لأنها اعتقدت أنني لم أكن بحاجة للرقص فوق رمالي المتحركة، وربما لم أكن مضطرة لأن أغرس هواجسي يوميًّا صباحًا لأجنيها مساءً بشكل نوباتِ صداع نصفي، وعشرات من الأوراق المكرمشة مبعثرة في الأرجاء.

بدت غير مهتمة بأي شيء.. ابتلعت ريقها، ورفعت رأسها وهي تسحب شهيقًا أخرجته زفيرًا حارًّا.

- تعرفي؟ لو بإيدي كنت فضلت معاكي.

- ده مجرد كلام، أنتِ مرتاحة هناك أكتر.. مش بس كدا.. لأ

كمان عارفة إنك لو احتجتيني هتلاقيني.

- فاكراني مرتاحة عشان مش ببكي؟! بذمتك مقتنعة بالكلام ده؟! انت اكتر حد عارف إني موجوعة عشان متعلقة.. لا طايلة سما ولا أرض، ساعات بحسدك إنك قادرة تتعايشي برغم كل الوحدة دي، ساعات بحس ريحة الصدا في كل حاجة: عرقي.. دموعي، حتى الحمام.

تنهدت بمرارة، وسألت:

- فعلًا مش عاوزة تسألي؟!

واجهتها بنظرة جادة فتدثرت بنفسها خجلًا لثوانٍ، وقالت:

- اتغير بجد.. مش ده «ديبو» بتاع زمان.

- طبيعي جدا، مين فينا ما اتغيرش؟!

- ده تغيير تراكمي.. يعني مش مجرد يوم، ومش بس تغيير

ملامح، إنما تفاصيل روح، وبعدين سهل تتوقعي حياة اتنين مش شكل بعض أو على الأقل مع ست بتحسب كل شيء بالورقة والقلم، حياة باردة سخيفة تشبه قاعة اجتماعات، يتقابلوا فيها، وكل واحد عارف عاوز إيه من التاني، كل اللي كان محتاجله ست تحبه مش واحدة ينام معاها.

– مش صحيح، ما كانش بالمثالية دي.

– انتِ دايمًا كده، وبالذات لما بتيجي سيرته.

– لأ.. بس انتِ نسيتي إنه كان بيحسبها بمنطق المكسب والخسارة.. تمام زيها.. يعني مفيش فرق بينهم.

– مهما كان، ما كانش يستاهل اللي عملتيه معاه.

– لأ يستاهل.. مفيش حد في الدنيا ممكن يتحمل غيرته.

– انتِ السبب.

- ليه بتقولي كده؟!

- يا سلام ! وكأنك مش عارفة. دي كلها ردود أفعال لتصرفاتك.

- كان مجنون يا غيدا، زي طفل جابوله لعبة حلوة نفسها فيها، فتعمد يكسرها عشان محدش غيره ياخدها أو يطمع فيها، كل حاجة كانت بزيادة، غيرته، خوفه المريض، انفعالاته، كنت محتاجه عقله أكتر من اندفاعه وجموح أفكاره.

- وهو كان محتاج فرصة.

- فرصة! للأسف مكانش ممكن اعمل ده، كل مرة كنت أحاول افهم كان يديني سبب جديد للبعد، كل ما اوضح أسباب أزمتي معاه يختصرها ف كلام فاضي، غيرة وخوف وتعنت وسوء فهم.

- والنتيجة انه خسر حياته وانتِ زي ما انتِ.

كنت أعرف عن خلافاته مع «نيفين»، والتي تصورتها «غيداء»

وقتها نهاية العالم، كانت تتدخل للصلح، وفي كل مرة يخالفان شروط الاتفاق، فتعود «نيفين» للسهر وجلسات النميمة، ويعود «عبد الرحمن» للبحث عن ذاته المفقودة بضربها أحيانًا وهجرها أحيانًا ومضاجعتها أحيانًا أخرى، افتعل شجارًا معها بالنادي، صفعها على مرأى ومسمع منهم، كاد يفتك بالنادل لتدخله لصالحها، كان يتعمد القيادة المجنونة بشوارع القاهرة، وصدم ابن دبلوماسي معروف في حادث أثار ضجة وقتها وانتهى بصلح مشروط.. كلها أشياء تزامنت وانفصالنا.. قلت بشيء من حدة:

– أعراض جنون.. يعني كان ممكن يقتلني.

***

زفرت عميقًا حين اكتشفت أنني فعلًا نجوت.. كنت أتعجب من عالمٍ ضيقٍ استثنى الذكور لدرجة أنني ظننتهم كائنات فضائية

غريبة التكوين، وأن النموذج الأول بحياتي، متمثلًا في جبروت أبي، ما هو إلا استثناء؛ لأنه – من المنطقي جدًّا – وجود حارس قاسي الهيئة، ورث المضمون على كل بابٍ يفضي لكنز، فما بالك بباب كنت أظنه يخفي عرش «كسرى»؟

لم نكن نتحدث معه، كان هو من يحدثنا، وإن فعل أجبنا باقتضاب: «نعم.. حاضر». كنا نجلس متململين بضجر، نحرك أقدامنا، نتثاءب، نتبادل الوجوم، نعد أصابعنا، نفركها، في كل شهر يعيد الجلسة ذاتها، ونجلس بالملل ذاته، نحدق في عينيه الحمراوين وأزرار منامته.

اليوم حين أفكر بحالي، أجدني عرفت رجالًا كثيرين، على كل لون، أغبياء، أذكياء، مثقفين، ومدعين.. كل منهم أضاع عمرًا كبيرًا يطارد فكرة من نسجه؛ بل وأخذ على عاتقه مهمة نشرها

وإقناع الآخرين بها، كل منهم استمات في مطاردة حلمه الكاذب، أعترف أن جزءًا مني بالبداية كان مبهورًا بعوالمهم السحرية، حتى اكتشفت تشابهًا بينهم يصل إلى حد التطابق؛ فكلهم يدعون لفكرة ما، كلهم وطني ومتدين وماركسي، لكن بالنهاية كلًّا منهم يفكر فيما بين فخذيه، «عبد الرحمن» كان أحدهم، كان أحد أبرع الأفَّاكين.

زواجه من «نيفين» لم يكن غير مواقعة مشروعة لاسم أبيها سالم المغربي، راقبها منذ وقعت عيناه عليها، وادعى العكس، لفتت انتباهه بثقة متناهية وسيارة فاخرة تقودها مسرعة، وقبل سنة التخرج فاجأها بعرض الزواج، كان الشيء الوحيد الذي يبرر قبولها كونه يصل لأهدافه من دون ضجيج، على الرغم من اعترافها بفترات تعثر ببداية العلاقة، قبل «نيفين» كان يكره مصر

التي تسلبنا أحلامنا وتطلقنا للحدود، وبعدها تغنَّى بها وطنًا للشرفاء متشدقًا ملء فيه بعصامية مزعومة، وضع صورًا بعرض الحائط وشهادات تقدير وسمَّاها «المنجز الحياتي»، كان يرمي بنفسه عاريًا بين أحضانها ويلتهمها بشبق، كنت أشمه فيها وأشم أنفاسها فيه، ببزاته وقمصانه وياقاته حين يجمعنا مكان، «عبد الرحمن» كان اشتراكيًّا ثوريًّا قبل أن ينظم حملات الدعاية لشركات أبيها، وقبل احتفاظه برصيد كبير بأحد البنوك، بعدها تنصَّل من رفاقه القدامى ووصفهم بالحاقدين، حتى سامح الجيار، أحد أقرب رفقائه، لم يسلم من نقده وهجومه بأكثر من مناسبة، «عبد الرحمن» فعلًا لم يحب كائنًا سواه.

– صدقيني يا «غيداء»، كان بيشتهي الحاجات اللي ما يقدرش يملكها لغاية ما تبقى في إيده، بعدها يرميها بطول دراعه.. يمكن

عشان كده كان هيتجنن لما سبته.

- ساعات بقول يمكن بينك وبين نفسك حبيتي «عبد الرحمن» وبتنكري، مفيش حد في المطلق معصوم من الحب.

- لو حبيت مش هانكر، وكل الدنيا هتعرف، الحب مش معصية عشان اخبيه.

- مش عارفة ليه مش مصدقة غير إنك مقتنعة إن مفيش راجل في الكون يستاهلك، حكاية جدك مأثره عليكي، كل مرة أكون عاوزة أقلك كده واتراجع. بخاف تزعلي.

- جدي زي معظم الرجاله. ما فرقش كتير.

- أيوه، بس صعب جدا تتخيلي جوزك ميت في سرير ست غيرك، والأصعب إن جدتك لآخر لحظه بتدافع عنه وتشوفه بريء. دي كانت ست غريبة .

- طيبة مُش غريبة.

نظرت لي بشرود.. تحسست المنضدة، رفعت كوبها وواصلت احتساء النسكافيه من دون حرف.

8

لم يكُن حُبًّا، لم يكن لعلاقتنا مثل ذاك المسمى، على الأقل من ناحيتي، كل ما في الأمر أنني سمحت له أن يكون رفيق الحكايات، كان بارعًا باستدراجي لمنطقة لم آمل ارتيادها.. وجع اللحظات، وكيف يكون محتملًا حين تتقاسمه وشخص ما.

راقتني ومضة حنون تغلف عينيه عندما يسحقني البكاء، فنتقاسم مرارته وعذوبته.. قايضته وجعًا بوجع، وفرحًا بفرح. كانت تلك طبيعة الحال بيننا، قواسم مشتركة، وتشوهات نفسية كالأجنة غير المعترف بها، أصابتها اللعنات وأجهضت ذاتيًّا.

كان غيورًا جدًّا، أتذكر لقاءنا بـ«كوستا»، أربكتني عيناه وتلعثمه، ورغبة لم تقوَّض بأن نرقص حتى الصباح.

كنت سجينة ذراعيه كعصفور بشرفة جانبية يختبئ في ليلة ماطرة، فاجأني بسؤال عمَّا إذا كنت قد استسلمت لعاطفة محمومة بدافع الحاجة للاحتواء، أذهلتني جرأته، أنكرت من دون تردد، عجبت من نفسي حينها، وكأنني خفت فقدان اهتمامه، لم يكن يهمني في ذلك الوقت أن أبدو كقديسة، فلست بقديسة على أي حال، نظر لي متمعنًا وقال:

- قللي المكياج، انتِ جميلة بطبيعتك.

قلت بأنها مجرد رتوش اعتدتها؛ فأتبع حديثه بطلب آخر أكثر غرابة:

- بطلي تلبسي ضيق، شوفي بيبصوا عليكي إزاي! لو سبت نفسي لغضبي هتزعلي من رد فعلي.

انتبهت للنظرة الجادة التي كست ملامحه، ومن دون وعي زفرت بضيق لكنه أردف بطريقة ناعمة:

- حاولي تقدري مشاعري، يمكن شايفاني ببالغ، بس على الأقل تحترمي إحساسي.

واجهته وكنت أعود للطاولة:

- «عبد الرحمن»، إيه الداعي لكل ده؟! أنا ما عملتش حاجة، ثم إن مفيش بينّا اللي يخليك في الحالة دي، أنا حتى لسه مش

محددة مشاعري تجاهك.

- يمكن انتِ، لكن أنا...

قاطعته بشيء من حدة:

- ولا انت، أنا مش مقتنعة.

- هتصدقي لو قلتلك إني مش مهتم حتى أدوَّر على أسباب تقنعك، كل اللي ممكن أقوله إني مش قادر أمنع شعوري تجاهك.

أجبته بكم من الثقة:

- فترات تعثر محتملة، ملل، فتور، برود، لا مبالاة.. مفردات كتير قوي نقدر نوصف بيها علاقة جواز بتمر بأزمة السنة السابعة.

ابتسم وأردف قائلًا:

- لأ لأ.. مش زي ما انتِ فاهمة، أنا ما بقيتش أحس مشاعر

ناحيتها، أي مشاعر، لا بالسلب ولا بالإيجاب، كل اللي بينّا شوية ورق.

ارتبك حين اكتشف أنه لم يعدد البنت من ضمن أشيائهما المشتركة.

- و«نورهان» طبعًا.

نظرت إليه بتمعُّن، وكأنني أكتشف خدعة ما، ابتسمت فظن أنني أشكك في صدق كلامه، تابع بمرارة:

- علاقتنا منهارة أصلًا، عمري ما حسيتها مهتمة بوجودي، عاوزاني «عروسة» بخيوط تتحكم فيها، أنا مش كده خالص، حاولي تفهمي.

ساد الصمت للحظات.

- يعني أفهم من سكوتِك إنك موافقة؟

نظر إليَّ مستعطفًا، مد يديه جانبًا ملتقطًا علبة غلفتها قطيفة حمراءُ توسطتها أنشوطة من المخمل كبيرة، تهلل وجهه، وظل يحدِّق بي بينما يداه تفضان الغطاء:

– شوفي قد إيه تشبهلك، ما صدقتش لما شفتها، أكيد اللي عملها كان بيفكر فيكِ.

ابتسم بعمق فأسر إحساسي الذي جاش بتلك اللحظة، انتابني الفضول حين فتح العلبة، فانساب اللحن كمتتالية عذبة، وظلت الباليرينا تدور بمكانها كفراشة أيقظها النور.

تمكنتْ مني الحيرة، فصرت أواجه عينيه لأختبر صدقهما، كانتا تلمعان، لم أتبيَّن الدموع بقدر ما كانت مراودة.. مناورة مستميتة لاصطياد موافقتي، لمح الارتياب بعيني، كنت أنقر على الطاولة نقرًا منتظمًا؛ ففاجأتني كفاه، ربت بخفة ودعاني لاحتساء كأس من

الليمون، لم أجد بي حاجة لاضطراب بمعدتي، شعرت برغبة في التقيؤ تغلبت عليها بالتوقف عن التنفس لبضع ثوانٍ، طالبته بعدها بمزيد من الوقت لأقرر حقيقة مشاعري من دون أي ضغوط، كانت فرصة أخيرة لتقرير مصير العلاقة.

***

أقلني للبيت، وبطريقنا توقفنا على الكورنيش، كرر عرض الزواج، حدثني عن طفلة لنا لها ملامحي نفسها، لم أصدق ما قاله عن «نيفين» من أنها تمنعه نفسها، وأن لها أكثر من عام تنام بغرفة ابنتهما على عكس ما كانت تخبرني عن مفاتيح غرف رجولته المختبئة بجسدها، وعن أناشيط الشعر المتواريات تحت الوسادة بعد طقس الغزل اليومي وكئوس النشوة المشبعة، تعجبت من الحال الذي آل إليه زواجهما.. لم أتخيل أنها تفعل لمجرد ألا

تنجب ثانيًا فيتأذى قوامها، أو لتسافر صيفًا لتركيا، كنت أعرف عنها عشقها للسفر، لكنها كانت تفعل ذلك مع صديقاتها من دونه، تاركة الصغيرة بأحضان أمه، وحين تعود كانت تلومه لتغير البنت تجاهها، أو لتعلقها بإحدى العمات ورفضها العودة للفيلا الكبيرة ذات الطابقين، أخبرتني ذات مرة أنها كانت تهديه زوجًا من الجوارب وقميصًا «سينييه» بعد كل رحلة، مريقة قارورة عطر فاخر على جسدها قبل كل ليلة ساخنة، قالت إنها أحبت مضاجعته أكثر من حبها له، أما هو فأحب البرستيج السخيف وفنونها للمراودة ووشومًا لورود وفراشات وضعتها عند التقاء نهديها وبنهاية ظهرها، تصورت ما يحدث بينهما لعبة مريضة حرص كل طرف فيها على تحقيق مصلحة ما، كانا شخصين معقدين، لم يستحيلا كائنًا واحدًا، هما اثنان دومًا، كانت متحررة

وكان يغلفه صلفٌ مصطنع، لكنها كانت تدرك أن الطريق إليه كان الفراش؛ فكانت تستخدمه كعامل ضغطٍ فوري فيهبها ما تريد، تستدرجه لمنطقتها، ثم تقطع الاتصالَ الحميم فجأة لتطالبه بشيء ما بأسلوب أنثوي تمارسُ فيه المكرَ؛ فينزلق لا إراديًّا بالفخ، ويستمر ينهل من منابع جسدها بحثًا عن لحظات نشوة خالصة، أقسم لي إنها تفعل ذلك وأكثر فزادني ارتباكًا.. فكيف تهجر الآن ما تظنه فخًّا منصوبًا يسحق إرادته ويحقق مآربها بيسر؟

لم تنتهِ الأسئلة ولم تقنعني الإجابات.. كانت هناك حلقة مفقودة لم يكلف نفسه عناء البحث عنها أو إيقاف غزو ما يتبع اختفاءها من فضول، تعددت لقاءاتنا حتى اعتدناها وصارت طقسًا حياتيًّا مألوفًا، يبدأ حديثنا بثرثرة عن أمورنا، ثم بكفي بين يديه، ثم حديث طويل للأنامل وقبلة حارة.

- شكرًا بجد.

- قوليلي، ليه دايمًا مرتاح وأنا معاكِ؟!

- دي نفس الجملة اللي قلتهالي زمان قبل ما تفاجئني بجوازك منها!

- أرجوكي اديني فرصة أنفذ اللي وعدتك بيه، مجرد فرصة.. يمكن ننجح.. ما حدش عارف.

- من غير ضغوط، أرجوك.

- من غير أي ضغوط، أوعدك.

اقترب ليضمني، وما بين تردد وارتباك قبَّلني عميقًا وغبت وغابت مخاوفي، أدركت أن تعاطفي المستمر قد وضعني بموقف لا يحتمل الانسحاب، كنت أحب ضعفه.. وما إن يغتالني حنينه إليَّ وتدفق مشاعره حتى تقفز صورة ابنته بالمنتصف كطلقة تحذيرية،

الخلاصة أنها كانت دومًا ليالي مربكة، حين دلفت إلى الشقة وأغلقت الباب كان غريبًا أن أمسك بالجوال ثم أنحيه جانبًا ثم أعود لأمسك به، تمامًا كمراهقة، حاولت بكل إصرار دفع حاجتي لمكالمته ولم تفلح المحاولة؛ إذ إني توقفت عند اسمه بالهاتف وكتبت رسالة من جملة واحدة:

- «طمني عليك لما توصل».

أرسل ردًّا قصيرًا جعلني سعيدة ومحمرة الوجنتين:

- «بحبك».

***

بداية عظيمة قادتنا لنهاية مفجعة، غيرة مجنونة غير مبررة. كنا نتناقش بانفعال، يتهمني بأشياء غريبة صوَّرها خياله؛ فأتخذ موقف دفاع مستميت.. يتابع ردي على أحد القراء فيعنفني وكأننا على

معرفة وثيقة، وبعصبية ينصرف. كان يفتعل المشكلات حين يجد الهاتف مشغولًا.. أصبح كثير الأسئلة ومستحيل الاقتناع.

كان يتبعني كظلي، يفاجئني بأنه على علم بكل كبيرة وصغيرة بحياتي وشئون يومي، كنت ألوذ بالحجج للفرار، وكما استهواني الأمر بداية، استحال بالنهاية كابوسًا لعينًا، أخبرته: ليس بيننا ما يلزم أحدنا بفرض وصاية على الآخر. فكرر عرض الزواج، تحججت بـ«نورهان» فطمأنني بأنه سيتركها لأمها؛ فهو من الرجولة بحيث لا يحرمها منها إلا في حال تزوجت.

ما زاد الأمر تعقيدًا رفضه غير المبرر لعملي، متحججًا بأنه سيضمن لي حياة رغدة، فما الداعي إذًا لعمل أختلط فيه بالرجال ويتطلب البقاء بالخارج وتقصِّي الأخبار من مصادرها أيًّا ما كانت؟! يراه ابتذالًا أن أظل بوظيفة تتطلب الاختلاط بعالم من

أشباه – هكذا وصفهم – ساسة وسادة ومن كل الصنوف، شرفاء مطحونين، ومجرمين عتاة، لصوص وقتلة، مرتشين ومدعين، أفاكين وأولاد حرام، وراقصين على الأحبال.

فاجأني بالمكتب ذات ظهيرة، كان «كريم» يجلس متربعًا فوق مكتبه في وضع اليوجا وبين شفتيه إحدى ملفوفاته، كان يمازحني بنفسٍ طويلٍ متدرج الحلقات، وكان يستعرض وشمًا غطى كامل ذراعه، كنت أبتسم لا لشيء وإنما لنظرة ماكرة احتوتها عيناه؛ إذ كان الوشم لامرأة عارية، رمقني «عبد الرحمن» مستاءً وقال:

– ممكن أفهم إيه بيحصل؟!

– ممكن تسمعني من غير عصبية!

– من فضلك ما تتكلميش، مش عاوز اسمع حاجة، مفيش فايدة، فعلا مفيش فايدة.

غادر بعصبية زائدة.. ناديته حتى اختفى من الممر، حاولت أن أهاتفه، لم يُجِب، أرسل مساءً رسالة قصيرة محتواها: «لن تتغيري، يعجبك هذا الـ(كريم) بشعره المشعث ووشومه الحقيرة، لن تدركي أبدًا قيمة وجودي بحياتك.. أنتِ مجرد طفلة عابثة». وأغلق الهاتف.

تركته لجنونه وظنونه، لم أفتقده بزحمة انشغالي ولم يعنني كثيرًا كونه غاضبًا، أصبحت لي مساحة أتجوَّل فيها بأريحية، مرتادة مخابئ مجرتي، كان اكتشافًا مذهلًا وانعتاقًا خياليًّا، قررت أنه لو مضى أسبوع من دونه فالنتيجة مساحة من الهواء وليست من الخواء، انزعجت حين فاجأني بالمجلة قبل نهاية اليوم السادس، لم يعتذر ولم يختلق مقدمة للكلام لكنه جلس بالكرسي المقابل، صمت لدقيقة ثم التقط نفسًا عميقًا، وقال إن طلاقهما أصبح أمرًا

حتميًّا لا رجعة فيه.. وفاجأني بشيء لم أتوقعه:

- هاتجوِّز.

قبل أن أنطق سألني إن كنت مهتمة أن أعرف عنها.. بُهتُّ، لم يحضرني رد فعل فسكتُّ ودفنت رأسي بشاشة الحاسوب على مكتبي، تابع الحديث بنبرة مختنقة مشحونة بالقلق، كنت أدرك أنه يتساءل عن سر تغيري معه، رفعت رأسي، وحين نظرت إليه ألجمني تحجر عينيه، ظل مصوِّب النظر إليَّ لقرابة دقيقة من دون أن يغمض له جفن.

حدثني عن قريبة مطلقة ربما كانت خيارًا محتملًا للزواج في حال لم أقبل؛ فهو في الأحوال كلها بحاجة - ككلهم - لامرأة، لم تكن فقيرة معوزة ولكن طبيبة ناجحة اكتشفت الميول الجنسية الشاذة لزوجها فتركته.. ظن «عبد الرحمن» أنه بتلك الحكاية سيثير

غيرتي ويدفعني لاغتنام الفرصة للموافقة، كنت أعد نفسي لضحكة ساخرة، توقعت منه كل شيء عدا حكاية ساذجة كتلك، وقبل أن أواجهه بالرفض، تساءلت بنفسي:

ما الداعي لأن أقبل حياة بهذا التعنت، وقد أصبح نسخة كربونية من والدي؟ وبأي حجة؟ أهو الحب؟!

رفضت بشكل قاطع فنعتني بالغبية، شبَّهني بتمثالٍ باردٍ وأقسم إن القدر سيحيلني لركام يذروه الزمن.

اعتقدني البلهاء التي ستركض إليه خوفًا من ضياعه.. عجبت لأكاذيبه التي صدَّقها، وكأنه يعاقبني على سنواته المهدرة باختياره، فمنحني عنوة واجب ترميمها، كنت أدرك بقرارة نفسي أنه لم يكن مجرد رفض لمنحة قد تذهب ولن تعود، بقدر ما كنت أرفض ترتيق ما بعثرته الريح، أكثر ما آلمني ليس الخوف من فقدانه،

وإنما الحقيقة التي طمستها لتظل حبيسة بعالم لم أختلقه، ولم يكن أبدًا قصة محبوكة من نسج خيالي، بل كان واقعًا مُرًّا فرضه القدر، أشفقت عليه من شعور كاذب بالخديعة؛ فدفنت الحقيقة طيَّ ضلوعي وانسحبت.

غادر «عبد الرحمن»، تركني حائرة ما بين رفضي لحياة مستقرة كزوجة لرجل محبط تكبله عقدُهُ السابقة ويجدها متنفسًا طبيعيًّا يتخلص به من الأثر البغيض لإخفاقاته، وبين حياتي التي كنت أحارب لاستعادتها، وحرية حاربت من أجلها، ولست مستعدة للتخلي عنها لأي سبب كان.

ظل يهاتفني لأسبوع، بعدها رفضت إجابة هاتفه، توقف عن الاتصال واختفى، لم أحاول أن أعرف عنه ولو من بعيد، وكأنها صفحة طُويت بكل ما فيها أو حقيقة أسقطتها من الذاكرة.

بعد أسابيع أتتني مكالمة من «نيفين»، قلبت حالي ورمتني بجُبٍّ عميق من التعاسة.

– جالك قلب تعملي كدا! انتِ صاحبة انتِ! مش مكسوفة من نفسك؟!

لم تتحرك عضلة في وجهي حين تيقنت منها، ولم ألُذ بغرفتي خوفًا من عقاب، كنت أنتظر تتابع كلامها ببرود، حتى إنني اندهشت من نفسي، كانت مَن تريد أن تظل حرة كفيضان هادر، لم أسلبها ما ظنته كنزها الأثير، وحين استحالت لنمرة شرسة تقاتل بهلعٍ وتكشر عن أنيابها، كنت بالانتظار، تركت لها ذكرها والعرين.

كان صمتي يستفزها لتكثِّف هجومًا حادًا، نعتتني باللصة خرَّابة البيوت، تصَنَّعَت البكاء، غرقَت في وصلة ركيكة من الأداء

المسرحي، أعرفها حين تبكي، يخرج صوتها مختنقًا بالنشيج، أما ما فعلته الآن فلم يعدُ عن كونه عرضًا رخيصًا يبتزُّ المشاعر، نهنهاتها المزعومة أثارت شهيتي، انتظرت انتهاءها بفارغ الصبر لتحضير قرص بيض مخفوق وقطعة توست طازجة مغطاة بمربى الفراولة.. لم أفكر في غلق الهاتف، فمن حقها كإنسانة إفراغ ما بجعبتها من غضب.

سألتها:

- خلصتي كلام؟

فتابعت بسخرية:

- انتِ فاكرة اللي عمله معاكي ما عملوش مع غيرك؟! ده مريض بالكذب، بيكذب ويصدق نفسه، أنا فعلًا ما خسرتش حاجة، بس انتِ كمان ما كسبتيش حاجة؛ انت مجرد رقم تافه في ذاكرة

تليفونه.

حين نطقت جملتها الأخيرة بدا الكلام مناسبًا ومنطقيًّا، باستثناء أنني لم أجدها زوجة مجروحة يقتلها أن تفقد زوجها بنزوة جديدة، فلم يكن يعنيها كونه مخادعًا، لم أجد بي رغبة لمزيد من السخف، فأغلقت الهاتف وأرسلت نظرة للمكتبة بواجهة الجدار، سأعيد ترتيبها من جديد؛ التراجم بالأعلى والشعر والرواية بالتبادل حتى تنتهي الرفوف، سأبرر لنفسي حاجتي لتغيير فوري لمحتوى المكتبة، لكن بالنسبة للبشر لن أبرر أي شيء، توقفت عن فعل ذلك منذ زمن، واكتشفت أن الاستغناء يغنيك عن التبرير، اتجهت لغرفتي لأكتشف أنه قد ضاع من ذاكرتي نَصُّ الكلمات التي سبَّتني بها، رفضت استعادته بيني وبين نفسي، كل ما تبقى هو محض انطباع رخيص، وكأنني كنت أسلم عمري للوهم فيمنحني

السراب، مؤكَّد أوجعني كوني مجرد رقم بذاكرة جوال.

***

لا أدري كم مرَّ من الوقت.. تسلل صوتها وكنت أتفحص بريدي الإلكتروني.

- بقالي ساعة بتكلم!

- ......

كانت قد دفنت عينيها بالكحل.. هكذا تحب شكلهما، سوداوين كحيلتين، سألتني عن مظهرها الجديد، خسرت بعض كيلوجرامات، خضعت لحمية ساعدها فيها إجهادها المستمر مع أمها، تكلمت عن «شادي»، نفت أن يكون لفقدان وزنها علاقة به، فعلت ذلك فقط لأنها رغبت بقياس خصر أقل، قالت إن صديقاتنا بالنادي يبلغنني السلام، اندهشت فلم يجمعني بهن مكان منذ عام تقريبًا،

كنَّ قليلات عدد مرات ذهابي، ومع ذلك لا أتذكر أسماءهن؛ لذلك حين أصادف إحداهن أناديها بـ«حبيبتي». نسياني لهن لا يعني بالضرورة نسياني لمآسيهن، علاقاتهن الحميمة، أفئدتهن الكسيرة، مشكلات أطفالهن وأسماء كلابهن وقططهن.

تمكَّن مني السأم.. فتحت حاسوبي لتفقُّد موضوع العدد.. فاجأتها:

- «غيداء».. جربتي تطيري بإحساس طيارة ورق؟! ده اللي بيحصل لما بكتب، بدخل عالم وردي من مزيكا بألوان الطيف، وكل الحاجات المستحيلة اللي مش ممكن حد غيري يشوفها ويحسها.

9

في رحلة العمر لحظات لا تتكرر، وأشخاص ربما لن نقابل مثلهم؛ لأنهم مثل كل شيء فريد لا يشبههم أحد، وهي واحدة منهم..اسمها «مريم»، رائق سمارها، تشبه أباها «سعيد»، وهو حارس عقارنا الأرمل، لهما طابع الحسن ذاته، تفتح ذراعيها على اتساعهما وتلقي نفسها بصدره فيتلقاها بحنان جارف، ويقبِّلها بين عينيها، ويجلسان ليقتسما رغيفًا وقطعة جبن وثمرتي زيتون، يتكرر المشهد يوميًّا مع اختلاف مكون الوجبة، ويسلمني لصقيع لم يدفعه عني دثاري الشتوي بصيف أغسطس الحار، كانت رعدة داخلية، أتكوَّم بعدها بوضع جنيني، ويظل صوت ضحكتها يروح ويجيء بداخلي لأيام وأيام، كبرت «مريم» وما زالت تحتفظ بلمعة عينين وكفين رقيقتي الأنامل، عندما تريق الماء على الدرج الرخامي يسارع هو لتجفيفه ويتركها لتنهي فروضها، لمحته مرة يطعمها

بفيها، ومرة يدثرها بحنو وكانت مضطجعة على الأريكة الحديدية في عز الشتاء، ومرات يربت على رأسها ويضم شعرها في ضفيرة طويلة، يسكنان غرفة أسفل السلم، لا تقربها الشمس؛ لذا يسعل كثيرًا، كثيرًا جدًّا، ويرقد بغيبوبة لأيام، سألني مرة عن ثوب بحالٍ جيدة يلائم قياسها لتحضر عُرسًا بالبلدة؛ فاشتريت واحدًا لها من محلٍّ راقٍ بالدقي من دون تخفيض، حارس العقار هذا لم يمت من التهاب رئوي، كذا لم تقتله السجائر، لكنه مات حين عادت فزعة وبقعة دم صغيرة تلطخ فستانها الأثير، كنت أرقبها يوميًّا من خلف النافذة، تجلس على المقعدِ الخشبي بواجهة البوابة، وتطوقُ عنقَها كوفية زرقاء كانت لأبيها. عندما تراكم الغبارُ بمدخلِ السلمِ وأصبح مواءُ القططِ عادة لا يقطعها غير نقر جارتنا العجوز على الدرابزين، شمر الحاج الكبير عن ساعده وانتفضت ذكورته

وطالبها بالذهاب، ذهبت للشارع أحسبها.. لأيام كنت أكتب لها رسائل يومية أدرك أنها لن تصل.

لذا، حين دق أحدهم باب ليلتي الصيفية يسأل عن مروحة احتياطية كي لا تتعفن جثة الحاج، اعتذرت عن الطلب، تذكرت على الفور يومًا شتويًّا باردًا أرسلوا فيه البنت للخارج، كنت قد توجهت للنافذة مساءً حين اكتشفت ذلك، وقعت عيناي عليها تجالس فتى أعرج، تتوسط أريكة بمنتصف رصيف الشارع، هناك حيث حديقة تضاءلت خضرتها واكتست برمادية مضببة، كانت تبكي بجنون، نزلت الدرجات قفزًا، كنت أفكر كم مضى عليها هناك، وعندما وصلت كانت قد اختفت.

ذهب السائل متمتما بينما يحدجني بنظرة غاضبة ولتلتهم عيناه المروحة الجانبية والأخرى بالسقف، اتجهت بعدها للمطبخ لأعد

القهوة ونذرتها لروح المرحوم.. وجلست لأكتب.

كانت ليلة كئيبة، هالني أن الجدران تخفي جثة تنتظر الدفن، فلم أنَم للصباح، استشعرت رطوبتها والكثير من الروائح المتداخلة، بعصر اليوم شغل الشارع صوان كبير ظلوا ينصبونه قرابة ساعتين، صوان ضخم بإضاءات فخمة وكشافات ساطعة، بالسلم هرج ومرج، على الرصيف تراصت مقاعد جلدية زرقاء، على الجانب طاولة يعلوها موقد وخلفها شاب أسمر يعد فناجين القهوة. صور الموت كئيبة ومتشابهة، النحيب، الأخمرة السوداء، الأزرار الماسية بفساتين العجائز تتوسد بطونهن المترهلة وتنتفض بكل نهنهة، الوجوه المنفرجة عن ابتسامات شحيحة تقاوم التجاعيد ونُذُر الموت، حين رحلت أمي ظل أثر لاذع لفص برتقال لا يفارق حلقي، وكان حائلًا بيني وبين ثماره لأعوام، وحين لحقها

أبي تقبلت الأمر بسلاسة، وظلت الصورة على الجدار هاجسًا أدفعه طيلة المساءات التالية فتخلصت منها.

فجرًا ألحَّ الهاتف، تجاهلته، بالمرة الخامسة التقطت الرقم.. كان «كريم».. بصوت غائم.. ما بين النوم واليقظة أجبته، ظهر أنه بوضع غريب بمكان ما، كان متعجلًا ولم أفهم نصف ما قاله، طالبته بالهدوء فلملم حروفه بصعوبة وقال:

– أنا في قسم شرطة البساتين.. تعالي بسرعة.

– خير؟! طمني!

– لما تيجي هتعرفي..

بصعوبة أجابني.. لم تدُر السيارة بسهولة، علا صوت المحرك وضج بالسكون، سمعت نافذة جارنا المرحوم تفتح، ولم أهتم بإلقاء نظرة، كل ما كان يشغل بالي صوته، وخُيِّل لي أن به أنينًا

مكتومًا، تذكرت رسالته على الميل منذ يومين، أثارت بعض مخاوفي، كثيرًا ما اختلف مع اليساريين وذوي اللحى وأصحاب النفوذ، كثيرًا ما تكلم عن إرهاصاته، عروض العمل الجديدة، سفره المؤجل، ومعرضه الفوتوغرافي بساحة ميلانو بصيف ماضٍ، تجنَّب الكلام عن ابنتيه، أظن لشعور بالذنب كان يلاحقه دائمًا، له ابنة غير شرعية من رفيقة يهودية، وأخرى شرعية من زوجة روسية طالبته بالطلاق بعد خيانته لها.. وكانت البنتان لا تشبهانه.

دائمًا ما كان يشكو الزحام، الضجيج، القمامة.. حتى إنه فقد القدرة على متابعة برامج «التوك شو» لتفاهتها وسخف الحوار، كان يسميها «منكهات اصطناعية لزوم الساسبنس». وعدني أنه كما شاركني عالمه الموسيقي العجيب سيعلمني كيف أصطاد

الذباب وهو طائر في الهواء.. ولم يحدث أبدًا.

***

تفقدت تحقيق الشخصية وكارنيه الصحافة، راودني شعور بالضيق لم أعرف له مصدرًا، ربما لبرهة استدعى عقلي صور وفيديوهات انتهاك المواطنين بأقسام الشرطة، لم أكن مستعدة نفسيًّا لخوض تجربة كتلك، تمتمت بسري دعاء ورددت آية، كان الصباح قد أوشك حين توقفت السيارة أمام باب القسم، وكان فرد الحراسة يتفحصني من رأسي وحتى قدمي.

أطال النظر لحذائي، اكتشفت أن فردتي الحذاء مختلفتان ولم أهتم، كان الضابط النوبتجي يجلس مسترخيًا وبفمه سيجارة يترنح دخانها، اصطف أمامه خمسة أشخاص، ولم يكن «كريم» بينهم، أدركت أنهم حصيلة كمين ليلة الأمس، من السهل أن تتوقع ما

عانوه طيلة الساعات الماضية بمجرد النظر إليهم، كان أقلهم بشاعة تحيط عينه اليمنى كدمة زرقاء أخفتها تمامًا، بالمقدمة شاب أسمر يجاهد لضبط اتزانه، ما فهمته أنه ابتلع لفافة بانجو قبيل ضبطه، وبالكاد يُنتزَع منه اعتراف، أدرت وجهي بحركة لا إرادية عندما هوت الكف الضخمة لأمين الشرطة على قفا الشاب فسقط وغرق في قيء رهيب، أربكني رد فعله المستسلم كما تربكني دائمًا وجوه ونعال ذوي الأحذية الضخمة، كدت أنسى مهمتي التي جئت من أجلها، وكاد قلبي يرق له، قال له الضابط: «انت هتتعلق النهارده ومش هيطلع عليك نهار». ارتفع صوت الشاب للمرة الأولى، قال متوسلًا بينما يتراجع خطوة للوراء: «لأ لأ.. بلاش يا باشا الله يخليك عندي السكر ، بلاش يا باشا واللي انت عاوزه هقوله خلاص».

طوال يومين تطاردني صورته بينما يغالب فيضان دموعه، وظل شيء بأعماقي يئن، ليس من الصعب حين تمر بإشارة تزاحمك فيها سيارة ترحيلات ألا تخترقك تعابير وجوههم ولا تمسُّك أصابعهم بقضبان النوافذ.. وقتها يصبح العالم أقل اتساعًا من ثقب إبرة، ربما غاب عني لبعض الوقت أن الصدفة وحدها قد تصنع مجرمًا، كان المكان رطبًا بالداخل، أسهمت الإضاءة البرتقالية الباهتة في الشعور بالكآبة، أشار لي الضابط بالجلوس، أعتقده حتى لم يكلف نفسه عناء النظر إليَّ.. وضعت الكارنيه على المكتب وعدت بظهري أتلمَّس مكان المقعد، رمقني بنصف عين غير مهتمة وقال:

– صاحبك هنا من امبارح..

وتَّرتني طريقته فبادرته بنبرة مشحونة:

– بعد إذن حضرتك، «كريم» زميلي وأنا هاضمنه.

رمقني بازدراء متجاهلًا ضيقي:

– تضمني مين؟! انتي فاكرة دخول الحمام زي خروجه؟!

– ممكن أعرف تهمته؟

أجاب بلهجة ساخرة:

– البيه كان بيتطوَّح وعامل دماغ، لأ ومش عاجبه، بيقل أدبه.

– أكيد فيه حاجة غلط.

– ما لقيناش معاه حاجة تثبت شخصيته.

استفزتني طريقته فكززت على أسناني، وقلت:

– أؤكد لك فيه حاجة غلط، وممكن بسهولة تتأكد من كلامي.

سألني باستخفاف واضح:

– مين بلغك إنه هنا؟

سكت لبرهة ثم أردف قائلًا:

– آه فهمت.

أشاح بوجهه بعيدًا ليكمل ما بدأه وعلى وجهه ما يبدو أنه تحفُّز حقيقي.. قلت بانفعال وتحدٍّ:

– لو حصل له أي حاجة هارفع مذكرة لحقوق الإنسان.

– مالك سخنه كده؟ متأكدة إنك بس زميلته؟!

أعقب عبارته الوقحة بضحكة قصيرة مستهترة، اشتعل معها رأسي غيظًا، وددت لو أجمع كل البصاق من جوفي كالقذيفة ليستقر فوق وجهه، كنت أنقر بحذائي الأرض بتوتر يثير حفيظته، زفر بحدة دخان السيجارة، وقلب شفته السفلى بامتعاض:

– وبعدين بقى؟ ورانا شغل، من إمبارح في القرف ده.

مر الوقت ثقيلًا، ساعة ونصف الساعة كنت فيها أحدق بالساعة

فوق رأسه، خُيِّل إليَّ أن العقارب ميتة، كنت أمعن النظر طويلًا لدرجة أن ظننت أني فقدت ارتباطًا بالمكان، بالموجودات، بالتفاصيل، أو ربما أن الزمن توقَّف فعلًا هنا، حككت جلدي لأصدق أن ثمَّة حياة، ألجأت ظهري للحائط فلسعتني برودته، خُيِّل إليَّ أنني لمحت صرصورًا صغيرًا يعبث، ولم أجد بي طاقة لدفعه بعيدًا أو حتى لدهسه، كانت الرؤية مشوشة والروائح غير مألوفة تمامًا كالوجوه، غاب وعيي لدقائق، أفقت على زعيقه:

– خد الواد ده من وشي، خليهم يروَّقوه، عاوز أقفل المحضر.

قالها بلهجة تقريرية عادية، كما لو أن الأمر مفروغ منه.. شعرت برعدة كادت تفقدني الوعي؛ فباغتني قائلًا:

– انتِ جاية تنامي هنا؟!

قمت متباطئة لأجلس قبالته، بطريقة عادية جدًّا طلبت لقاء

«كريم»، فاجأني رده:

– يكون في علمك، كان ممكن جدًّا أعمله محضر ما يخرش الميه أو ألففه كعب داير مكاتب المباحث لغاية ما يقع من طوله، وفي الآخر برضه هالبسه كده كده قضية تعاطي، بس أنا م الأول هارش الفولة، الواد ده بتاع مشاكل، ابعدي عنه أحسنلك.

غادر مقعده متجهًا للنافذة، قدح ولاعته، أشعل سيجارة أخرى وعاد ليقول:

– تعالى يا ابني، هات الواد الجورنالجي من الحبس، وما تمدش إيدك عليه.

***

بالسيارة، لم يبدُ ضئيلًا بتلك الصورة من قبلُ، زائغ العينين، على وجهه آثار لصفعات وبعض الدماء الجافة، كان شاحبًا جدًّا،

صوته مملوء بالبكاء، كنت أتوقع أن تنهمر دموعه، لكنه لم يذرف دمعة واحدة.

انزلق بالمقعد، أغلق عينيه، سمعت همهمة وسبابًا، كبحت رغبة بمعرفة ما حدث، بالطريق ابتعت بعض الساندويتشات وزجاجة مياه معدنية وعلبة سجائر.. شعرت بعدها بصداع، دخلت صيدلية لأشتري «أسبرين»، كان الصيدلي كئيب الخلقة أو ربما لم يرُقه مظهري، قال قبل أن أنطق: «مفيش مهدئات». سألته لِمَ ظن أنني سأطلب مهدئًا، أجاب بابتسامة غريبة، ربما أن حال شعري وتفاصيلي المجهدة ما أوحى له بأعراض جنون أو ما شابه.. لكنه غالبًا دقَّق بالحذاء، غادرته مغتاظة وعدت للسيارة.

– بالراحة وانتِ ماشية، حاسس إن ضلعي مكسور.

– دي روحك يا مولانا.

- يادي مولانا.

لم يختلف مظهره عنهم بالقسم باستثناء شعره المهوش الذي تباعدت أطرافه، وشكلت كرة من الصوف تحيط دماغه، كان صوته لا يزال حبيس حنجرته، وبقايا دم متجلط عالق بشفته السفلى وأعلى رأسه، بدأ بتحسسه ثم فركه ولم تمنعه نقاطه المنسابة على وجهه أو فوق قميصه مقطوع الأزرار، برزت ضلوعه وظهر بطنه المصمت يزعق لفرط الجوع.

- فين عربيتك؟!

زفر عميقًا وقال:

- اتسرقت باللي فيها.. الفلوس، الموبايل، ورق الشغل، الكاميرا.. بنت الكلب اللي...

قاطعته:

- هي فيها بنت كلب؟!

- ما اعرفش إزاي ركبت البوكس، بيقولوا كنت هاضرب الظابط بتاع الكمين.

- يعني إيه ما تعرفش؟ انت كنت واخد حاجة؟

- مش ده المهم..

لم أجد ما أقوله فسكتُّ قليلًا قبل أن أعاود:

- ليه ما قلتش الكلام ده هناك؟

- ما ينفعش، دي بنت واحد لو سمعتي اسمه هتقعي من طولك.

أوقفت السيارة وعقلي يموج بكثير من الأسئلة:

- يعني إيه الكلام ده؟ وبنت العفريت تسرقك ليه؟

هز رأسه في شرود، وكأنما يحاول استيعاب الموقف:

- ما اعرفش.

– فيه حاجة غريبة.

– شكلي هاهجّ من البلد دي.

– كله من الهباب اللي بتشربه.. ليه بتعمل في نفسك كده؟!

– ممكن تسكتي.. ولا أقلك نزليني هنا..

أمسك مقبض الباب بعصبية، وبالحدة نفسها أمسكت ذراعه:

– إيه اللي بتعمله ده؟!

لم أتلقَّ إجابة، انزلق بالكرسي، ظل يهزّ ساقيه ويحدق بالشارع، أظنه فكر جاهدًا أن يقنعني بالذهاب لأحد تجار الصنف ليبتاع مزاجه.

كان النهار قد ازدحم حين قررت اصطحابه لشقتي، فعلت ذلك من دون تردد، كان متسخًا وبحاجة لحمام دافئ، فارغًا من كل شيء، تمامًا كشحَّاذ، لم تكن أكثر من رغبة إنسانية ملحة تلائم

الموقف وجزعه الذي كان يواريه، وتناسب احتياجه لساعة نوم ووجبة جيدة، قال مستخفًّا دمه حين علم بها: «اتجوزيني، ينوبك فيَّ ثواب».

فكرت للحظات لِمَ اختصني بالمكالمة، اكتشفت كم أن الرقم سهل، حتى إنه كرره عليَّ أكثر من خمس مرات، قررت تغيير الرقم لرقم أصعب، كنت شبه متأكدة أن للضابط علاقة بالأمر وظلت جملته الأخيرة «أنا هارش الفولة» تتردد بأذني طيلة المساء، ثمَّة ارتباط بين العفريت والضابط والسرقة التي مؤكد كانت متعمدة، أشياء كثيرة تدافعت برأسي، أسئلة وأسئلة، ولم تفلح محاولات استدراجه للكلام، كنت كلما ضغطت عليه انفجر: «انتي مش عارفة حاجة».

صوَّروه يومها بأوضاع مخلة وساوموه على السكوت، كان مصورًا

نشطًا يعمل بوقت فراغه لحساب إحدى جرائد المعارضة المهتمة بكشف الفساد، قاد حملة ضخمة ضد بعض رجال الأعمال وذوي النفوذ، حتى إنه أكد مرة أنهم مدعومون من الحزب الحاكم، لم يكن كلامًا مرسلًا؛ لأنه وثَّقه بصور وأدلة، صور فاضحة ووثائق ممهورة بتواقيع، وقتها لم يكن يهمس، كان يجلجل كمناضل، وكانت الجدران تتنصت، تكلم مزهوًّا عن تهديدات تصله برسائل الجوال وعبر الإيميل، ولم يُلقِ بالًا لها، لُمْنَاهُ ولمَّا لم يحدث شيء اعتقدنا الأمر مزحة سخيفة، لكنني اكتشفت أن ببلادنا كل شيء مباح ومتاح، ببلادنا لا سؤال يأتي بإجابة، ببلادنا لا إجابات من الأصل.

***

حادثة «كريم» كانت محفزًا للكتابة عن «وجع مريم» بمقال له

العنوان ذاته؛ فالسبب الذي دفع زميلي للهروب إلى روسيا هو نفسه الذي أودى بحياة «سعيد»، حارس عقارنا، وهو السبب نفسه الذي ألقى بـ«مريم» إلى الشارع، إنه القهر، لم يبَلِّغ «سعيد» عن انتهاك ابنته، كان فقط يطيل النظر إليها ويضع رأسه بين كفيه، ويتكوَّم إلى جانب الجدار ويبكي، اختفى مشهد الإفطار اليومي، اختفى صوتها وظل حزنه لا يبرح، هذا الحزن الذي دفعني للنزول إليه، جلسنا على حافة المرتبة المتآكلة، كان هامدًا تمامًا، صامتًا، حاولت قراءة ملامحه، لم يكن غير مكلوم، حاولت إقناعه باتخاذ موقف حاسم وعمل بلاغ على الرغم من كتمان الأمر لمدة تزيد على الشهر، لكنه رفض، يمكن تفهم حال أب بسيط فقدت طفلته شرفها.

لم أميِّز أغلب ما قاله، فكلامه خرج من قلب النهنهات، كانت

حروفه مبعثرة؛ لكن ما وصل لأذنيّ كان مفجعًا؛ فصهر فلان ابن الوزير الفلاني مَن فعلها بظهيرة يوم غابت فيه الشمس، يحدث هذا غالبًا في غياب المخدومات، لكنهن مع ذلك يملكن القدرة على الذهاب لضحايا نزوات أزواجهن أو حتى صبيانهن، وبقدر معقول من البلادة يمددن يدًا بالسلام ويدسسن بالأخرى أوراقًا مالية كعربون سكوت. هؤلاء غالبًا يدفعن الضحايا للموت الصامت وببطء شديد، تسللت يد «سعيد» لتسحب رزمة نقود من تحت الوسادة، كان يتفصد ألمًا، قال ببؤس لم أعهده:

– قبلت تمنها، بس مش عاوزه، خديه، احرقيه، هاتِلها فساتين كتير.

وبالليلة نفسها مات «سعيد».

أما كريم فقد وصلتني رسالة منه بعد سفره، ولا أعرف لماذا

ضمنها تفاصيل ليلة السجن بكل أوجاعها، ربما كنت بحاجة لأن أعرف وقتها لأن ما خفي دوما أعظم. أما الآن فلم يعد الأمر عن كونه تقليبا للمواجع. قال إنهم جردوهم من ملابسهم عدا البستهم الداخلية التي كانوا يجذبونهم منها طوال الوقت، وكان أحد الأمناء يقوم بتصويرهم ويضحك، ضربوهم بالعصي والأحزمة بكل مكان، حتى بمناطقهم الحساسة وتم تصوير هذا كله أيضًا، نادوهم بأسماء نساء وغالبا كانت لفتيات يمارسن الدعارة، استمر الضرب فترة طويلة لكنهم لم يعرفوا مصدره؛ لأنهم ارتموا على الأرض وانكفأوا ليحموا وجوههم، بعد ساعة من التعذيب غير المبرر أحضر أحد الأمناء بطانية بها أشياء المشتبه بهم من ملابس وساعات وأحذية وغيرها، وقام بفرزها واحتفظ لنفسه ببعض الأشياء الثمينة وسلمهم الباقي. عندما رفض أحدهم تسليم ساعته

أُقتيد للخارج، وعندما عاد كان الدم ينزف من شرجه، كانت ليلة طويلة مرهقة أمرهم الضابط بنهايتها بأن ينبحوا مثل الكلاب.

لم تواتني الجرأة لسؤال كريم عمَّا إذا كان قد فعل. قرأت مرة أن الكائنات تفر لحتفها، لم أفهم ما تعنيه الجملة، فكيف نفرُّ لحتفنا؟! الخوف من الموت ذاته هو الدافع الوحيد لنتمسك باللاموت، حتى مرضى السرطان والذين يعانون الربو نبث فيهم الأمل لتزداد مناعتهم فيبطؤ ركضهم إليه، لكننا مثلًا بلحظة حمق يمكن أن نتفادى بئرًا أو حتى بالوعة لتصدمنا سيارة. فعلاقات الحب الباهتة نقدم عليها اختيارًا لنهرب من أخرى تركت ندوبًا معقدة، ثمَّة جهل عام بماهية الحياة يحيط بالكائنات.

صديقتنا الواثقة كانت تحدثنا يوميًّا عن قلبها الذي كتبت على بوابته «مغلق للصيانة»، كانت أسرعهن ركضًا لعلاقة اجتذبتها

بنظرة جائعة لنصفها السفلي، فرت من جبروت قلبها لترضي نزوات جسدها، وكلاهما ذبح جميل.

بتلك الليلة أجهز «كريم» على رفيقة وحدتي؛ إذ إنه بنومه على الأريكة لم تتوقف عن مشاكسته، مرة تداعب أنفه وأخرى تئز بأذنيه، بالنهاية حين توقفت بين عينيه أفاق وقبل أن تطير لمسافة خمسين سنتيمترًا أطبق كفه عليها بحركة خاطفة، فركها وقال:

– واربي الشباك قبل المغرب عشان الدبان يخرج.

غادر قبل العاشرة لأكتشف أن اليوم بكل أحداثه وغيومه وحرارة شمسه وتفاصيله كان فارغًا، تفحصت الجوال ولم أجد الرسالة التي أنتظرها.. لكنني ما زلت امرأة قوية.. لم تعد تخيفني نظرات الناس، كلامهم، أو حتى حساباتهم المعقدة، يتغزلون بصوتي، وكأنني أتعمد عرض أنوثتي، يأخذهم دمعي المنهمر، فيصبح

البكاء حينها دعارة تجلب الأفاكين، تسحرهم سنوات عمري وما زلت طفلة تثير زوبعات من الحزن والفرح اللانهائي، خشيت من ضحكة قد تفلت، وكأنه لا بد أن أحسب ضحكاتي بميزان العالم.

لم أكن سوى امرأة تمطر حزنًا حين يملؤها الغضب، تحب الفاكهة والماء البارد، تحب التمدد على ظهرها والتحديق في اللاشيء، تكره الثرثارين، تؤمن أن التدوين طقسُ تطهُّر، تعشق رائحة العطارة إكرامًا لجدها، تحب المشي في الشوارع القديمة، تأسرها ملامح الأطفال وشغفهم بالغرباء، لا تحب إضاءة الفلورسينت، ولا تعنيها كثيرًا إن كانت مركبة من غاز خامل أو أنها موفرة للطاقة، تفضل قضاء الباقي من حياتها بمنفى اختياري بساحل ما، يهينها قطف الزهور على الرغم من أنها تذوب بعطرها، تقتفي أثر الماضي بكثير من صور عصر ما قبل الألوان، تحب إنسانيات

«ديكنز» وعالم «جارسيا الصخري»، تعشق فيلم «مدافع نافارون»، تايورات الخمسينات، شَفَتي «صوفيا لورين» ولكنتها المُغرية، تأسرها طفولة سعاد حسني ونعومة سيدة القصر، تربكها استدارات «مارلين مونرو»، وخشونة «إيرين باباس»، جل ما ينقصها حديث وسادة ناعم، رفيق روح يتقن الاستماع كما يجيد الحكي، وعمل ممتع يستهلك الطاقة، لم تظفر إلا بالكوابيس، فكلهم موجوع بذاته بلا أي أحاديث لوسائد تخصها – حتى هو – وظلت الصور والملامح وتعابير الوجوه شغلها الشاغل.

10

حين غنى القيصر رائعة نزار «كل عام وأنتِ حبيبتي» كانت مفتتحًا مدهشًا للعام الجديد، وأنا قررت أن يكون مفتتحي تلك الزاوية الكونية؛ حيث التقت أعيننا صدفة لأول مرة.. وبالإصرار نفسه على رفض شجرة العام الجديد لتكون حبيبته الشجرة التي يعلق عليها أمنياته ودعواته وقناديل دموعه، رفضت مثله كل العبارات الكلاسيكية التي يرددها الرجال على مسامع النساء، على الرغم من أن صدفتنا الأولى لم تشعل وجناتها غير نظراتنا المتبادلة.

أذكر أننا بطريق عودتنا من «كافيه أناضول» بآخر مرة لنا كانت أشجار الأكاسيا على الجانب مكدسة بالعصافير، تداخلت الفروع مع زقزقاتها وعلت جوقة صخب لذيذة، اعتقدت أننا ننفذ لفجوة زمنية حين تسلل وهج القرص البرتقالي بطريقهِ للذهاب حاسرًا

وجهه، وكان يضيء وجهينا بانحرافٍ قليلٍ لليمين، حتى إن انعكاس ما تبقى من أشعته منح الأسفلت لونًا ذهبيًّا ناعمًا.

يومها وبشيء من ألفة، تداخلت موسيقى حنين لـ«عمر خيرت» وحمرة الشفق خارج النافذة، كدت أبكي، أذكر اللحن جيدًا، وكانت تغلفه فلسفات كثيرة، اتسعت عيناي دهشة، وكأني رغبت بأن تتشكل النوتة فِراشًا غير معتاد لنتكئ عليه محدقين بالغيم، لنجترَّ شيئًا ما، لنحبو خلف حلم ما، وعندما اكتشفت خلو جعبة الأمنيات بآخر جملة موسيقية، واجهته وأنا لا أعي من المشهد غير ارتباكي، ما الذي تركه لي لحنٌ كهذا غير كفي بين يدي «خالد»، وخوف يعتمل من دمعة قد تسقط حين يتصادف مرور بعضهم؟

كان البيانو بالبهو سر تعلق «غيداء» بـ«أناضول»، وسر تحملها المسافة الطويلة التي نقطعها لمدينة السادس من أكتوبر حتى

نصل، لكنها لم تعرف أبدًا عن سري، ما إن تقع عيناها عليه حتى تنهض كمنومة، وبفضول تتحسسه، تجلس أمامه كمسحورة. وقتها وبشكل أوتوماتيكي تضيء تحته بقعة من الضوء، تضغط إحدى الأصابع فتصدر نغمة وتضيء بقعة أخرى، وتضغط أخرى فتضيء أخرى ثم أخرى.. وهكذا، لم يكن عزفها متسقًا في المجمل؛ لكن دائرة الضوء المكتملة تحت ساقيها كانت سبب سعادة لنا.. تغفر صدفتنا أيضًا كل ما يسبقها من مقدمات مضنية، بدءًا من المسافة المرهقة مرورًا بعزفها النشاز وحتى انهمار الذكريات، ثمَّة سحر يجذبنا، كنت قد بدأت التدوين عنه، وبيقيني أدرك أن محاولات اختراق الرتابة تفلح في البدء بجملة غير مألوفة، ومع ذلك عانيت مخاضًا عسرًا، وعذَّبني احتياجي لكلمات لم تُكتب بعدُ.

اتصلت «غيداء» عصرًا لتذكِّرني بحفل توقيع الصحفي مراد يوسف، طلبتني مرتين لتؤكد الأمر، بالنهاية ذهبنا، كانت القاعة مغلقة من الداخل لحجزها بالكامل، ولانشغال كاميرات إحدى القنوات بتغطية الحفل، حاولوا منعنا من الدخول، صرخت بأمن الباب، لم نقُد مسافة كبيرة كتلك ليمنعنا أحدهم بحجة اكتظاظ المكان، لم يهتم. ولمَّا لم أجد استجابة كنت مضطرة لإبراز تحقيق الشخصية، تقدم أحد المسئولين عن القاعة ليستطلع الأمر وحين تفقد هويتي سمح لنا بالدخول. ممتقع وجه «غيداء» وكنت أكثر منها ضيقًا مما حدث.

كنت أتوقَّع أن أجد المكان مزدحمًا جدًّا، لكن بهذا الشكل بدا زحامًا يفوق تصوري، اتخذنا مقعدين جانبيين تركهما شابان كنوع من التهذب بأقصى يمين المنصة، وكانا يقابلان نافذة زجاجية

عريضة تابعت عبرها المصابيح بالخارج تضاء تباعًا، لم يسمح لي زحام الحفل إلا بمتابعة غير دقيقة لكل المجريات. شغلني المتأنق الذي يجلس بجواري، نادوه باسم .«خالد الحديدي»، توجه للمنصة، تقابلت أعيننا بينما يعبر ولم يعتذر عن دهسه قدمي أثناء مروره، آليت على نفسي ألا أبدو مرتبكة أو غير واثقة، على الرغم من تألمي، شممت في تجاهله رائحة غرور، توسط المنصة بين الكاتب الصحفي ومدير دار النشر الصادر عنها الكتاب.

هل تعرف أني ما زلت أسأل نفسي – بغض النظر عن المعروف الذي أسديته لي بدهسك قدمي – ما الذي كان ليحدث لو لم تظهر تلك المغمورة لتغازلك طوال الحفل؟ كانت تلتهمه بنظرة جائعة تمارس فحشًا لا يمكن روايته لأحد.. استطعت بمنتهى اليسر أن أشم رغبة في كل حركة.. لم تنتبه بالقدر الكافي

لكرزتيها النافرتين لتخترقا قماش البلوزة، كانت امرأة تدهس عتبات الخجل بثبات، لم تبدُ مطلَّقة أو مهجورة، وإنما واحدة من هؤلاء المنتظرات على أرصفة المحطات بانتظار حضن عابث.. خفض نظره حين نظرت إليه بوقاحة، أمسك بالمايك وتوالى وميض الكاميرات، كان تلقائيًّا وبسيطًا، ما دفع البعض إليه لالتقاط صور تذكارية، حتى تلك المعتوهة، كانت تتموضع بحيث تُظهر نصف ساقين ممتلئتين عبر تنورة قصيرة ملتصقة، وقطعة علوية شفافة تبرز نهديها العارمين، كنت أتفحصها وأدرس ردود فعله، كان هادئًا ولم يُعِرها انتباهًا، لكن اتسعت شفتاه عن ابتسامة خلابة، حينما التقت أعيننا من جديد.

حصلت على نسخة موقعة من الكاتب، ووعدته بتغطية للحفل بصفحتنا الثقافية، عدت لمقعدي، كانت القاعة أقل ازدحامًا، حينها

واتتني الفرصة لتأمل تفاصيله، وجهه الجذاب، أنفه المستقيم، شفتيه الغليظتين، كان وسيمًا كموديل إعلانات، يتحرك بثقة ببنطالٍ من الجينز، وقميص من الكتان بتجعيدة لطيفة، شغلت «الروليكس» حيزًا كبيرًا بمعصمه، لم ألمح ببنصره خاتم زواج، تعجبت حين وجدتني مرتاحة لتلك الفكرة ومندهشة بالوقت ذاته.. ظلت المغمورة تجاهد كنحلة لا تستوعب نفاد الرحيق.. ميَّزت أنها سألته عن رقم الهاتف؛ لأنها سجلت رقمًا ما بذاكرة جوالها، بادلها تحية سريعة وعاد يتفقد حاسوبه، ربما بعدها تواجهت أعيننا مرة أو مرتين، لكنه كان فيهما يطيل النظر إليَّ.

كنت أتابع مرورًا بسيطًا للسيارات، وأستدعي انعكاس صورته على الزجاج بينما يرتشف القهوة، أصبح لي بعدها ذاكرة منكَّهة برائحة القهوة التركية، لكن كيف شغل تفكيري لهذا الحد؟ كيف يمكن أن

يطلق كل تلك السعادة والاشتعال العاطفي؟ ربما كانت «lady» لـ«كيني روجرز» سببًا أساسيًّا.. كان اللحن ينساب بحاسوبه من دون توقف، وكانت تلمع برأسه بعض الشعيرات البيضاء.

اقتحم أحدهم لحظتي، كان أحد العابثين، مضت ثوانٍ قبل أن يهمس بالقرب من أذني:

– فينك من زمان؟

– نعم، انت تعرفني!

– نتعرف.

تعصبت «غيداء» وقالت بضيق :

– إيه قلة الأدب دي؟!

– صوتك يا غيدا الناس بتبص.

كانت الضجة قد لفتت نظر الحضور، سمعت همسهم يتردد،

تسلل الشاب الوقح للخارج وانفلت كخيط دخان، أفسد وقتًا كنت أحاول فيه إطالة عمر لحظتنا بارتشاف الموكا بمزاج هادئ وفشلت، انتبه «خالد» للصوت وظل يحدق بي، شعرت بحرجٍ بالغٍ أخذت على أثره حاجياتي واندفعت نحو الباب وأنا العن سوء الحظ، بردت الموكا ولم تمسها شفتاي، تسلل فقط خيطٌ رفيعٌ لرائحتها الأسطورية مداعبًا أنفي، أما هو فاتجه للمنضدة التي شغلنا فراغها مؤقتًا – هذا كان اعترافه – جلس بمقعدي متخذًا الزاوية نفسها ليتابع الهوندا منطلقة بنا بسلاسة.

***

كانت تلك مرتنا الأولى، استدعيتها بخيالي، ارتشفتها على مهلٍ كمن ترتشف نبيذًا معتقًا قطرةً قطرة، تسرب لأنفي عبق العطر الذي وضعته يومها، كان «دوت إنفو» لشانيل، وكلفني نصف

راتبي، بالزجاجة لم يتبقَّ غير بعض قطرات تداعت على أثرها صورة بعيدة لكرسي مرتفعٍ بكافيه، وأثر لعطر رجولي فاخر يكتنف الأرجاء، كإيقاع رقصة تانجو على وشك البدء.

أقلتني للبيت، بالطريق كنا نخطط لعشاء وثرثرة حتى الصباح.. تمددت على الأريكة، دخلت لأبدل ملابسي واتجهت للمطبخ أفكر في العشاء.

جاء صوتها غائمًا:

– أخدتي بالك من ضيف الحفلة؟

– ماله؟

– ما رفعش عينه من عليكي.

ابتسمت بسري.. لم أكن لأطلعها أبدا على ما يجول بخاطري، التهمت ضحكتي وعدت لخفق البيض، أضفت له القليل من

الزيتون وبعض الجبن، لامست فقاعاته حافة الطبق.. أحببت أزيزه حين لامس النار.

- بكرة الخميس؟

خرجت لأستطلع الأمر.. كانت تدقق بالروزنامة على الحائط وتتمطى مجهدة:

- لازم أنزل دلوقتي.

- دايما تفاجئيني كدا!

اعتذرت عن اضطرارها للذهاب لتصحب أمها باكرًا لإجراء بعض الفحوص الهامة، ثم لأخذها لقضاء أسبوع ببيت أختها في محاولة للتخفيف عنها.. كانت أمها قد زادت علتها، قبل نكستها الأخيرة كانت تصحبها للمشفى يوميًّا.. توجهتُ مرة لزيارتها، وجدت الكثير من أقاربها هناك، كانت الوجوه واجمة والزيارة شبه ممنوعة، لكن

الناس لم تبرح أماكنها، كانت ليلة حزينة مؤرقة، متخمة بالصور، عدت يومها أغالب ضيقي، بدت الأشياء أمامي واهية.. اختفى ذاك الخيط الدقيق بين القلق والاطمئنان؛ فعادت التفاصيل الباردة والكوابيس المملة، فأراني ممددة شبه عارية على سرير حديدي بملاءة مجعدة، بينما المحاليل تخترق وريدي، وشخوص الغرفة المموهة يرمقونني ببرود، استشعرت لوهلة قرب النهاية، لم يعد ممكنا أن أقول إطمئني.. فالأشياء في طريقها للعدم، لم يعد متاحًا مساء من دون اغماءات، أو غفوة من دون قيء، أو ساعات هانئة من دون أنين، لن يخلو مبردها من مكعبات الثلج فالأمور قد تتطور، والحرارة ربما لن تنخفض بالقدر الكافي، ستظل ترقب كيس البول وتأمل أن يمتلئ فكونه فارغًا يعني أن أجهزة الجسم تفقد وظائفها، لن يمر وقت من دون علامة، ومع كل علامة

انهيار، ومع كل انهيار خوف، لن تمر دقيقة واحدة من دون خوف. حاولت للحظة دفع قلقي الذي كان باديًا، وأجبرت ملامحي أن تبدو عادية وقلت:

- خليكي جنبها، وطمنيني لما توصلي.

انتعلت حذاءها، وفي عجلة اتجهت للردهة.

تابعتها تهرول باتجاه الباب، أغلقته خلفها.. عدت للمطبخ، كان البيض قد أوشك أن يحترق، أكلت قطعة لم أستسِغ مذاقها فبصقتها، وألقيت ما تبقى لقطط المسقط.

«لكن، ما زال لم يأتِ الرنين».

11

قضيت الليل بأكمله أحاول ارتداء زوج من العدسات اللاصقة الزرقاء، لم تثبت إلا بعد عشر محاولات فاشلة، وحين انتهيت كنت في حالة من التوتر لا تُحتمل، لم تكد تمر خمس دقائق إلا واحتقنت عيناي وانتشر الاحمرار، نزعتهما مرغمة.. وددت لو أبصر العالم بعينيها. الحورية الخزفية على سطح المكتب لها عينان زرقاوان.. ولها البراح باتساعه حين تطلق فراشاتها مشتعلة بالضوء، تعانق السماء، تفر لزرقة مموهة، لا تعبأ بعدد رفات الأجنحة ولا بانعكاس الضوء على أعينها المركبة، لكنها تدرك أن للألوان دهشة هي متعة التحليق، حين يمتص الأزرق سخونة الأحمر، ويمحو الأخضر رتابة الأصفر، ويمتزج الأبيض بالأسود فيتوحدان، ويرسلانها للحلم البعيد.

عالمها يتسلل خلسة لحدائق روحي، هدوء عميق يكتنف الأرجاء، عطر خفيف برائحة أبصال الجلاديولس وأزهار الأوركيد، تسللت خطوات قصيرة لأنزرع بهدوء على المقعد البني بمواجهة المكتب، ألجأت ظهري إليه، فتشت أناملي عن دفترٍ بنفسجي قديم، لاحظت خيالي الممتد على الجدار بينما أقلب الصفحات، قرأت السطور:

«تخبر نفسها كل مرة تذهب فيها إليه أنها ستعود لترتب فوضاها، لتلملم شتاتها، ولتعشق تلك الأنثى بداخلها حين تنظر في المرآة».

كنت أدرك أن الكاتب يهب لأبطاله قبسًا من روحه، تنصت للإيقاع الساكن بدفء الحروف، وجدتني فيه، تمددت فوق الأريكة، سكنت البؤرة المنعكسة للضوء، للحظات تطايرت الجمل إلى الفراغ الناصع بالسقف، استحالت فراشات، حاولت دون جدوى

لمسها، جابت الأنحاء بخفة، لمحت كونًا من ألوان وأفقًا شاسعًا من شفق.. غفوت، عاودني الحلم ذاته.

***

«أرجوكِ لا تمزقيه، ما هو إلا دفتر تدوينات عادي، أقسم لكِ أمي إنها مجرد تدوينات بريئة أكتبها بوقت فراغي، لا داعي لأن يعرف أبي، لا شيء فيه يُقلق، أرجوكِ أمي!».

كابوس متكرر يلازم المساءات المتكررة، ربما اكتشفته أمي بحشوة الفراش، لكنها لم تواجهني، لها أيام تتجنب الحديث معي، تمر بيننا ساعات صمت طويلة تسلمني لنوم أتقلب فيه على وخز، أوشك أن أغرق في دهاليز عقلي.

ثمة شيء يحدث، أحسه ولا يمكن أن ألمسه، ظل الوجوم رفيقها لأيام، روحها تنسحب رويدًا، لم تغيِّر عباءتها لأسبوع كامل،

أحاطت عينيها ظلالٌ سوداء كغيوم أمشير، كان الصمت بيننا يكبر، تقطعه أحيانًا بعض الجمل المبتورة، لم تجمعنا مائدة طعام لأكثر من يومين، لم يهتم أبي، ولم يسأل عن الأسباب، كانت تضع الطعام يوميًّا على المنضدة فيأكل وحيدًا، كان «مجدي» يدخل متسللًا على أطراف أصابعه إلى حجرته فلا يعيره أبي اهتمامًا ولا يدعوه للمشاركة.. وحين أعبر من أمامه يغير زاوية النظر – تلقائيًّا – باتجاه آخر، دفعت الباب ذات صباح ودخلت على «مجدي»، كان محدقًا لفراغ الشارع:

– تعالى افطر.. ما كلتش من يومين.

– مليش نفس.

– مين له نفس ؟! بس لازم تاكل.

تبعني ساهمًا، ظل شاردًا بينما يتناول الإفطار، سألته أمي إن كان

سيذهب للجامعة فلم يرد.. شعرت كما لو أن نارًا اشتعلت بداخله ولن تطفئها كل محيطات العالم.. لم يكن متعجلًا ولم يمس كوب الشاي، قام بطيئًا باتجاه الخارج.. صفق الباب، وصلتنا هرولاته على السلم، قامت أمي بعد أن حدَّجتني بنظرة غامضة.

شبحٌ غريبٌ يجسم مستنسخًا بكل الأركان، يرابض كريهًا بنصف عين تقدح الشرر، ظننت أنني الملومة ولكن لم تواتِني الجرأة للسؤال، تراها ضبطت الدفتر البنفسجي؟! لو أنه الدفتر، فلماذا لم تمزقه فعلًا؟ وإن كان غيره فلِمَ لا تواجهني وتحسم الأمر؟ كنت أربط بين تغيرها وقطبة جبينها اليومية، وأتخيل رد فعلها لو عرفت عن علاقتي بـ «علي». لم أجد لها رد فعل يناسب جحيم الصورة.. في الأحوال كلها أظنها كانت لتموت.

مرت أولى ليالينا كرقصة بغيمة تبعتها عاصفة تسونامية اقتلعت

هدأتي، حين استحال الحلم البعيد لتراشقٍ متعمدٍ ومراودة بحجم قرص شمس حار، كانت الخيوط لتنفلت واحدًا تلو الآخر، لم تنتهِ لطرف يدي، كنت يا «علي» صاحب الدمية، وحدك تقدر على قولبتها، أسرع إليك ولم يعد يخجلني أنني امرأة تشتاق رجلها، ما زلت لا يخجلني سري، وما زلت لم أطلب الغفران.

***

بالمساء، دخل «مجدي» غرفتي من دون استئذان.. مد رقبته يتشمم وجود أمي.. حاولت جاهدة إخفاء ضيقي، بحركة سريعة قذفته بوسادة، تفاداها مبتسمًا، تقدم نحوي وجلس قبالتي مستندًا للفراش.

بادلني حديثًا وديًا:

– انتِ أجمل حاجة في البيت ده، تمام زي ياسمينة في صحرا.

طمأنتني مقدمته اللطيفة، لكني أيقنت أن بالأمر شيئًا ما.

- إيه اللي حصل؟ أمك بتكلم نفسها طول الوقت، بسمعها وأكذب نفسي، عاوز أسألها وخايف، وأبوكي ولا كأنه عايش معانا.

كان كمن يحاول استنتاج سبب تغيرها، أربكني حديثه فابتسمت ابتسامة باهتة:

- أنا زيك مش فاهمة.

- فيه موضوع عاوز أكلمك فيه.

- سمعاك.. اتكلم.

- آسف إني اقتحمت كهفك بالشكل ده.

- كهفي؟!

- بضحك معاكي، ما لك؟!

تساءلت عن قصده من تلك الكلمة بهذا الوقت تحديدًا، أتراه عرف

بأمر الدفتر فجاء ليسأل عن محتواه، أم جاء ليطالبني بتفسيرٍ لحالهما؟! لو سألني فالأمر بسيط، سأجيب بمنتهى اليسر، لم يكن مضطرًّا يومًا لأن يمارس رجولة هزيلة، لم أتصوره يضربني أو يطالبني بحرق تدويناتي، لم يكن دفتر اعترافاتٍ على أي حالٍ..

قطع صوته أفكاري:

– نفسي تفهمي إن كلامي معاكي يهمني أكتر مما تتخيلي.

كانت حروفه مبهمة ولم تفصح عن شيء.

– عاوز تقول إيه؟

بنبرة شبه هادئة:

– حاسس بتوتر غريب، افتحي الشباك.

– قلقتني.. مالك يا «مجدي»؟!

– الموضوع يخصني. بس استني، جايبلك حاجة معايا.

تحسس جيبه وأخرج لوحًا كبيرًا من الشوكولاتة بغلاف مذهب أنيق يضج بعطر نسائي أخَّاذ، بعدها عرفت أنها لم تكن منحته وإنما هدية من صديقة بالجامعة، انتابني الفضول ليس بشأنها، وإنما لأنه بغرفتي على غير العادة، ولرغبة بالكلام لم تبدأ معي، اعتاد تأمل جدرانه بكهف آخر يجاور كهفي يسجل به نقوشًا موحدة، رسومًا بدائية لكائن يتواصل بلغة أقرب للإشارة أو النقر كما بشفرة «مورس»، كان كهفه الصغير لا يتسع لسواه؛ لذلك كان لزامًا عليه كل يوم أن يصارع حزنه وشهواته وكل عواطفه، ثم يختبئ بداخله حتى الصباح، فيجدهم في انتظاره، كثيرًا ما تساءلت عن صوته، وهل هو ملائم لتشريح جسده! لطوله وعرضه مثلًا، لملامح وجهه، لانفعالاته، اتضح أنه لا فرق؛ لأن الصوت أداة اتصال، وهو لم يقرر مدى حاجته لهذا النوع من التواصل، نحن

عمومًا نُخضع أصواتنا لأمزجتنا، ومع ذلك كان غارقًا حتى أذنيه بعالم مُبْتَسَر من سياسة ظن أنه أدمنها كعادة سرية تفرغ طاقة لا يمكن كتمانها، ربما لا يدرك أنني أشم بغرفتي رائحة السجائر المنبعثة من نافذة حجرته متزامنا مع حرق الجريدة الماركسية للحزب الوحدوي، لم تكن أعواد البخور لتفلح في هدرجة مياه التيار المتنامي لذاته المتأرجحة، ولم تكن لتخفي سره.

لم يرث من أبينا ضخامة الجسد، وإنما فاقه طولًا، تبع ذلك انحناءة بسيطة وملحوظة بالظهر، أعتقدها تسللت من خجله؛ كونه فاقه في الطول، على الرغم من أن للفروع ارتحالات غير ممنطقة بقوانين الجذب، «مجدي» المنطلق مع رفاقه هو ذاته المتشرنق طي الجدران، حتى الشاي الذي أحيانًا ما يتلهف احتساءه غالبًا لا تواتيه الجرأة ليفعل بوجود أبينا، وكأنه مخاط

أفرزه الشيطان.

كان البيت مغارة آسنة تستدرج عمرنا للذبول..

لكزني فانتبهت.

– دي مش رشوة على فكرة، أنا كده كده كنت هتكلم معاكي..

أرسل عينيه للشوكولاتة بين يدي، كنت أقلب فيها وأحاول رسم صورة بمخيلتي لصاحبتها..

– كليها يا «جورية» قبل ما تدوب منك.

فضضت عنها غلافها الذهبي، تأملت قطع البندق المتناثرة بأرجائها، قضمت قطعة صغيرة ذوبتها حرارة فمي، وابتسمت بنشوة.

صوَّب نظره لأسناني وقد اصطبغت بلون بني، أخفيت فمي بكفي خجلًا، فاسترسل:

– نظراتك كلها فضول، هاقلك عشان ترتاحي، أنا وصاحبة الشوكولاتة بينًا مشاعر حب، مش مجرد علاقة عادية صدقيني.. إنما شعوري تجاهها مختلف عن كده بكتير، تقدري تقولي نوع من المسئولية يمكن جديد عليَّ ومش متعود عليه، بس في النهاية إحساس صادق، وببساطة شديدة مطلوب مني أنفذ اللي وعدتها بيه.

– كمل، سمعاك.

– القدر بكل كرمه وغرابته واستعداده الكبير للمنح بيسيبلك فرص لو مخدتيهاش بنفسك بتروح عليكي، بتضيع فعلا، تبقي عبيطه لو فاهمة ده ووقفتي تتفرجي.

لم يكن عليه أن يبرر احتياجه إليها، لم يكن عليه أن يفعل فعلا، فكل ما أعرفه عن الحب لا يتوافق ومبادئه، شعور بالخزي بدأ

يطاردني.. كنت أتفرَّس ملامحه، وكأني أحاول استنباط مفهوم آخر للمشاعر غير ما دوَّنه عليَّ بأنسجتي وبين شفتي، وما تركه بخلاياي.. بدا له للحظة أنني لا أفهم، فخرجت حروفه مندفعة بينما يعقد حاجبيه:

– لو حسيتي مشاعر زي دي هتفهمي، أتمنى اكون هنا لم ده يحصل.

تبددت رغبتي بالكلام، ما الذي يمكن أن أقوله أصلًا؟ كانت الأمور تتغير سريعًا.. تابع من دون تردد:

– افهمي، أنا مش محتاج قنبلة تفجرني عشان أعلن رفضي لحياة بالشكل ده، أنا محتاجها أكتر من القنبلة لأنها فرصة حياة مش موت.. كنت أتأمله.. لم يكن أبدًا «مجدي» الذي أعرفه، كان «مجدي» آخر تمامًا.

- اعتبريه عبور آمن، لجوء عاطفي.. أي حاجة والسلام.. هنتخرج ونتجوز وينتهي كل العذاب ده.

قلت في نفسي: الطريق أطول من أن تدركه يا «مجدي»، أنت بحاجة لمعجزة، سكت قليلًا قبل أن أسأله عن اسمها فأسند رأسه للوسادة، وقال مبتسمًا:

- «أمل».. شوفي الاسم ودلالته.. زي ما يكون ربنا بعتهالي... دي حتى بتكتب لي شعر!

حدقت في وجهه بعينين لا تطرفان، اختفى الأثر اللذيذ للطعم السكري. تأملته بعينين تغلفهما الحيرة، وفاجأني بما لم أتوقعه:

- هنسافر لندن ونبدأ حياتنا هناك.

- تسافر وتسيبني؟!

قلتها بصوت مرتجف بينما أقضم أظافري في محاولة يائسة لدفع

الضيق.

- أنا ما روحتش في حياتي مكان أبعد من هنا، بس أنا عارف كويس إن المسافة من باب أوضتي للندن أقصر بكتير.

أطرقت وكل خلية بي تكاد تصرخ به ليكف عن كلامه، لكنه تابع من دون اكتراث:

- كل ما أشوف نفسي في المراية أحس روحي بتشيخ، مش عايش ومش ميت، عمري هيتسرسب مني، ومنتهى أحلامي روب تقيل يبعتر رعشة الشتا اللي مكلبشة في جلدي.

هالني ذاك الشعور بالفقد، وكأنني كنت ممتنة للحياة أنه كان هنا، والآن ألعنها لأنها منحته خيارًا للهروب، كنا بصمت نقتسم كل شيء، كرهت سيدة الشوكولاتة وما أتت به من مفاجآت، كرهت مبرره «فهو بحاجة لها، فربما تمنحه ولو كوبًا ساخنًا من الشاي،

وسيجارة، وبعض الأنفاس للحياة».. هكذا قال، لكن أكثر ما أدهشني رغبته في أن أقنع أمنا وكأنها الباب العالي لرضا السجَّان، كان سيسافر في الأحوال كلها، طالما أحبها، وطالما حدثته نفسه بالرحيل، حتمًا كان سيفعل.. قتلتني أفكاري، لم أستطِع التماسك، غرقت في نحيب مكتوم، أذهلني أنه لم يهتم.

دسَّ يده بجيب قميصه متحسسًا حافظة نقوده، وحين أمسكها احتضنَتها طويلًا عيناه، مشدوهة كنت، تعلقت عيناي بإصبعين منتهيتين لصورة صغيرة أدركت يقينًا أنها لحبيبته، التقطتُها من بين أصابعه، غالبت دموعي:

– عارف إيه الأجمل من عينيها؟ ابتسامتها..

قلتها بأسى، وحين التفتُّ إليه وجدته يحدق في الصورة بهيام.

أنهى حديثه بلطف، وأعاد الصورة لمكانها، سألني إن كنت بحاجة

لشيء، أجبته بزفرة طويلة، وقبل أن يهم بالخروج ناديته بصوت عالٍ، طالبته بإعادة التفكير، أغلق الباب خلفه دون أن يعلق بكلمة واحدة.

حاولت استعادة سنواتنا معًا، فلم أتذكر غير ياقة باهتة لقميص بني، بنطال وحذاء أسودين، وعينين غائمتين يسكنهما الحزن. حين انتهى من كلامه وجدني في صدره، كان حضنه أكثر أمنًا من جب ألقي بنفسي في ظلمته بحثًا عن خلاص معنوي، تمطَّى الحزن بضلوعي حينما قبَّل جبهتي، احتواني بصمت وذهب، تركني لليل يأكلني بنهم كألف متاهة من أسئلة.

12

- «علي».

- ها..!

- بتحبني؟

- مالك النهاردة؟ وايه معنى السؤال ده؟! انتِ مش محتاجة تسألي.

- محتاجة اعرف، ليه مستغرب؟

- أيوه بحبك.

- ليه؟

- ليه بحبك!

- أيوه، ليه بتحبني؟

- متوقعتش سؤال زي ده، ومنك انتِ بالذات، مفروض تكوني عارفة.

- لأ مش عارفة، ومن فضلك متهربش من السؤال.

- سؤال صعب ومالوش إجابة محددة، بس اللي اعرفه اني لما بضُمك بتختفي أوجاعي وكل سخف الدنيا، هو ده الحب، مش مجرد علاقة بتبتدي وانت في حضني، إنما الرضا اللي بحسه بعدها، وكأني بصرخ بصوت عالي: «أنا سيد هذا العالم».

- مبقيتش عارفة ليه راضيه يكون بيننا ده برغم كل اللي باحسه بعدها.

- ندمانه ؟

- يمكن.

- مش ندم يا جورية، أنا عارف، انت بس بتكبري، فعلا بتكبري، باحسك مش الطفلة اللي عرفتها امبارح، افتكري كلامي كويس، انت بتتغيري لأني مش بس علي، أنا علامة فارقة ف حياتك.

التفت إليه لأتساءل لماذا تخيفني تلك الكلمات، وكأنني اترقب مجهولا ما؟ وما الذي يدفعني لحضنه برغم كل هذا الخوف الذي يشطرني؟ هل من بديل عن ضلوعه التي أسكنها كامرأة عارية بليلة عاصفة، تفرُ لملجأ يستر عريها ولو كان كهفًا من نار؟ ولماذا لا أعرف الوحشة إلا معه برغم ذوبان مشاعري وانهزامها أمامه؟

كنت دوما التي تبدأ، أنا من تقرر الذهاب إلى المدرسة أو الهروب إليه، في حال ذهبت سأستمع إلى حكاياتهن، سأتحدث إلى مايسة ونجلاء ومنى بلهجة تقريرية لا تنبئ عن شيء، لن تواجههن عيناي، سأعتذر لهن لو طلبن مني كتابة رسائل حب لأحبائهن، سأتعلل اليوم مثلا بتوجع أصابعي، وفي الغد سأشكو السعال وضيق التنفس، سأؤجلها ربما للحصة الثانية التي لن تجيء،

وبالظهيرة سأتحجج بالصلاة ولن أؤديها أيضا، بالحصة قبل الأخيرة سأجتاز اختبارًا يلزمه استعداد نفسيّ. لذا فلن اكتب الرسائل أبدًا مهما طلبن. في حال اخترته هو، كل ما كان يعنيني السعادة التي تغمرني كلما انهمرت بغاباته أو التجأ لصدري ليبثي أسراره، كنت دوما في حاجة لأن أقطع ممرًا بيننا لأطارد إحساسًا نرتشفه معًا، إحساسًا خاصًا، وكنا حين ننتهي أظنها النهاية، ويظل ما بين شكي ويقيني مسافة باتساع ذراعيه.

- ما لك؟!

- وحيدة..

أجهشت بالبكاء، فتش بوجهي عن موضع لم تلمسه شفتاه، كان أعلى الجبهة قرب منبت الشعر، قبَّلني طويلًا وقال:

- وحيدة ؟! ايه الكلام ده؟! انت بس مش عارفة انك بخير طالما

انك هنا..

وددت لو أخبره أني أغتسل في كل مرة بعد لقائنا أكثر من عشر مرات.. كيف أكون بخير وأنا أفعل ذلك؟! لست بخير تمامًا، لقد خُدشت روحي.. تحسس شعري، اعتقدته حين أمسك بخصلة منه أراد الاحتفاظ بطرفها فارتددت للخلف. ضمني لصدره وحدق بي بذهول جاذبًا شعرة، توجعت قليلًا لكنه أمسك بكفي، ووضعها بها ثم أطبقها.

– افتحيها لما تروَّحي.

رجوته أن أفعل فقبَّل كفي برفقٍ محكمًا إغلاقه وكرر جملته:

– مش قبل ما تمشي.

لم أفهم، اتجهت للباب مضطربة، خرجت ببطءٍ فأوصده ورائي، فتحت كفي لأجدها بالداخل ملتفة تلمع، كانت شعرة بيضاءَ

مفضضة، تساءلتُ بفزعٍ:

– من أين تراها أتت تلك؟!

13

عدت فارغة لخواء متنامٍ بين عالمين، كرهت أحدهما وذبت بالآخر كأقحوانة تبتلعها الريح، قطعت عيناي الشقة، لمحت أمي بالركن ترفو فتقًا بجلباب أبي، ظننتني أطعم الدجاج، وظننتُ أطعمني الهزيمة.. كنت بحاجة شديدة للاغتسال. بي رغبة عارمة في احتضان المياه، واللجوء إلى الله بتضرع فيقبلني، أو هكذا كنت أوهم نفسي، تساءلت هل كان ليردني خائبة وأنا العالقة ببابه؟! كنت تلك المضطرة التي تدعوه وتقسم عليه في عليين أن

يستجيب لها.

شيء ما بداخلي كان مرتاحًا للتطهُّر، على الرغم من كتابتنا دستور لقائنا بورقة زرقاء بمسمى" عرفي"، وحين كنت أسأل نفسي عن اقتناعي بحروف عهدنا الموثق سرًّا أجدني مجرد بلهاء مندفعة، نظرت لي أمي متمعنة، بيقينها أغتسل لأزيل ما علق بجسدي من روائح للريشِ المتطاير من دجاج العشة، بيقيني أسرب ما علق من شذرات بركانه، ألقيت بجسدي المتقد لبرودتها.. سربلت خيوط الماء المنفلتة، وأزحت ما تبقى من أثره. استسلمت لخريرها، عزلني عن العالم وأعاد المشهد لي، أدركت أن ما حدث لم يكن وهمًا، بل كل الواقع، أفقت على ألم حارق بنسيج كتفي، اتجهت للمرآة المغبشة بالبخار الطازج، كنت مشدوهة، مددت يدًا مرتجفة لأمسحه، ببطءٍ شديدٍ، شديدٍ جدًّا، أدرت ظهري

لأكتشف موضع الألم، صدمتني علامات أصابعه حمراء غائرة بجلدي تتوسطها علامة بنفسجية مدممة، ابتعدت، استندت بجسدي للجدار البارد وبكيت. عضضت أصابعي لأكتم صرخة كادت تزهق روحي، احتقرته وكرهتني، دعوت الله أن أختفي أو أتلاشى برذاذها، لكن كيف أذوب بها وهي المتسللة إليَّ، تخترقني لتستر عريي.. جاءتني صورتها إلى جانب الباب.. آه أمي.. أنا حزن لا وطن له عندما ألمحك بالركن ترتقين جلبابًا، بينما أجتثني من الجذور بجرمٍ أبدي.

آه لو تضمينني إليك، لو تعيذينني من شيطان مريد يزيِّن الجرم لي، ربما أرفل مثقلة بالذنب ما بين مطرقة وسندان فتتآكل توبتي، لكنني أتساقط هلعًا كلما اخترقني شرودك، أود لو أخمشني بأظافري فتدمى خلاياي فتتوجع وتتوجعين لي، لو أنك سألتِ

نفسكِ: ما الذي يخفيه عبوسها؟ ما الذي يعنيه صمتها؟ ما الذي تختلسه ساعاتها؟ سأجيبك: آه لو تدركين خسارتي، سيبكيك الجسد الذي سألتني اكتمال قمره، ولن تتوجعي للروح التي فارقته، أردت أن أهزها بقسوة، أن أصرخ بها: أفيقي أمي، أو اسألي.. لأنني بمنتهى الوجع لن أجيبك.. لن أجيب.

***

ثلاثة أيام تمر وعاد «مجدي» ليسأل.. راوغت، لا لأنني لم أجد الوقت المناسب، ولا لأنها لم تهدني كذبًا شبح ابتسامة بصباحاتنا النؤوم فأسكب عني هذا العناء؛ لكن لأن الأثر الساخن لفعلتنا ما زالت تفضحه خلاياي، وتتنشّقه أنفي، ويسري بين الشفتين، لن يجدني توددٌ لها كما لم يفاجئني رد فعلها حين ابتعدت مدبرة، وكأنها تعرف عني كل شيء.

فرك كفيه بتوتر، رائحة السجائر كانت تعبق المكان.

داعبته فلم يلقِ بالًا..

– قلتلك الموضوع ده مهم بالنسبة لي، مش عاوز أفاتحها بنفسي، على الأقل انتو طول اليوم مع بعض، وممكن تسمعك، ليه مش مهتمة؟!

– ما جاتش فرصة بس، فيه شيء جد؟

– مفيش يا «جورية» مفيش، هقولها بنفسي واللي يحصل يحصل.

تابعته بعيني عابرًا الممر الضيق الذي يفصل حجرتها عن الصالة، تركته يتحرك باتجاه خياره دون أن ألتفت للوقت الذي سيفصل حتمًا ما بين زمنين، لم تكن طمأنينة، إنما كان استشعارًا لهزة داخلية عنيفة ترتع في الخلايا.

دخلت غرفتي متخذة قرارًا غير مبرر بأن أكف عن ترقبي المجنون

لظهور «علي» بالشرفة أو اللوذ به حين يأتيني صفيره متقطعًا يدندن no woman no cry.. أحيانًا نكتشف أنه من المفيد جدًّا أن نتراجع خطوة للوراء، خطوة واحدة للوراء قد تضبط كل شيء.

***

قلَّبت أمي كفيها مرتعبة.. نعم، صفعته بقوة، كادت تقتلع عينه اليمنى من محجرها، اتجه للمرآة ليتأكد من علامات أصابعها الخمس، لم تبكِ، بل ظلت تحاول استدعاء أي نوع من التعابير فلم تجد، أما هو فظل لبرهة ذاهلا يرتجف، بعض خطوات قصيرة له وتلعثم وحاجة للبكاء لها، واجه صورته المنعكسة، رشق المرآة بقارب الفاكهة الخزفي، تفتت الزجاج قطعًا كقلبها.

– آسفة، ما قصدتش، ما قصدتش..

استدار بخُطًى عريضة.. صفق الباب خلفه.

هرولت للغرفة.. أغلقت بابها وأجهشت بالبكاء.. لكن.. لماذا تفعل ذلك كله؟!

سفر والدي المتكرر وغياب «أم علي» يأتيان متزامنين، كلما استلقيت بفراشي هاجمتني الوساوس، سألت أمي عنه فأجابت بضيق: في مأمورية. سألت «علي» عن أمه فرد ببرود: في طنطا تُنهي بعض الأمور. يعود أبي فتعود هي، يذهب فتذهب، أين عساه يكون وقتها؟ أين يبيت؟ هل يمكن أن يكونا...؟ لا، مستحيل.. هل رآها مهربًا لحياة جديدة؟ هل كان أنانيًّا لتلك الدرجة فيلفظنا جميعا غير عابئ سوى برغبة؟ ولِمَ لا؟ لو سيطرت عليه سيلبيها غير مهتم بنا. خطه المستقيم ينتهي لمنحنى ليس من تناقض ولكن من تمرد، جذره العالق بنا يقتلع ذاتَهُ، ويسلم نفسه للريح.

ظهيرة مقبضة.. الأجواء خماسينية تنبئ عن توتر مشحون.. الغبار عالق بالفراغ.. فراشات الستائر اختنقت وانسحبت للداخل.. مصباح الغرفة عجز عن الإتيان بحزمة ضوء بعد أن غابت الشمس خلف السحب القاتمة.. أرسلت الشبابيك صريرًا كئيبًا، خلت الشرفة على أعمدتها بعد أن انقطع حبل اللبلاب، أفلت مجدولًا بورقاته الصفراء كمقدمة هزلية لما هو قادم، أوشك خيط دميتها الأولى أن ينقطع، وسبقتها الأخرى في الخفاء، تاقت عصافيرها للتحليق، سيتركونها له.. وحيدة تمامًا، وليس وهمًا انصرافه عنها، حضوره المفعم بالروائح، غموضه يغلف كل شيء.. ملابسه، أنفاسه، كذبه، ارتباكه حين تواجهه، نبرة صوته، صمته الذي يطول، عبوسه، إشراقه اللحظي، مئات الأعذار للسفر والغياب، سؤاله اللحوح عن حالهما، استراقه السمع لبابها كلما أتاه

صوتها، تسأله عنهما فيجيب:

- أرملة صاحبي وابنه اليتيم، ومش هتخلّى عنهم.

كان يدرك أنها استشفت العلامات، ومع ذلك ظل أسيرًا لحلمه الهمجي. لا منطق في هذه الحياة، البيت على اتساعه مجرد زنزانة مظلمة، ونافذتها الوحيدة باردة كئيبة لا توحي بأي شيء.. أيامنا لا تمضي، وساعاتنا يلازمها الضجر. في هذا البؤس كله، كنت كطائر يضرب بجناح واحد فلا يفقد ميزة التحليق.. وكان «مجدي» ببؤس يضرب بالجناح الآخر. صفعت أمي ذلك كله، فجرَّت مخزن هواجسها، غاص قلبها إلى قدميها حين لم يأتِ «مجدي» بموعده.. رسم الشقاء ملامحه بوجهها وحتى الداخل، كانت تضرب بكفيها على صدرها وتزفر.. قطعت المسافة من الصالة إلى الشرفة أكثر من عشر مرات، وفي كل مرة تعود

محملة بالشحوب.. سمعتها تئنُّ بصوت واضح، تجرجر ساقيها بصعوبة، لمحت انحناءة بظهرها لم أرَها من قبلُ، تساءلت: هل أمضت بزنزانتها الانفرادية هذا الوقت كله من دون أن ندري، أم أن وطأة الخذلان مَن فعل بها ذلك كله؟

- أخوكي اتأخر.

- يمكن عند حد من أصحابه.

- أول مرة يتأخر كدا.

- الغايب حجته معاه.

- قلبي واكلني عليه. مش مطمنة.

- الامتحانات قربت.. طبيعي يغيب.

- كان لازم يقول.

- زمانه جاي.

كنت أستدعي جيوش الطمأنينة لتهدأ، وكنت أكثر قلقًا منها، مؤكَّد أنها أدركت بحدسها أنه يمر بأزمة، يظل مسهدًا طوال الليل، يستمع للأغنية ذاتها، لا يكف عن غلق باب غرفته رافضًا الطعام، تشغله تلك البنت – لا تنكر عليه حقه – لكن علَّمه الحب الذبول والتوق إلى الفرار.. دخلت حجرتها وأغلقت الباب.

وصلني بعد لحظات صوت ارتطام قوي، شيءٌ ثقيلٌ تهاوى فارتج السكون، استجاب جسدها للجاذبية اللعينة، تسربت من ساقيها الحياة، استسلمت مدركة أن كائناتها المتسربلة بعالمها العدم تحيطها من كل جانب، كائنات من صبر وعوز، كان سؤالًا يلتهم جمجمتها، لماذا حدث ما حدث؟ لم يكن حبًّا ما يربطنا، لماذا أدفع مقابل سلعة لم أملكها؟!

شهور تمرُّ، هزلت أمي، صار لونها داكنًا، عيناها جزعتان لا

تهدآن، لا أعرف كيف ذاع خبر مرضها، رأيت أقاربنا بعد انقطاع سنين، لم أستشعر حنينًا لهم، لم يكن الدم ليحنّ كما اعتقدت، زيارتان متباعدتان بأول كل شهر وآخره، ثم زيارة بمنتصف كل شهر، بعدها توقفت عن العد، كانت تمسح بكفها صدر أخيها «سالم»، تتبسم بوداعة، وبعد انصرافه تجهش بالبكاء.. اكتشفت أن «مجدي» يشبه خالنا الكبير «بدر».. زارنا بعد شهرين من مرضها، ترك بين يديها ظرفًا فيه نقود، بكت أيضًا بعدها، سألَته عن زوجته وبناته فأومأ مبتسمًا وقال: بيسلموا عليكي. همس لها قبل أن يغادر أن «جمال» أرسل لها حوالة بريدية لم تصله بعد، و«جمال» هو خالنا الثاني بترتيب الأخوال، لم تتعدَّ مكالماته أكثر من دقيقتين في العام الأخير، سافر إلى بلغاريا للحصول على درجة الدكتوراه بعد ضياع فرصته في التعيين بالجامعة، أذكر يوم

ودعته جدتي بالمطار، وأذكر وعوده الكثيرة بالعودة، وأذكر خصلات شعري المتطايرة وأنا أرقب الطائرات في السماء، عدنا يومها نحمل في مآقينا الدموع.

المرة الوحيدة التي قطعت غيابه كانت بعد وفاة جدتي بأسبوع، دق الجرس، احتشدنا أمام الباب في ترقب، فتحت أمي ببطء شديد، دخل علينا ببزة أنيقة وطفلين يتحدثان لغة غريبة، ابتسم لنا ومد يده ليصافح أبي، لم يعانقه، وقف أمام أمي صامتًا، ألقى نفسه بحضنها، ضمته طويلًا، علا صوتهما بالنحيب، تعلق صغيراه به وكنت أرقبهما، ضربت أمي على صدره بقوة وقالت: «سبع سنين يا جمال؟!». طأطأ رأسه بخجل، سألنا عن كل شيء، أجبناه عن كل شيء. اعتذر عن الغياب، منحنا الكثير من الحجج، ومنحناه الكثير من البسمات.. ظلَّت وجوهنا معلقة به حتى غادر في

المساء.. من يومها لم يطرق الباب غير زائرنا الكئيب.

لم يكن أبي يرحب بهما وكان يتعلل للخروج، كانت زيارات متباعدة باردة على أي حال، للمرض إحساس ثقيل، لم تفلح أحاديثهما المتقطعة في إذابة لزُوجته ولا إزالة الوجع المتنامي بين جدران الروح، نظراتهما شبه المكترثة لا تُفصح عن اهتمام حقيقي حتى بعبوس مصطنع وقطبة جبين، كانت ترفض العلاج رفضها للطعام، توقفت شخوصها المستدعاة عن المجيء وزادت عزلتها، فاستكانت وصمتت. أحيانًا تتمردُ على فراشها فتسعى للنزول مجرجرة جسدها اليابس فتعجز، وتظل تحاولُ وحدها حتى تكاد تقعُ؛ فنهرع لها وهو جالس يشرب الشاي، يفقد شعوره بها تدريجيًّا، أظنه بسره يتمنَّى لو تموت. تقرؤها بعينيه الهاربتين للنافذة المغلقة كما باستنفار أذنيه حين يرهف السمع للباب الموصد حين يأتيه

صدى انفراجه. تظل قابعة بالسرير محدقة بالسقف، وعيناها معلقتان بالشرفة تترقب سطوع الفجر، بينما يتحرك خياله حثيثًا باتجاه النافذة.

14

كنت أتساءل دومًا: ما حاجة الشتاء للحنٍ موجعٍ ليتابع عزفه الرتيب؟ هل لأن القلوب المصابة بالارتعاش لا ترتجلُ إلا البكاء؟ لماذا تغمره تلك الرائحة الشجية لتغلف اللحظات كلها، رائحة الفقد المشبعة بالأنين؟ كنت أنتظره على الرغم من ذلك كنهر جارٍ يشتاق للمصبِّ، ويدرك أن النهاية باتت قريبة ومرهونة بالانحدار.

لا أعرف ما الذي يحدث لأمي، تذبل أكثر، تتآكل أسنانها

وتتساقط يوميا، تتتابها الألام ليلًا فنسمع أنينها، أخالها تقول: أنا بموت. وجهها صَغُر كثيرًا، عروقها بانت، ضلوعها تكاد تخترق جلدها وتغادر. الأشياء كلها تفزعها الآن، الوميض الأصفر للمصباح يوترها، تخيفها الظلمة بالقدر نفسه، يبكيها اضطرارنا لتبديل كيس البول أمام والدي في حال تواجد، وحين يخرج متأففًا يهزمها الوجع فتقيء، يضايقها شعرها المهوش أحيانا قبل أن يُضَم، وأصوات النسوة الصداحة صباحًا حين يتبادلن الكلام، صمت المساء المطبق وقرآن السرادق، كتبي ودفاتري المهملة، انصرافي للاستذكار أحيانًا في حال راودني شبح الرسوب، خروج مجدي للجامعة، رائحة الطعام الذي لم تعد تأكله، رائحة البخور المنفلتة من نافذة الجيران. استحمام أبي بمنتصف الليل، حتى حركته بين الغرفة والحمام، ظلال البهجة التي تكسوه في بعض

الأوقات ، أظنها تشم رائحة الأخرى به، حتى قبل خلع ملابسه، تعرف أين يخبئ نزواته، وبأي جسد يحلم بنومه، كلما تفاقمت خيالاتها إزدادت كآبة، أمي لا تفعل شيئًا أبدا، فقط تنتظر الموت وتحزن.

افتقدت «عليّ»، وافتقدت المجلات التي يطلعني عليها، كل الصور الملونة التي تحتويها، البيوت، الأشجار، الثلوج، الورود، تعابير الوجوه، تكاوين الأجساد، الظلال وتعاريجها، انعكاس الضوء على الكتل، وكل ما في الصور من تفاصيل. كنت أنتظر كومة المجلات بزاوية مكتبه لأتأملها بشوق كناري لنافذة مخملية تطلقه للفضاء، وكنت أتسلل كقطة باردة تبحث عن دفء الملمس الصوفي للكرسي الهزاز، ما زال «علي» يصفر no woman no cry ويتابع بث الهواء بالهارمونيكا، وما زلت أسدل الستارة فلا

تبصره عيناي، لكنها تسجن الصور كلها.

غيَّر أبي مكان نومه للصالة، ما زالت أمي ترهف السمع كلما استشعرت خياله يتحرك، كان المطر يتساقط بصورة أقل حدة عن الليالي السابقة، بدا الشارع ساكنًا بتلك الليلة، همست تريد لتستحم، تشبثت بذراعي حين أرقت الماء على جسدها، كانت ترتجف، اصطكت أسنانها، ازرقت شفتاها وتعلقت بي كطفلة تخيفها برودة الماء كما يفزعها الانزلاق، تركت أظافرها علامات مدممة حمراء بنسيج ذراعي، ألبستها قميصًا أبيض موشى بزهور بنفسجية وصفراء، مشطت شعرها بأصابعي وليس بمشطها العاجي خوفًا على جلد رأسها الرقيق، ضممته بجديلة هزيلة تسلل إليها الشيب فتدثرت بالرماد، صارت للنهاية رائحة قريبة لا تبرح أنفي كرائحة بَولِها الذي انتشرت بقعُهُ بحشوة الفراش.

صباحًا دخلت عليها، كانت محدقة بالسقف ولم تنتبه لي.. درت بالغرفة، تأملت وجهها الشاحب وجسدها الممدد على السرير، كانت شاحبة كالناموسية التي تعتليه، اقتربت منها ودفنت راحتي في كفها، كانت باردة، أحنيت ظهري نحوها لأقبِّلها، لم تتحرك.. هززتها، كانت ساكنة تمامًا. هادئة تماما، مستسلمة، خرجت من الغرفة مذهولة أصرخ والكون يتهاوى من حولي: «أمك ماتت، ماتت يا مجدي».

لم نبكِ أبدًا كما بكينا يومها، وقفت في الشرفة أودعها.. ما زال المطر الخفيف ينهمر.. اعتقدت أن الحياة ستتوقف عند هذه اللحظة، ولكن كل شيء استمر، عندما اختفى جسدها عن ناظري وددت لو هبطت إلى الشارع، وصرخت بأعلى صوتي: أي عبث هذا! أي منطق! لماذا تشرق الشمس وأمي قد ماتت؟ لماذا

يضحك الناس وأمي قد ماتت؟ لماذا يلعب الصغار وأمي قد ماتت؟ لماذا تذهب النسوة للسوق وأمي قد ماتت؟ لماذا لا يتوقف كل شيء؟ ذهبت أمي وبأنفاسها رائحة بعيدة لفص برتقال لم تكمله بليلة سابقة، ومن دون أن أدري وضعت خاتم زواجها في خنصري، اعتذرت عن امتحان الثانوية العامة، اجتاز «مجدي» امتحان الليسانس وتخرج في كلية الحقوق بتقدير مقبول، انقطعت مؤقتًا أخبار سيدة الشوكولاتة، وتصدرت سيدة العلكة براح المشهد كله، كما كرسي أمي المتحرك ذي العجلات.

***

لم يكن عسيرًا أن يغلب أبي وحشه الكامن فينقذنا جميعًا، فقط لو استحضر صورة لأمي قبل أن يستوعبها فراغ الكرسي لتمنعه عن ارتياد كهف ذكورته، وعلى الرغم من أنني لم أكُن أعرف شيئًا عن

طبيعة علاقته بأنثى العلكة، لكن كل ما أدركه أنه لم يعد هناك داعٍ ليستتر؛ فقد رحلت التي كان يضطر ليواجهها دومًا في المساء، تخيلته يذهب إليها، وقبل أن يطرق بابها تتسرب نظراته لتتفحص المكان خوفا من أن نكتشف، يضغط جرس الباب، تفتح، تلبس فستانًا أحمرَ خفيفًا وفي عينيها بقايا نوم، تقول له: ادخل. فيسألها: هو في الداخل؟ فتهز رأسها نافية، يدخل ويسترهما الظلام، يتسحب بينما ترشده خطواتها الهامسة إلى طريق غرفتها، يغمرها بنظرات شتى يصعب عليها أن تفسر معظمها في تلك اللحظة، تقتحمه الرغبة سريعًا على غير ما يتوقع، تقفز من بين عينيه فتتلقفها، لا تتمرد عليه، لكنها تتآوه، تتمدد، تصرخ فيكتم صرختها، يغزوها، يجردها من ملابسها، يغوص فيها، تسرع عيناه إلى تلك البقعة الدافئة التي يخلفها بين فخذيها. وبعد كل عودة له

كنت أتقيأ كمن ترغب في التخلص من امتلاء مخيف، بعدها تنتابني راحة مؤقتة، أستحضرها فقط لتعينني على الحياة، كنت أندفع لـ«علي» وبذهني صورة لأبي، وحين نلتقي بمساحتنا الفارغة نتواجه كضدين يتبادلان اللوم والقبلات، بعدها كنت أسأله عن ميثاقنا فيحضر الورقة الزرقاء؛ فأتأملها وأشمها كمن تطارد شعورًا معينًا بين السطور.

كان لا ينتابني أي شعور زائر إلا بصورة وجع دائم وندم، لا يشغلان أكثر من مساحة صغيرة تفصل بيننا، وحين أواجه أبي كنت أفعل مثل أمي، فأضع طعامه بصمت على الطاولة ولا نتشارك ازدراد اللقيمات، وأظل أحدق به بينما تهرب عيناه.

***

اخترت مرارًا أن أجتاز المسافة الدقيقة بين عقلي المرهق بهم

وقلبي النابض بالحياة، فانتهكت حصارهم ولُذت بنفسي والهروب، لكنهم دومًا كانوا وأبدًا أشباح الأمس التي تحاصرني، يشبه تسللهم صفيرًا حادًّا لإنذار معلوم النغمة يخبرك باقتراب شيء ما، شيء لا يمكنك إيقاف تتابعه، شيء ما يحفزك مُطلِقًا أدرينالينك بنهايات الأعصاب، يتوقف الخدر وتتحفز تلقائيًّا لحدث ما يستنفذك، تستهلك كمونك وتستعيد كل طاقة التحفز التي تسكنك.

تعجبت من قدرتي على المقاومة، والانفلات من شرنقة حيكت حولي بمهارة حائك مخضرم، ولكن بنسيج في حقيقته أوهن من خيط عنكبوت، لم أكُن إلا لأصارع المصير الذي ركضت إليه أمي، سواءً كان بكرسي متحرك أو راحلة منهزمة تجر أذيال الخيبة بحُريَّة مدفوعة قهرًا، لا أنكر أن رحلة البحث «عنه» لم يحالفني بها التوفيق، كنت كالفراشة المنجذبة للنور في كيمياء

غريبة غير مبررة، وعلى الرغم من ذلك ودعت عباءتي السوداء وشال أمي البني برحيلها، ودعت إحساسي بالرهبة تجاه الشبحين اللذين جثما على جسدي سنينَ كمرض عُضال، كرهت ما يخفيانه، وما كنت أجاهد أن أنفيه أو أدفعه عني كجرم غير مشهود.

ما الداعي لأن تكون أنوثتي مطمعًا لأي رجل؟ كنت جميلة، لا أنكرها، ومن المؤكد أنني اعتدت جمالي فصار كلوحة زيتية معلقة بجدارٍ، فقدت زهوتها باحتلالها البقعة نفسها يوميًّا، حتى إن قدرتك على الاحتفاظ بتفاصيلها باتت مرهونة بمزاجك الشخصي، ورغبتك في احتواء أدقِّ أدقِّ تفاصيلها وخفاياها، وربما يدفعك أحيانًا مللك وفتورك إلى أن تستبدل بها لوحة رخيصة مقلدة كنوع من التغيير.

15

يبدأ عادةً يوم كهذا من حيث انتهت ليلة مماثلة، خيط طويل متصل من اللزوجة، أقضي الليل مضطجعة على ظهري محاولة من دون جدوى تصيد بقعة معتمة تهدد نصوع السقف، أرتب لحملة دهان موسعة، أرسم خططًا بديلة لعلاج شحوب لياليَّ، أرقب ساعة قديمة ببندول ثابت يردني لاحتضاري الوشيك، تدهشني نقلتي الدراماتيكية من شحوب السقف المزعوم لميناء الساعة المجهدة، أنتهي متخمة باللاجدوى تمامًا كذبابة علبة الطعام الصيني، ألعن الأيام لأنها ثقيلة لا يمكن تمريرها كفنجان شاي بارد بليلة أكثر برودة، تمامًا كمشاعره، أفكر، أين عساه

يكون؟!

على غير المتوقَّع، قررت قطع الإجازة لأنعم ببعض الحركة.. طلبت «غيداء» فربما تقلني، سيارتي الفيات بالصيانة، شهورًا أعاني أعطالها المتكررة ونافذة فمها المنفرجة على المصراعين تلتهم بشراهة معظم راتبي.

أكره سائقي التاكسي وما يفعلونه بي، أعرف طريقًا واحدًا للمجلة وعادة لا يسلكونه، لا يراعي السائق ضميره أبدًا، يظل يلف ويدور في انحناءات ثعبانية مربكة، ويتعلل في النهاية بعطل العداد، ويطالبك برقم فلكي، آخر مرة فعلتها لمت نفسي لشهر كامل ليس بسبب رذاذ لعابه الذي يخرج مصاحبًا لكلامه ولا لأسنانه التي تلونت بالسجائر، ربما لبعض الجحوظ بعينيه، ردني لرجل العصابة بالفيلم العربي القديم.

كان متبرمًا، ساعة من الشكوى، تكلم فيها عن زوجته واضطراره للذهاب بها مرتين أسبوعيًّا لعمل غسيل كلوي بمستشفى حكومي «تعبان»، وعن جلسات التخاطب المكلفة لابنه المعاق، وعن معاناتهم اليومية لدخول الحمام المشترك بمنطقة عشوائية تسكنها الكلاب والقطط وباعة الكيف، قلت له إن الأحوال عمومًا مزرية، وإن الشهور الماضية كانت وبالًا على الناس كلهم، ومن صميم عملي أعتقد أننا سنعيش أسوأ فتراتنا، فرد بأن فساد الذمم سبب أساسي لما نحن فيه، وأنه يضطر أحيانًا لتدخين الحشيش لينسى مأساته، وأن ساعات اليقظة الكاملة استحالت كابوسًا مزعجًا؛ إذ لا تتوقف طلباتهم وإيراد التاكسي لا يكفي، وأمه بحاجة لعمرة، وهو نفسه يدرك أن موتور السيارة بحاجة للعمرة ذاتها، حتى دماغه الذي لم تعد تكيفه ماتشات الكأس والدوري.

– البلد ماشية لورا، حتة لعيب ابن امبارح بياخد على قلبه قاااااد كده، وأنا متمرمط كل يوم لآخر الليل ومش ملاحق، بالك.. العربية دي بُق مفتوح ولو عليَّ كنت بعتها، بس أجيب مصاريفهم منين؟

حدثني عن أخيه سائق هيئة النقل العام الذي لم يقبض راتبه لشهرين، وكيف انتهى به الحال بالسجن بسبب إيصال أمانة.

– على فكرة، مش بعيد أبقى مكانه، البلد دي عاوزانا متبهدلين كده.

قلت له:

– كل ميسر لما خلق له. بس عشان تجيب حقك لازم تعرف تطالب بيه، مش مجرد كلام وخلاص، والقانون لو ظلمك بيجيب حق غيرك.

ضحك ساخرًا ..

- حق غيري! بالذمة ده كلام! لما اخد حقي هافكر ف حق غيري، شوفي يا أستاذة، مفيش غير الإضراب، نقضيها إضرابات وخليهم يشوفوا البلد هتمشي إزاي..

- عمال المحلة بيضربوا من وقت للتاني، وسائقي النقل العام، وسيلة مؤقتة مش حل فعَّال. ليه تفكروا تزودوا الأزمة لما ممكن تحلوها؟!

- أهي حاجة تمشِّينا على ما تُفرج.

- مش حل.

- هي دي بلدنا يا أستاذه. من امتى فيها حلول؟ كله ماشي بالبركة.

- غلط، أكبر غلط صدقني.

– نصيحة مني، قبل ما تتكلمي عن الغلط والصح، جربي تعيشي وسط الغلابة، تحسي مشاكلهم، جربي تفكري منين هاتكفي عيالك ومفيش في جيبك تمن اللقمة الحاف. ده انا لو مت عيالي هاتشحت.

كان يتكلم بمرارة، وبدا الكلام قطعة من جحيم، كنا قد وصلنا، أدرت عيني إلى النافذة، لم تكن غيداء قد وصلت بعد، قلت له إن المدن الجديدة حل أوقع، وإن إعمارها، من وجهة نظري، أسهل بكثير من إدارة أزمة العاصمة عبر إضراب شامل يعطل مجريات الحياة. قلتها بينما أغادر. رد قائلا :

– ربك يسهل الحال يا أستاذة.

قالها باستسلام وانطلق، انتظرت غيداء بمقهى «مومنتو» بالمهندسين، جاءت بعد نصف ساعة، اعتذرت عن التأخير،

تناولنا القهوة وغادرنا، بالسيارة، فتشت في خزانة الأقراص المدمجة عن شيء أفرغ فيه مشاعري.

- ها، طمنيني.

- تعبت بعد جلسة الكيماوي، وعلى ما الوضع استقر البيه اتصل وكمل عليَّ، بيقول إنه في سوريا عند أهل مراته، يعني عاوزني أعمل إيه لما أعرف حاجة زي دي؟ أباركله ولا أدعيله يقضي إجازة سعيدة ف حضن الهانم؟!

قالت بتردد إنها تشك أنه يخفي أمرًا ما، ربما أنه رُزق بطفل. الغريب أنها لم تكن مهتمة، وكأن كل الأمور أصبحت تتساوى عندها.. أردفت بخفوت:

- العذاب وهم من اختراعنا، ربنا يهنيهم ببعض.

- أخيرا فُقتي.

قبضَت على مقود السيارة، أطالت النظر في وجهي، كانت تتابعني أو ربما أنها انتظرت لأتحدث عن أي شيء – أعلم ذلك جيدًا – لم أرغب بأي حديث.. لم أرغب حتى بالتنفس.. أصابتها حالة من الضجر فأسلمت السيارة لقيادة مجنونة.. أدهشتني المفارقة.. أقلتني «غيداء» من «مومنتو» بالحي الهادئ، والآن كلما اتجهنا للداخل يزداد الزحام ويرهقنا الضجيج، اصطدمت عيناي بلافتة «تشيليز» الضخمة، برز قرنا الفلفل الكبيران بلونيهما الأحمر والأخضر، تذكرت الصورة القديمة التي قصصتها لثمرة فلفل حمراء حارة شغلت كفَّي مزارع أسود بإحدى القرى جنوب بوسطن، كانت الصورة بـ«أميركان مجازين»، كانت المجلة تحتوي صورًا أكثرَ لثمارٍ أخرى بأحجامٍ مهولة، كان «علي» يراقب انفراجة شفتي فيزداد التصاقًا بي، يتلمسهما بطرف إصبعه كمثال

تعنيه دقة التفاصيل.

***

لم يكن العذاب مجرد وهم من اختراعنا كما قالت، وإنما لكل منا منحوتة من العذاب سُجلت باسمه فلا يتقاسمها وأحد جيرانه مثلًا، كان غريبًا وقتها أن أنتظر الوقت ليمر لأهرع لـ«علي» وكأنني أفض عنوة أنشوطة الحجج، وعلى الرغم من أن وجه أمي كان بيننا، لم يمنعني من وطء جنتي، كنت اختنقت من اعتياده الغياب، توقف الصفير عن المجيء فارتعدت، لعله نسي، أضع أذني يوميًّا وراء الباب لأسمع صوت هبوطه، غيَّر الحذاء لآخر بنعل مطاطي وغاب الصوت، حتى الشارع لم يعد يفصح عنه، أي قلب هذا يهبط إلى الشارع ليشارك حذاؤه لطمات الأسفلت وليشرب وحل الطريق أمامه؟ بل أي بؤس؟! عند الظهيرة نقرت

أصابعي الباب، كان ينتظر كأنه هنا منذ ألف عام، اختلجت أنفاسي بينما يفتح الشراعة، نظر في عيني مباشرة، وحين فتح الباب بكيت بين ذراعيه، كنت ممتلئة برائحته، لم أصرخ به ولم أرفض يده الممدودة، وصلنا إلى النقطة الحرجة ذاتها، شيء ما بداخلي يدفعني إليها، وكان انكسار روحي يمنعني، قال:

– ابتسمي يا «جورية».

لم يكن الحصاد هو الشيء الذي انتظرته بنهاية مشهد لقائنا الأخير، عشرات الصور تلاحقت عدا موسم الحصاد، تصورته يسألني في البداية: لِمَ هذا الغياب؟ وقبل أن تأتي إجابة تُسكتني سبابته، ليس من المفترض أن يمنعنا أي شيء، ليس من المقدر أن نتصافح لنفترق، موجة عالية من التردد تجتاحني، فإذا ما ركضت نحوه قابلني بابتسامة عاقلة، وقطبة جبين ويدين

مشبوكتين، إذا ما بكيت وضقت ذرعًا بالجفاف العاطفي احتواني بجنون عاشق فتضيق المسافة بيننا، أهز رأسي موجهة حديث شك لنفسي، فيطمئنني من دون صوت، رحلة قصيرة أبحر فيها بين ذراعيه، سخونة احتوائه تربكني، عيناي تحدقان به، يحدثني عن عارضة اليمام، عن أفق يهرب إليه كلما ناداه الحنين إليّ، لم يفوت شراء المجلات الأمريكية، ولم يفض عنها غلافها السوليفان، قال تكفيه نظرة عينيَّ الشغوفة حين تنزعه أناملي وبجنون طفولي أقلب الصفحات، لم يكن مجرد تصفح، كنت أسكن الصور، أتقمص تعابير الشخوص، أتحسس الزهر المتناثر فوق الموائد وبين فراغات الدانتيل.

كانت علاقة معقدة، تشبه لسعة حادة لتيار كهربي، ليس مميتًا بالضرورة لكنه يتركك بحالة تدرك بعدها أنك اندفعت بحمق لبحر

هائج بلا مَرسى.

كنت أمقت تعابيره حين ننتهي، عيناه تحملقان في اللاشيء، يتفرق شعري على ساعده، يزيحه جانبًا ويشعل سيجارة يغشاني توتر دخانها لتدمع عيناي.

- مش بحب أشوف دموعك.

- مش دموع يا «علي».

- تعالي.

امتدت أصابعه إليّ، جذبني، راهن صدره على استحالة المراوغة.

سألته هامسة:

- كلمتها؟

رفع عينيه لصورة أمه المثبتة على الحائط:

- جميلة مش كدا؟

- مين اللي جميلة؟!

- أمي.

- دايما بتقول كدا، وكأنك شاكك إني مصدقة!

- بقول كدا لأنها تستاهل.

مد أصابعه لتلتقط أصابعي، أرخيت رأسي في ذهول، ومن خلف دموعي بحثت عن كلمات فلم أجد، ماذا ترانا لنفعل حين تخذلنا الحروف؟ نسكت أم ندعي الخرس؟ نصرخ حتى آخر حدود الصراخ أم نئن بصمت؟ ضغط رأسي بصدره، أغمضت عيني، رأيتها بأحضان أبي، تزوم بغنج فيعتصرها بجنون، يغازلها فترد باستسلام، يحاصرها بلمساته المجنونة، فتذوب بِريقهما المختلط، تهدأ حينًا فتشعلها حركاته وتثور رائحة فجة للرغبة يفعمها العرق.

- تعرفي يا جورية، لو باتخيل ست اكمل حياتي معاها، هتكون

صورة من أمي، مش أقل.

ادهشني إصراره، فلياليها الباردة لم تخل من عناق، كانت تضمه طيلة الليل وتبكي، نادته بـ«جلال» ليظل اسم أبيه يتردد على شفتيها، سارا إلى المدرسة يوميا، قبضت على أنامله واتجها إلى حيث يبدو العالم متسعًا جدًا، لم يثنها عن اصطحابه إلا ظهور شعيرات الذقن بوجهه وبراعم الشارب، بإصرار عجيب كانت تعد حليب الثامنة كل صباح، وفي المساء كانت تطعمه كرات الزلابية والبسبوسة بالعسل، رتبت ملابسه بالخزانة بعد كيِّها حسب الألوان، مشطت شعره، شذبت ذقنه وتفقدت موضع الموسى، بثته خوفها من امرأة يختارها قلبه، لن تستوعب كونه رجلها، وربما تسعى للاستئثار به فتُنسيه أمه التي زهدت رجال الدنيا من أجله، حين أخبرها عني دمعت عيناها، لم يكن فرحًا، بل دموعًا مشحونة

حفزها القلق.

حل بيننا الصمت للحظات، لم أكن أفكر فيما قاله، أو فيما يفترض أن يقول، أو حتى فيما يجب أن أفعل في حال قال ما انتظرته طويلا. شعرت وللمرة الأولى منذ وفاة أمي بأنني متعبة، متعبة حتى آخر حدود التعب، كنت ثائرة تنتفض غيظا من فحيح تلك المجنونة برأسي وأنين الخائفة بداخلي، نكست رأسي بيأس، شعور بالقهر ملأني، هالني أنني في تلك اللحظات ما كنت أرى سوى وجه أمي، كانت مستسلمة تمامًا، تدرك أنها النهاية، بتلك الزاوية المجهدة أمام النافذة حيث لا لبلابات، تحت الحشوة سر دفنته طويلا، واكتشفناه صدفة ملتصقًا بها كجنين؛ قطعتي الفنية بلونها الأصفر، فراشتان بكل ركن، إحداهما تحجب الأخرى فلا يظهر منها غير جناحين يرفرفان، يحلقان في البعيد، كانت أنهته

كله عدا غرزة واحدة تركت بها سن الإبرة.

– بوسة على جبينك حبيبتي.

أمسك بذراعي، قالها ببطء كأنه يعلم مابي، كأنه يدرك أن نصف عقلي أذهبه غيابها والنصف الآخر سيذهبه رحيل «مجدي»، ضمني إليه، أغمضت عيني وددت لو أتحرر منهما، قبَّلني طويلًا فازداد حنيني لحضن أمي الذي لم تعد تصلني منه رائحة.

16

وخزني الجرح القديم، استدعى صورة باردة الإحساس لهما، وكانتا اثنتين تتهامسان بباب حجرة فستقية اللون يرتكز بركنها الأيمن

قائم معدني للمحاليل، وتتوسد فراشها الضيق ملاءة بيضاء مجعدة، رفعاني بعد أن أزالت الكبيرة منهما آخر ما تبقى من أنسجة ملتصقة بالفراغ الكمثري، انغرس بي سن الكانيولا المدبب، وانتشرت الرائحة السمجة لسائل التعقيم، ألمٌ لا حد له اخترق أجزائي كنظرتين منهما تسللتا من خلف نظارة السيدة الثرثارة والأخرى البدينة، كرهت الصوت المنبعث من إحداهما، سمعتها تهمس:

- مش متجوزة، ربنا يستر على ولايانا.

- اتقي الله.. إزاي عرفتي؟!

- كانت بتخرف بحاجات غريبة..

تشير لها بمكر:

- هششش.. أخوها هنا..

– ادعيلها ربنا ينجيها، نزفت كتير..

أشعر بجسد ساخن إلى جواري، إنه «مجدي»، ما بين يقظة وغفوة كانت يده تمسد جبهتي، ترتعش كلما تحسست النار تخرج من رأسي، كان يتمتم بآيات الله وينظر لي بشفقة بينما يعتصره الألم.

مر يومان وليس من أثر لأبي، كان إغمائي بالصالة دليله لما حدث، الغثيان الذي يصيبني عند تنشق الروائح، شحوبي، اصفرار وجهي، قيئي المستمر، تلعثمي، فراري للغرفة وتظاهري بالنوم كلما جاء وقع قدميه على السلم.

ازددتُ يقينًا بأن ما حدث كان متعمَّدًا، هذا الانقسام الخلوي بداخلي، كائن ثالث ممتزج بخلاصة احتراقنا، يشهد انصهارنا، ينشطر جوعًا للحياة، ينفذ بين المسام، يحتل الفراغ الكمثري، يوثق كسرنا القيود ويحتمي بالخطيئة، كيف أصدق أن بداخلي ينبت

كائن منه؟

انتظرت تلك المواجهة، قوية تصدع الجبل على أثرها، هوت كفه الثقيلة لتلطم جسدي، كادت قدماه تنفذان من عظامي، انسحبَتْ روحي من بين ضلوعي، كل ما سمعته مني مجرد همهمات، ظننتني سأموت، لم يرعبني الموت حين أرسلتني إليها بفجوتها الضيقة، وطلبتُ المدد فأتاني، نظراته الحادة التهمتني بوحشية، باردة كنت ومتيبسة، لكن لم يحجب الفزع وجهها عني، أفقت على همسها:

- أنا هنا.. ما تخافيش.

لفني الخدر، ومساحة ممتدة لم يشغل حيزًا منها، مسافة ضيقة فاصلة بين الردهة وحجرة «مجدي»، النور مضاء وفتحة الباب تسمح بالرؤية، رأسه بين كفيه، باكيًا كان، تقابلت عينانا في

نقطة، وارتدتا للخلف دون أن تلتقطا أي شيء، سكون يشبه سطح بحيرة خاملة، ليست من غابة زنابق سوداء ولا مددًا من ليل رحيم، لكنها ظلمة تضرب صحوي، ماذا بعد الموت؟ لا شيء، أحسبه العدم، استجديت عينيه الغائمتين فلم تحضرا، لمحته من خلال الظلمة، لم يتحرك من مكانه، إنما انتظر نجاتي بوجوم مطبق، وكنا بصمت نئن.

– مين اللي عملها؟ انطقي.

تعجبت لنبرته، كانت تنبئ عن جرح نافذ ووجع لا يُحتمل، انتفض جسده، تفصد عرقًا، وعلى الرغم من جبروته، وبصقه المتكرر بوجهي يحمل تلك الرائحة الصمغية، كان ضعيفًا أو ربما أنني بالفعل انتصرت عليه.. وحدي أدرك أنه يعلم أنني هزمته بداخلي بينما استسلمت أمي واضطرت للذهاب، لم يزل يصرخ، هالني

احمراره ونفور عروقه، بدا وجهه لوهلة كما لو كان مقسومًا طوليًّا، نصف بعين جاحظة وجزء من فم يزعق بصوت مبحوح، والنصف الآخر كان مرتخيا والعين تئن برعشة جفن، يجاهد الحروف بشفة تعجز عن الانفراج ليخرج الصوت مبهمًا.

دفعه سكوتي للجنون، لم يتوقف عن رجمه الجرم الرابض برحمي حتى بعد اعترافي بكينونة أبيه، تدفق مني سائل أحمر قانٍ على أرضية الغرفة قبل أن أنطق الكلمة التي انتظرها، بعدها سكن صوته وغاب كل شيء.

***

كم مرَّ من الوقت وأنا نائمة على هذا السرير وبتلك الغرفة؟ ما زال الألم يعتصر جسدي، أستطيع فقط أن أدور برأسي لأتطلع لمن هم بجواري.. لا أريد أن أشعر بهم أو حتى بنفسي، تلك السيدة

بالركن لا تتوقف عن الحركة، قليلًا ما تسكن، والآخرون بصحبتها لا يتوقفون عن الكلام، ليتهم يختفون، سقطت دموعي، تمنيت لو أموت فأنعتق من هذا العالم، دُرت بعيني من جديد لأتطلع لهم: هذا الوجه المنتفخ، إنه الطبيب، هذا الجسد الممتلئ، إنها رفيقة الغرفة، هذا الوجه المحدق بالسقف، إنها امرأة ما.. بالغرفة دومًا وجوه محايدة بلا تعابير، ووجوه أخرى مهتمة بلزوجة، تهامست البدينة والمرأة ذات المرآة.. آلمني التقلص أسفل معدتي، دخلت «ابتهال» بردائها الأبيض لتفحص المحلول، شفتاها الرقيقتان منفرجتان قليلًا وتشبهان وردة حمراء، أهدتني ربتة سخية وزجاجة محلول جديدة، بمجرد انسيابه بالخلايا ضاقت مساحة الرؤية، وانتهت مشتتة بصورة طالما طاردتها بين صحوي والمنام، كانت لك، وكنت تضبط آلتك وتختبر اللحن، تدفع فيها من أنفاسك ما

يقيم أودها، تعزف بلا اكتراث فيخرج اللحن باهتًا مائعًا، تركت آلتك، وعجبًا ما زال اللحن يتردد بخفوت، كانت نغمة رتيبة على وتر أمسيات أغسطس، تشبه ندبة بنسيج قديم لست بقادرة على تتبع أول خيوطه، فقط استدرجت آخرها منتهية إلى باب حجرتك الخشبي بألواحه الزجاجية المغبشة، سمحت لعيني بالولوج.. كنت بالزاوية تقلب صفحات كتاب لـ«جبران»، استوقفتك جملة تقول: «الرغبة نصف الحياة، إنما عدم الاكتراث فنصف الموت».

التمعت عيناك، تنفست السكون، أرسلت دخان «الروثمانس» إلى حيث كنا هناك ننثر العطر على المتكأ حالمين بالوصول.

حين لُذتُ بالنوم راودني الكابوس ذاته، جنية تناديك، كنا بلجة بحر شفقي، كدنا نغرق بموجة افتعلتها ضحكتها، تركنا القارب المثقوب لدوامة من المياه الباردة.. تشابكنا لتأخذنا الدائرة

بالمنتصف، تعلقتَ بشعري، قايضَتني عليه لتنقذنا، فتركته لها، ساومتك على قبلة من شفتيك وفعلت، رمتني بعملة صدئة عليها صورتك، كنت مبتسمًا، فاجأني نصوع أسنانك، كانت الياسمينات تملأ ثغرك كرائحة أنفاسك، مشيتما على سطح الماء، سألتك عن سرك وكنت أعرف أنها القبلة، ريقها يسرى فيك، بكيت فضحكتما، ذهبتما، فزعة كنت أناديك:

– علي.. علي.. علـ...

أفقت مما حسبته كابوسًا مفزعًا، تخيلت أنهم دسوه لي بمحتوى المحلول قطرة قطرة، أسعدني أن أراك ببدايته خلف الباب الزجاجي تطالع «الأجنحة المتكسرة» لـ«جبران»، وأوجعني أنني فقدتك بالنهاية ببحر همجي لجنية زرقاء، ويبدو أننا لا محالة غارقان ومفارقان، خوف يتمطى بي حين أذكره، وحين أستدعي

صورتي الأخيرة بالصالة أنزف، أتمنى لو سحقني الوجع.

***

عدت فارغة من جنين لأجده قد فارق متعجلًا، رحل أبي بنوبة قلبية بعد تلقيه الاعتراف، كانت آخر كلماته قبل أن يغلفني الصقيع وأذهب خارجي:

– ابنها.

قال «مجدي» إنه مات فاندهشت، إحساس أذني بالكلمة غريب، اعتدت أن أراه بكل مشهد، يأكل ويشرب، يغضب ويثور، تغلف برودته أسطح الأشياء، لكن كيف يكون ميتًا؟ كيف استطاع أن يفعلها؟! بدا الأمر وكأنه ترك مساحته مضطرًا لتشغلها أنفاسنا، والبيت أخيرًا لنا.. البيت بمقاعده ومنضدته المستديرة ومصباحه العتيق، بمطبخه البارد ونوافذه المغلقة، برائحة اختناقه وصورة

كبيرة لهما تملأ فراغ الجدار.

لم يكن الأمر سيئًا كما تخيلت، لم أصلِّ صلاةَ استسقاء لينهمر الصبر ويذهب صقيع الحزن، لم يكن أبدًا عام حزن، إنما موسم وجع كبير، لم أدَّعِ أنني بحاجة لبعض الوقت لتجاوز الجرح المستبد، كن يفعلن ذلك في التلفاز، يتحطمن وجعًا وتُهيج آلامهن التنهدات، تخنقهن الدموع؛ فيهرعن للحجرات المظلمة ليستنجدن بالوسادات، يحتضنَّها ويبكين، ينتظرن بزوغ النهار ليدركن أنهن ما زلن يتنفسن، تحيط أجفانهن المنتفخة بعض الظلال السوداء، لم أحدِّق طويلًا بصورته على البوفيه لأغرق بعدها بنوبة نشيج، وحتى عندما فعلتها عيناي في غفلة مني ارتدتا للجدار واخترقتا شرخًا به، وحتى إنني لم أعاتب نفسي لكوني جاحدة أو شيئًا من هذا القبيل، فالأمر يلزمه فقط قدر من التأقلم، بحيث يمكن أن

أتقبل فكرة أننا أصبحنا اثنين، وما زالت المنضدة كما هي بأربعة مقاعد. متصالحة مع ذاتي، وأدرك حقيقة أننا نموت بالحياة حين نتعاطى الخذلان.

لأسابيع كنت أفتقد «مجدي»، تتقابل أعيننا بلا كلمات، وُلدت مسافة بيننا، وما عدنا نقتسم أي شيء باستثناء كتلتنا الرمادية الباردة، لم يعد يسمع في السكون سوى بعض خطوات باتجاه المطبخ لإعداد الطعام، أو حمل أطباقنا الفارغة، أو هسهسة أسورتين لأمي خنقتُ بهما معصمي، هدوء سمج يقتاتنا، لا شيء يغري النسيم باستثناء ألحان عفوية للهارمونيكا، كنت أخذتها من «علي» بعد إلحاح وأخفيتها بين ملابسي بخزانتي، وكأنني كنت أواري سوأة عمري المجذوذ.

***

فاجأني «مجدي» بحجرتي ذات مساء، وكانت عيناه تهربان كلما تواجهنا، وما بين التلعثم والارتباك سألني إن كنت و«علي» نتواعد، أو إن كان يحاول الاتصال بي، أقسمت: مستحيل. أردف بخفوت أنه صادفها على السلم وكانت تلبس الأسود، حاول تجنبها إلا أنه فوجئ بكفها تقبض على ذراعه، ظلت تلح عليه ليسمعها، بعدها أخبرته بأنها توجعت لموت «حكيم»، ونهنهت باكية.

سألته:

- «حكيم»؟!

كنت أعلم يقينًا أنها تقصد أبانا، لكن الدهشة أبت أن تغادرني، وربما الأكثر من مجرد كونها الدهشة رغبتي في خلق جسر من التواصل فيعود بيننا الكلام.

رد بضيق:

– أبونا يا «جورية».. أبونا.

لم أرَ أبي يومًا يثني على أمي، أو يغازلها، أو يهش لها حتى في مرضها، ولم تكن تتودد له أو تدلله، كان «عبد الحكيم» وفقط، لم تضطر أمنا أبدًا أن تناديه به أو بغيره، ولم أسمعه يناديها أيضًا بغير «تغريد»، كان هناك دومًا هذا الأرق الذي يجد في التلفاز عزاءه مهما تبع ذلك من ملل، كنت أتساءل في أحايين كثيرة كيف جئت إلى الدنيا، أظنهما كانا يلتقيان في الفراش بكامل أناقة الوجع.

أردف بشيء من حدة:

– ما تستغربيش، أنا نفسي ما بقيتش أستغرب، خاصة بعد اللي عملتيه فينا وفي نفسك، ومع ذلك كنت منتظر سؤالك.

سألته منكمشة:

– أي سؤال؟!

– سؤالك عنه، عنها.. عنهم يا «جورية»، إزاي مش ملاحظة غيابهم، مفيش حركة في البيت، الشبابيك مقفولة طول الوقت، ما سألتيش نفسك عن السبب؟!

قلت وقد تداعت الذكريات المهينة كلها:

– طردتهم؟!

كان وجهه مختبئًا خلف دخان سيجارته.

– محتاجين نرتاح، كفاية قوي لحد كدا.

نقر مرات على خشب المكتب قبل أن ينظر إليَّ من جديد ليفاجئني:

– ليه عملتي في نفسك كدا؟ فكرتي في إيه وقتها؟ حب ولا انتقام؟ ولو انتقام كنتي بتنتقمي من مين؟! منه؟! لها؟! ما اعتقدش!

لم تحضرني إجابة، كنت بحاجة لسماع صوته، وكان لا بد أن يكسر حاجز الصمت، ذبحتني الحقيقة التي واجهني بها، وظل السؤال يعصف بي: ممن كنت أنتقم؟! من نفسي أعتقد، عذبني رحيل «علي» بغير وداع، افترقنا، كان فراقًا مثاليًّا، كل ما فيه لا يُطاق، حب، غضب، جنون وندم.. كنت أعلم أن قلبي الذي يتفتت ألمًا لن تداويه غير مأساة، مأساة أكبر من تلك، ربما.. انتهت فصول القصة، لم تترك وراءها أكثر من صفحة معطرة بدفتر بنفسجي، لكن حوافها الحادة أبت أن ترحل قبل أن تترك بي جرحًا غائرًا، ونزفًا متصلًا طالما لم يدرك مصدره.

ما أحوجني اليوم لحضنك أمي! غبتِ ولن يأتيني صوتك كلما كسرت طبقًا أو أوقعت كوبًا:

– خد الشر وراح.

أردف مستسلمًا لنبرة حزن:

- شوفي الصدفة الغريبة، لما صارحت أمك بموضوع «أمل» بدأت تموت، ولما أبوكي عرف بحكايتك مع الندل مات هو كمان، مش من القهر طبعًا بس من إحساسه بذنب هو أول واحد سمح لنفسه بيه، الأغرب إننا متحملين ذنب موتهم مع إنهم ما كانوش عايشين من الأساس، افهمي ده كويس، وكملي حياتك، أرجوكي يا «جورية»، خلينا ننسى اللي حصل.. مفيش مبرر أبدًا نكمل حياتنا مدفونين بالحياة.. خلينا نتكلم في بكرة أحسن.

سألني عن خططي للمستقبل، انتزعت الكلمات الجافة من حلقي وقلت:

- هاكمل وأدخل صحافة وإعلام.

كانت لحظة مثالية للحمق، من لحظات الفرح الشحيح، رسمنا

الأحلام، ولم نخضعها لمؤقتات زمنية، تركناها لتنساب، تفرس عميقًا بوجهي.. بدد كلامه شعور بالخزي، وددت لو أعانقه، ما من بديل عن صدره في تلك اللحظة بالذات، خيَّم الصمت ولم يعد ممكنًا أن يواسي أحدنا الآخر، هرعت لاحتضانه مغمضة العينين، تأملتني بين ذراعيه فارغة كشجرة أزهق حلمها الخريف، تائهة في عالم لا أدركني فيه؛ عالم هو الغربة ذاتها، ضمني إليه، نهنهت كالأطفال وقميصه مكرمش بقبضة يدي، أدركت أنني ألملم بعضًا من الهارب مني، تألمت حين أبعدني لبرهة ونظر بعيني، بكل ضبابية احتواها المشهد كنت أتأمله، كان وجهه هادئًا كقديس يمنح البركة.

فتحنا النوافذ لتدخل أشعة الشمس، طردنا روائح الغرف القديمة، الذكريات المؤلمة كلها، بقايا الكوابيس، تساءلنا عن الرائحة

الملتصقة بالجدران والدُّثُر، كيف احتملناها هذا الوقت كله؟ كيف استسلمنا لها؟ بحثنا في الخزانة عن شيء نطهوه معًا، وعن شيء آخر نشربه معًا، غيَّرنا نظام البيت، بدَّلنا مكان الأثاث، غسلنا الجدران، وعندما فشلنا في طمس البقع كلها، قررنا بيعه ببقعه، وكل الندوب المختبئة بشقوقه.

بعد عام، جاء مشترٍ ليعاين البيت ومعه مقاول، راح يتفقَّد الحوائط ويتحسس الجدران، دب سيخًا من الحديد في الأسقف، صعد السلالم وراح يدبدب بقدميه، طلع إلى السطح، مد بصره لبقايا ذيل الطائرة الورقية المجدول على الحافة، أفلته.. كان آخر ما تبقى من طائرة لـ«عمر»، كان الجو خماسينيًّا عاصفًا، وقف «عمر» على السطح الواسع ليطيرها، اشتدت الريح وراحت الطائرة تتماوج بجنون، اشتبكت بهوائي الجيران على الحافة، صعد ليخلصها

فاختل توازنه، سقط ومات. بعدها طارت وحطت على سطحنا، حين لمحت ما تبقى من أثرها انتابني حزن شديد، بكيت كثيرًا، كثيرًا جدًّا.

***

كانت صورة أمي هي آخر ما عانقه «مجدي» قبل أن يحمل حقائبه للخارج، وقف بمنتصف الصالة يودعني، قال إنه من اليسير وداع جدران شقة روكسي، وكنا قد استأجرناها بعد بيع البيت عن جدران زنزانة قضينا فيها طفولتنا وصبانا وسنوات مراهقتنا، وما سماه كهولتنا المبكرة. ما عرفته من «مجدي»، بعد أن فضضت أولى رسالاته من لندن، أن سيدة العلكة فاتحته برغبة «علي» في الزواج مني، وأنها كررت ذلك على أبينا أكثر من مرة بحياته ولكنه رفض، يبدو أنه أدرك صعوبة الوضع، فحتى الآن

كل ما نعرفه عن علاقته بها محض افتراضات، وكل ما يخص كينونة تلك العلاقة ظل لغزًا محيرًا طمسته ظلمة القبر، فلو أنه تزوجها سرًّا كان بالضرورة ليرفض «عليّ»، ولو أنه رافقها لكان الوضع مستحيلًا، أظنه لم يكن ليقبل أن يزوجني ابن المرأة التي يطارحها الغرام حتى إن كان شغوفًا بها، يظل جزءٌ منه يزدريها كأنثى غواية كل ما تستطيع أن تفعله أن تنفخ بالرماد، أدركت يومها أنه تعمَّد إخفاء الأمر عني فلا أعود أجدد رغبة قد تقوِّض ما كنا نحاول أن نبنيه.

17

– حاسبي، حاسبي.

في اللحظة الأخيرة انتبَهت للشحاذ وتمكنَت من تفاديه.. كدنا نصدمه لولا أن جذبَت الفرامل، أشار بحركة بذيئة وهرول مسرعًا، لم يكن مقعدًا، كشف الجلباب عن ساقيه السليمتين، أظنني شممت رائحة بصقه بينما يحدق بالعكاز تحت العجلات، زفرت بغيظ بينما تعالت ضحكاتها، ما زال الطقس كما هو، الهواء ساكن غير ناقل لحرارة الأجساد، لافتة مركز الخصوبة تشير بأصابع حمراء للشارع الخلفي، صافرة شرطي المرور أرختنا على وتر الأسفلت المشدود، بائع السميط يتحرك بسلاسة، صبية المدارس يتنقلون بين السيارات، عباءة القس نالها بعض الغبار، عمال التراحيل يزاحمون الباعة على الأرصفة، واجهات المحال مكتظة بتفاصيل أنثوية كثيرة، علب مكياج، برفانات، تنانير قصيرة، فساتين بأكتاف عارية، فراشة ملونة اخترقت الزحام، بنت

طائشة مثل «هند رستم» عبرت أمامنا وثلاثيني يطارد ذيل حصانها الكاشف عن عنقها النحيل، دخان النرجيلة بالمقهى الأمريكي يشاغب زجاجة المياه المثلجة، صوت أم كلثوم النافذ: «وان مر يوم من غير رؤياك، ما يتحسبش من عمري».

تربكني القاهرة كلما لملمت صورها؛ فتضطرني للاختباء خلف نافذة موصدة أو محتمية بجدار متهالك، قاهرتي تسكن بقعة من وطن يهزمني الحنين إليه، ليس كما يعرفونه، قاهرتي تقطن صوري، تزين أغلفة «فوج»، المجلة الشهرية التي أراسلها بلندن كمصورة، لا يستوطنها زحام الباعة، لا تعترف بلافتات ضخمة تحجب النور، لا يخترقها الفريون ولا يحجبها دخان العادم، لا ترهقها أصوات المكبرات، لا يلدغها الناموس، لا تستوطنها العقارب ولا تتلون كالحرباوات، ليست حمراء الرائحة كماجنة

لعوب، ولا سكرية الإحساس بلا نكهة لتسقيك مرارة العلقم بعد شهدها، قاهرتي مجرد طفلة رائعة تسكن مشاعري.

كنا لا نزال نتبادل الحديث، تكلمنا عن الرواية فسألتني بفضول إن كنت ضمَّنتها سطورها، ضحكت، قلت إنه شيء خاص ومختلف عمَّا أكتبه بعمودي اليومي، شيء يستهلكني بشدة، يستغرقني طويلًا، وأسارع إليه كرحلة استشفاء يومية مسبوقة بطقس اعتراف، سخرت مني وقالت لعلها ستكون سيرة ذاتية. صدمتني الجملة، فأي عنوان يمكن أن أعطيها؟ لا أدري لماذا أطلت الباليرينا من جُب أفكاري، ظننت العنوان سيكون باليرينا. كنت حائرة ما بين أن أضيف «ال» قبل العنوان ليصبح الباليرينا، أو أن أتركها هكذا باليرينا وتصبح واحدة من ألف، أو واحدة كألف، ربما كل ما سيبقى من عالمي السابق بعض أشياء تركوها معي، ليست

كأمانات ترد، وإنما كعلامات إرشادية تدل على أصحابها، باليرينا «عبد الرحمن»، جرامافون «مجدي»، هارمونيكا «عليّ»، و.. بانتظار صاحب الرنين تذكرت أنه لم يُهدِني غير وجع بحجم مجرَّة، أليس من الغريب كونها أشياء تنتمي لعالمٍ واحدٍ، عالم تتداخل فيه الألحان لتشكل جوقة ما؟ ليتها لا تكون كتلك التي ترتكن بزاوية لباخرة تغرق؛ حيث يفر الكل لحتفه عدا قائد الأوركسترا، يتابع العزف بجمود بينما يكاد يفر قلبه مع الفارين.

توقفت السيارة لحظة، كانت الشمس تعيد تكثيف برتقاليتها، احتضنتها زاوية عينيَّ، صمتت الألحان كلها وعاد فضولها ونفير سيارتها، خرجت من السيارة لتعبث دوامات الهواء بشعري فتدغدغني حروفه، تسللت رائحة ألفتها نبهت القشرة العليا لمحارة روحي، رائحة تماثل تلك التي تسبق المطر، التقطت نفسًا عميقًا،

تغلغلت الرائحة رويدًا، زفرت عميقًا.. ظنتني ملولة فبادرت:

– وصلنا.

دلفت بعد أن ودعتها، أسعدني استقبالهم الدافئ بعد عطلة أنهيتها عمدًا، فاجأني المظهر الجديد للجدران، بدت مبهجة ورائعة، منحوا الاستقبال لونًا جديدًا كنت اقترحته على «خالد»، ولم أتصوره يأخذ برأيي، كان برتقاليًا حادًّا، أما الحائط الرئيسي فمنحوه البني الداكن، تموضعت بالمنتصف لوحة مستنسخة لشهيرة سلفادور دالي «تحولات نرجس المسخية». نسخة مقلدة بمقاس كبير، زيت على توال، كانت سريالية «دالي» عنوانًا لأحد أكثر الموضوعات زخمًا بالمجلة، والتي حرص «خالد» على تحريرها بنفسه، طفولة مرفهة ظل فيها طوال الوقت يبحث عن الآخر الذي لا يعرفه، عن اسم له وكان لأخيه قبل أن يضمه اللحد، ظلت «جالا»،

زوجة «دالي» الروسية الأصل، نموذجا مجسدًا للمرأة الملهمة، لم أتخيل أن يهيم رجل بامرأة لدرجة أن يوقِّع لوحاته باسمها واسمه.. هكذا دومًا تُعامَلُ الملهمات، يُعامَلن كأنداد وليس كأضداد، يخلدهن التاريخ ورجالهن، وجدته مجنونًا ووجده «خالد» عبقريًا، وربما العبقرية يلزمها أحيانًا بعض الجنون.

وقفت أمام اللوحة طويلًا، بدا الأمر غريبًا حين تأملت «نرجس» لأجده شبيهًا بـ«خالد»، لم يكن شبه ملامح؛ وإنما كان الأمر أكبر من ذلك بكثير، كانت تفاصيل روح استدعتها صدفة أول لقاءاتنا بالكافيه، كان يحدق بالأشياء بنصف عين غير مهتمة، ونصف آخر غير متشبث بشيء عدا انعكاس صورته بالواجهة الزجاجية.

وفق الأسطورة الإغريقية، وقع «نرجس» في غرام انعكاس صورته على سطح بركة صافية كان يحدق بها طويلًا، وعندما أدرك

استحالة معانقته للصورة المائية وهنت قواه فأحالته الآلهة إلى زهرة جميلة، يظهر «نرجس» باللوحة جالسًا على حافة بركة الماء محدقًا بالأسفل، وعلى الجانب الآخر يوجد شكل صخري يشبهه إلى حد التطابق، لكنه مختلف بالتكوين؛ لأنه لم يكن غير يد حجرية تحمل بيضة تنشق عنها زهرة «نرجس»، وبالخلفية توجد مجموعة من النساء والرجال العرايا، يلوح لهم في الأفق شكل يشبهه تمامًا، ما أدهشني كان اختياره لتلك اللوحة بالذات لتتموضع بالجدار بمواجهة الباب الرئيسي، وكأنها ترمز له.

كان عَليَّ أن أمر بمكتبه، كان الباب مغلقًا، ترددت بين رغبتي في إلقاء التحية وبين أن أتجه مباشرة لمكتبي ليبادر بالسؤال عني، فكرت ربما تنتابه الدهشة لو عرف قراري بقطع الإجازة لانتهائي من ملف عمالة الأطفال بيومين فقط على غير ما كان متوقَّعًا.

كان جادًّا بالعمل، وكان الفيصل للتواجد ب «سبوت» مدى استحقاقك لكرسيك، وإلا فهناك من يستحقه أكثر منك، إلى حدٍّ ما كنت مبهورة بسياسته التي أثرت إيجابًا على مستوى المجلة، خاصة بعد سفر «ناصر»، اعتقدته تكنيكًا رائعًا لإدارة مؤسسة ما، ولكن هل يمكن للحياة أن تدار بالكيفية نفسها؟ هل يجوز له التعامل معها كنمطٍ يحسب كمعادلة جبرية أساسها ما يتوافر لديه من معطيات؟ ليقرر بكل دقة مصير كائن ما ومسار حدث ما بناء على إحداثياته؟ وغالبًا كان يفعل، ودائمًا كان هناك متكئًا على كرسيه، يتأمل بانتشاء الأحجية وقد تفككت رموزها، وبكفه جهاز تحكُّم عن بُعد، تدرك إبهامه الطريق إلى ذرِّ الإيقاف، فيفعلها تلقائيًّا لتظلم الشاشة بعد أن انتهت اللعبة بـGame over، ليصفق فرحًا بإعجازه، مضيفًا نقطة جديدة لاختبار ذكائه.

قلت له مرة إنه يشبه كرة ثلج تتدحرج لتزداد حجمًا، ولتلتهم بطريقها كل ما يعترضها، بعدها تتصدر المشهد بكامل حضور.

ابتسم متخليًا عن قطبة جبينه، وقال إن ما بدأ كبيرًا لا بد أن يستمر كبيرًا، وإن التعبير خانني حين وصفته بكرة الثلج؛ فكرات الثلج ينتهين بمواسم الدفء ويقتلهن التصحر ويشطرهن الاصطدام، كرات الثلج يفتقدن المشاعر، ويبعثن على الارتجاف، وما ينبض بين ضلوعه كتلة حمراء مشتعلة لا يُطمئن رجفتَها همسُ الحاضرين ولا دعاء الغائبين. قال إن العالم ما عاد يكفيه لكي يخطو بعض خطوات قصيرة خارجه ليعود بعدها من دون أن يخدشهن، وهن المعلقات بالوهم كوريقات الخريف، وإنه وضع القناع ليقيهن سهامه؛ فضميره شرير جدًّا.

كنت لا أرتاد مجرة الأسئلة كما يفعلن فيظهر شغفي، وتلمع تلك

النظرة بأعينهن كمن يدرك أن القائمة طويلة، وما زالت تتسع للمزيد منهن، ومع ذلك بأناضول ما زلت أشم العطر، ما زال يأتي فيسحرني فأتسمر بالمقعد، أبدو كمنومة لا تنبهها غير رائحة القهوة التركية؛ فأعود أختلس النظر عبر ممر زجاجي يفصلنا؛ حيث كان جالسًا بمفرده يرتشف آخر رشفات الفنجان، وعندما كنت أكابر رغبتي في الاستكشاف، كنت أواجه حقيقة أنني تلك الأنثى ذات الكبرياء، المدججة في الوقت ذاته بكثير من الفضول، تسكنها هالة سحر حين تتسلل خطواته الهادئة بالممر؛ فتميز بيسر ذرات عطوره متغلغلة بالمساحة وموشية باقتراب مدار من جاذبية شديد التأثير، كن يتراهن بأنه سيبتسم حين يمر، وأن العينين ستطلان بهدوء من خلف النظارة المتوسدة أنفه الروماني، وأن الصوت الدافئ ستشبعه الحروف ولو بلكنة أمريكية، وكان

يفعل ذلك كله، وحين يتسرب سرًّا يجيئك شيء منه ليقاسمك الأنفاس، شيء خفي يحفِّزك أن تسترق الحواس، شيء ما ينبئك بأنها ليست مجرد مصادفة عابرة تجمعكما، فتأسرك بشغف تفاصيله الدقيقة كاحتواء القلم، وانسكاب الحبر بين السطور، قبلة الشفتين لفنجان القهوة، سخونة الارتشاف، تجعُّد القميص عند الجلوس، لمعان الحذاء، قطع الشطرنج المتراصة فوق المنضدة الجانبية، صورة ابنتيه كخلفية لشاشة الحاسوب، وإطار من الفضة يحتوي صورة تجمعه وزوجته فوق ظهر أحد الخيول بأمريكا.

***

– ثباح الخيي.

صادفني «ياسين» بالممر، اغتبط لرؤيتي على الرغم من احتفاظه

بقطبة جبينه المميزة.. هكذا حفرت ملامحه بعض خطوط متوازية بجبهته العريضة، وعلى الرغم من أنه كاتب مقال ساخر ورسام كاريكاتير موهوب، كانت عيناه تختفيان وراء زجاج نظارة، وتحملان نظرة جدية لا تلائمه، تفحَّصني قلقًا بعينيه الضيقتين، تحفَّزت لثغتا السين والراء حين نطق اسمي فارتسمت ابتسامة تعذر عليَّ إخفاؤها، تغلغل الطعم الكانتالوبي لكلماته الصباحية متزامنًا مع حركته السريعة ككتلة لهب تتقاذفها أذرع الريح، ثم استكان وراء مكتبه بمجرد استقراري بمقعدي قبالته لتداعب أنامله شحمة أذنه اليسرى، حدَّق بي متوترًا، وكاد يقفز السؤال من بين شفتيه كطلقة مدفع:

– انتِ مُيتبطة؟

وهبته إجابة حاسمة ذات صباح، بعدها بدأ بقضم أظافره كعادة

صاحبت تبعثر الرسوم على مكتبه، ليومين قبل إجازتي كان متوترًا، سكب الشاي على رسومه، وجَّه سهم التصويب إلى مؤخرة «زمزم» عاملة البوفيه، شكا من حكة بأنفه أضحكت كل من بالقسم، وعندما فعلت تعجبت لرد فعله؛ إذ وقف قبالتي يحدق بي، هززت رأسي بطريقة استفهام، وكأنني أحفزه للكلام، فبادرني قائلًا:

– وأنا؟!

لم أفهم ما قصده فهززت رأسي في نفي قطعه صوته:

– ما فكَّيتيش فيَّ؟!

قلت بارتباك بينما أدقق بملامحه:

– «ياسين».. ما لك؟

قال بصوت خفيض:

– معقول مش فاهمة؟!

تصنعت البلاهة لأدوِّر الكلام إلى شكل يرمي لمقاله الذي أنهاه، وكان من المفترض أن أراجعه:

- هات المقال.. هاقراه ونتناقش لو فيه مشكلة.

- الموضوع مش كده خالص

قطب حاجبيه بشيء من الزهق، حاول أن يلملم حروفه وخذلته؛ فالتقط ورقة دوَّن بها أربعة أحرف منفصلة بشكل عمودي، لم يكن لغزًا لأفكك رموزه؛ وإنما كان اعترافًا بالحب حاولت أن أتفهمه من دون انفعال.

- إحنا اخوات.

كتبتها بالورقة نفسها وبخط واضح، في إجابة قضت على آماله وأعادته لمكتبه بكم من الإحباط كبير.

كانت عيناه ترقبانني بعدها بشعور مختلط ما بين مصدوم

وممتعض، كنت ألجأ بعدها للجمل التقليدية السخيفة، والتي بقرارة نفسي أدرك أنها محض وهم.. هو نفسه لم ينفِ تبرمه منها.

- اتثلت كتيي، وما كنتيش بتيُدِّي!

- حصلت ظروف.

- خيي؟

قالها بقلق بالغ.. كان يفتش في أصابعي عن شيء يتوقعه ويخيفه بالوقت ذاته..

قلت ببعض الحزم:

- الحياة عمرها ما بتقف على حد.

احمر وجهه لدرجة أني ظننت أنه سينزف حالًا.. تابعت:

- ممكن أشوف المقال؟!

أومأ بنعم وانسحب متظاهرًا بأن شيئًا لم يحدث:

– ثواني يكون عندك.

ذهب سريعًا، تحرك خصره النحيل كراقص تانجو، لعلها نوبة نشاط مفاجئة أججها ظهوري، ابتسمت لمشهدٍ عجيبٍ داعب مخيلتي، حين تسلل إيقاع موسيقي من حيث لا مكان، كان «ياسين» يتحرك بخصره يمينًا ويسارًا، يقفز لأعلى ثم يعود يتربع أرضًا، يقوم فيركض سريعًا ثم يدور دورة كاملة كراقص باليه محترف، ينحني ويميل، ينظر بمكر ويغمز بنصف عين، معتمرًا قبعة إسبانية وزيًّا جعله يبدو كـ«زورو»، هالني جموح خيالي فارتعدت خجلًا، اتجهت لمكتبي، وأنا أحمد الله أن الرجال غير قادرين على استيعاب فكرة أنهم مصدر إلهام مجاني لنا، لمجرد أن نتأمل أنماطهم وغرائبهم لنكتب عنهم كما لم نكتب.

بنوبة عِندٍ كالتي أمارسها أحيانًا، اتجهت إليهم مباشرة، وبهدوءٍ

مصطنع، كان بابه موصدًا، احتوت عيناي لمعان اللافتة الذهبية منقوشًا عليها حروف اسمه فانشطرت روحي، كدت أختنق وأنا أمر ببابهِ وأقاوم رغبة بالولوج، ارتحت فقط ليقيني أن ما يفصلنا الآن بعض خطوات قصيرة وأنه وأنا بالفعل متجاوران، كانت ظهيرة مفعمة بالتأويلات، ولكني تغاضيت عن أول إشارة، تسلل قلبي خارجي رغمًا عني، عابرًا الممر الذي يفصلنا، كنت أحاول كذبًا إظهار عدم اكتراث، خانتني أذناي حين التقطتا ما يشبه وقع خطواته على الباركيه، لم أسمع أحاديثهم ولم تأتِني أصداء نكاتهم، شغلتني صور المقال؛ إذ كان لا بد أن أمررها عليه تجنبًا لخلاف جديد.

حتى الثالثة لم أكن قد قررت الذهاب وكنت أراجع مقال «ياسين» بعنوان «أحلام شاب كوول»، فوجئت بـ«خالد» أمامي، بدا

مشحونًا وكانت عيناه مجهدتين، حاولت المراوغة من دون فائدة، استدعى نظرة جادة، وقال معاتبًا:

- موضوعك مش جاهز؟

- لسه.

- بعد كل الوقت ده ؟!

لا أعرف كيف مضت اللحظات، ومن أين أتت الشذرات التي ألهبتني، حاولت أن أندس أكثر بالمقعد لأختفي، رسمت ابتسامة باهتة كانت تزداد شحوبًا كلما مرت ثانية، وقبل أن أنطق كلمة كان قد أشاح بوجهه باتجاه «ريهام»:

- تقريرك عن صالون الحلمية يكون عندي باكر.

وانصرف.

لم تكن المشكلة فيه، وإنما مشكلة عقلي المرهق بحسابات غير

منطقية كنت أقبلها فقط لأرضي غروره، لم تؤرقني المسافات بينهما، على الرغم من أنها يمكن بطائرة خاصة أن تخترق غلافه الجوي، وأنا المغيبة بفراشي أنتظر سطوع الصباح بعينين معذبتين بالصور، ولم أهتم لكونها الأمريكية الثرية من أصل إيطالي، لورا ميديشي، عريقة النسب حفيدة كارلو ميديشي، مالك مزارع الكروم، ومزارع الخيول بفيلادلفيا وقصر النار بنيفادا، لم تقتلني نبرته الدافئة عندما يناديها بـ«سويتي» هامسًا كي لا يأتيني صدى القبلات، كل ما في الأمر أنها الأنثى الوحيدة التي احتوى رحمها طفلتيه.

لملمت أوراقي، دسستها بالحافظة الجلدية، تركت لهم المقال والصور، اندفعت للخارج بلا أي رغبة في النقاش، ولا حتى للمرور به، ظننتنا سنغادر عمرنا الصلصال، حسبتنا سنمزق

جلودنا لنكتسب لونًا غير الذي ألفناه.

وحيدة كنت.. كمن تدخر عمرها كله لتهبه برضا لآخر يخفيه القدر، وكأننا على موعد برصيف قطار، في اتجاهين معاكسين نسير مطرقين، وحدها ستتلاقى العيون، وكلانا يدرك أننا مرتحلان إلى حيث يكمن كل منا بروح صاحبه.

***

فكرت أن أهديهم فصلي المقبل؛ فهم لاجئو الوجع، واخترت عنوانًا من كلمة واحدة «الغرباء»؛ إذ إن هؤلاء بغمرة انشغالهم بكونهم الخاص يغفلون أنهم وقود كتابتنا والمحرك الأساسي لها، تمامًا كذرَّات الهواء بكريمة الخفق، تعمل على تماسكها وانتفاخها، عندما كنت أنقِّب عنهم، اخترقتني كلمات «ريهام» كنيزك شطرني نصفين، قالت منهارة إن ضبابية المشهد تلك الأيام أعادتها إلى

حيث كان حبيبها جالسًا إلى جوارها محتضنًا كفَّيها، مانحًا إياها نظرة مرتعشة، ليته ما أخبرها يومها بأنها قطرة ندى؛ فقطرات الندى غالبًا لا يبقين للصباح.. قالت ذلك وبكت، قلت لها:

- هاتنسي مع أول حد يخبط على بابك.

ردت بهستيرية:

- أنا السبب، أنا اللي كنت بحلِّيها في عينه يوم بعد يوم.

وسألتني إن كنت عرفت حمقاء مثلها.

كانت ريهام تكبره بثماني سنوات، ولم تصفح لأمه رفضها زواجهما ولا وصفها لها بـ«عقربة»، سألتها:

- ازاي كنتي هاتعاشري ست وصفتك بـ«عقربة»؟ حتى لو كانت أمه؟!

ابتسمت بأسى وأجابت:

– خفت من تجربة عاشتها صديقتي اللي اتجوز حبيبها، كانت زي المجنونة.. اتصلت وباركت له، حقيقي باركت له.

زفرت عميقا وأردفت قائلة:

– مكنتش أحسن منها، يمكن موجوعة أكتر، وحالي مجرد موت مصيره للعدم، تمام زي زجاجة عطر فاضية ف يوم هاتترمي..

– ياه ع الوجع!

– تخيلي اني واسيتها بطريقة ست بتعاني من انتكاسة عاطفية. بالأنين نفسه قلت لها: «اطمني.. ربنا مش هايبارك، دي خيانه وربنا فعلا مش هايبارك». سألتني بتشكك: تفتكري ممكن يعيش مرتاح بعد كل ده؟

هززت رأسي بالنفي؛ فأردفت قائلة:

– قلتلها كدا، وكنت عارفة أني اخترت المصير نفسه. يمكن

عشان كده بالذات أقنعته بالارتباط، عشان أقتنع أكثر أنه مُش ليا.

وما اتوجعش لما يمشي.

كل لحظات الحب المشتعلة يعقبها خفوت لتتكون ندبة مكان الجرح، ويظل ذاك الأثر البغيض كعلامة مائية تكشف حقيقة العلاقة عمَّا سواها، ويطل شبح الكرامة ليطالبنا باسترجاع الذات، وقتها اكتشفت أنني بحاجة إليه، لأبعد عني الخيالات الكئيبة التي تغتال روحي، وعدني بعالم مريح قبل بدء التدوين، عالم خاص يمتصني كإسفنجة، هناك يقف الوقت والمكان عند آخر لحظاتنا معًا، ليشير عقرب الساعة دائمًا إلى عاشقة تنتظر، لم تكن رغبة بهاتف يستدعيه ليُطمئن رعدتي، ولا محاولة مؤجلة لافتضاض ستر المساء، ولا اعتذارًا موثقًا بالوجع، فاحتياجنا أكبر من أن تزركشه الحجج، كان يدرك ذلك؛ لذا حين يزعجه جموحي كان

يغمض عينيه، يبتسم، يضمني إليه.. بعدها يسكن كل شيء.

18

طيلة الطريق كنت أفكر بنا، على الرغم من أننا لم نفترق، انفصلنا مؤقتًا، وذهب كل بناحية ليعود مخبئًا حزمة برية من ضوءٍ قمري يهديها للآخر، كانت باقتي أكبر، وكانت باقته أجمل، وكان القمر مشغولًا بتضميد جرحه في البعيد.

تفقدت حقيبتي وعثرت على المفتاح، أوقفت «تاكسي» وبدلًا من أن أتجه لشقة روكسي اتجهت لملاذنا بالحي الهادئ بالشيخ زايد، سأذهب إلى حيث يمنِّي كل منا نفسه بالابتعاد عن الزحام، صخبنا وحده يكفي لإذابة جليد تراكم بباب مجرتنا البعيدة، كان

صوتها ملائمًا لطبيعة حالتي، كانت تصدح براديو السيارة: «لولا الملامة يا هوى...».

تواتر النغمات كشف عن إحساس مُريح بدَّد وحشة الطريق.. محتَّم لقاؤنا، أحسه بالبعيد.. أدرك يقينًا أنه هناك.. عندما التقينا كنت أعلم أنه مذبذب ما بين رغبته في اعتناق الحياة، وبين السكون تكاسلًا كعقرب ثوانٍ ملول في ميناء ساعة مجهدة.

«وأطير وأرفرف في الفضا...».

وجدني، لم يكن الزمن ليسمح له بأكثر من نافذة لتطل منها أعوامه، وليدرك حقيقة أنه فاته الكثير.

«وأهرب من الدنيا الـ...».

انتظرته طويلًا، فلا مزيد من الدوران في عمق التيه، حين توجعه الجراح بالظهيرة وتنكؤها الأشعة الحارقة.. سيتذكر أنني أضخ

الأكسجين بأنبوب مجرتنا، ولن يفتش عن نفق للخارج..

«وكفاية عمري.. الـ...

وانا بخاف مـ...».

كانت السيارة التي أهداها لي في عيد ميلادي بالجراج، وعلى الرغم من أنه لقنني دروس القيادة حتى أجدتها واستخرج لي رخصة القيادة، رفضت استخدامها حتى نحسم قضيتنا معًا، لم يكن «خالد» خاتم سليمان الذي سأندفع إليه مشدوهة مستدعية الجني ليرشقني بأمنية، كان «خالد» مجردًا هو الأمنيات كلها.

كنت أركِّب الصور لتتلاءم معه، أدقق بالتفاصيل لتتماهى، أرتشف النكهات، أذوِّبها لتنسجم، أدخرها للغد كطفلة تختزن مذاقات الأشياء مستدعية مواسمها، حتى ترمومتر حرارتي اعتدت أن أضبطه بمؤشرٍ خاص ليقارب حرارته؛ فلا يجفل خوفًا من تيارٍ

باردٍ يجمد الدماء بعروقه أو ساخن يصهر خلاياه.

هرع «ريحان» من الداخل عندما لمحني ليحييني، وهو حارس العقار الذي نسكنه، قال إنه يدير محركها باستمرار لكي لا يصيب البطارية عطب، سألني عن «خالد» وعن مدة طالت لم نظهر خلالها بالمكان؛ فتعللت بالسفر، تركته متجهة للداخل، وبي يقين أنني سألقاه الليلة أو على الأقل سيجيئني منه اتصال.

لنا أكثر من أسبوع لم نتهاتف، على الرغم من أنه كان مطمئنًّا تمامًا أنني توطنت عالمه، وأن ما بيننا كان عروة وثقى لا انفصام لها، لم يكن أحدنا يعرف لحظة أن احتدم اللقاء، وظل بشفتي أثر عميق لقبلة من شفتيه أن تلك المرة كانت آخر أنفاس التماهي بيننا.

***

ينتابني شعور بالوجع كلما فكرت بجدراني الأربعة، وكوني جدارًا خامسًا خاملًا يرتكب الهزيمة كلما طرق الغياب، تصيبني لفحة ساخنة كمن فاتها موعد هام؛ فالعذاب كله طرق الأربعين من دون حصاد، أعترف بأنني أشتاق الأمومة وأن السنوات تسربت مني كما الماء من بين قبضة اليد، غادرتني كموجة تتكسر على الحافة، كانت المرايا تطمئنني بأن الوقت لم يمر، فتواري شروخها بانعكاس خادع لا يرسم حقيقتي.

بـ«زايد» أسسنا شقة فاخرة من مستويين بواجهة زجاجية كبيرة تكشف المكان على اتساعه، زوَّدناها بنوع ثقيل من الستائر كنا نسدلها ليلًا.. المكان جميل على الرغم من تحفُّظي عليه في السابق لكونه منعزلًا بكمباوند تحيطه الأسوار من كل جانب، وتسجنه الظلال الممتدة لأشجار الفيكس والأكاسيا والبانسيوانا

الضخمة، لم نكن نرى على امتداد البصر غير تشابك الفروع وتمايلها مع الرياح، لكنني اكتشفت كم كان مذهلًا؛ لأن جنتنا الرحبة وفَّرت لنا قدرًا من الخصوصية لم أكن أحلم به، هناك استشعرت قربنا والتحامنا وهدوءنا النفسي ومساحة كبيرة من الأكسجين تلتهما رئانا بأريحية، كانت تجربة مثيرة خُضناها معًا للتعامل مع العمال ما بين تشطيبات ودهانات ومفروشات. اخترنا كل قطعة فيها لتلائم مزاجنا الخاص، بعد نهاية كل يوم كنا نتفقد منجزنا متعبين راضيين عاشقين، وحين كنت أسأله عن شيء يتمناه، يجذب قصاصة ليدوِّن بعربية فصحى متسقة مع حركة أصابعه: «كوب شاي أرتشفه على مهل، خالٍ من السكر محلًّى برشفة من شفتيك، ومنكَّه بروح امرأة هي من صنعته».

ويقبِّل كفي.

غاب الرنين حتى المساء، هاتفته، كان الهاتف غير متاح.. اعتقدته ما زال غاضبًا، عزمت ألَّا أعود للعمل قبل نهاية الأسبوع.. وكان لا بد أن يتصل أو يمر.

لم أفكر في مهاتفة «ناصر» للسؤال عنه، على الرغم من قرب ثلاثتنا، ناصر مأمون، كان مالكًا لـ«سبوت» ورئيس تحريرها قبل عودة «خالد» من أمريكا، وقبوله بالشراكة للاستفادة من خبراته الصحفية، وعمله كإعلامي بارز طوال فترة ثماني سنوات بقناة CNN، لم يزعجني تصوره عن طبيعة علاقتنا؛ لأنه من وطَّد تعارفنا وشهد توثيق العهود، كنا نخرج معًا وتصحبنا «داليا»، زوجة «ناصر»، في كثير من الأحيان، كانت امرأة رقيقة بشعر أحمر ناري، أحببت هالة الدفء التي تشع منهما حين يتجاوران فلا يغيب عن الحضور أنهما حبيبان قبل أن يكونا زوجين، ما

المخجل في احتضان رجل لامرأته في العلن؟ ما العجيب في أن يتغزَّل بها، ويتوِّجها ملكة على عرش أحلامه، ويلوِّنا معًا رتابة الحياة؟ كان يفعل ذلك وأكثر، لم يُخفِ ولعه وافتتانه بها، عندما التقيتها لأول مرة أُغرمت بجملة أطلقها لسانه كزخة عطر بعثت الدفء بأوصال الأمسية، وربما كانت أرق وصف سمعته من رجل في امرأة؛ إذ قال:

– «داليا» أحلى سكر بيحلي مرار حياتي.

كانت تملك ثقافة عريضة وحضورًا مبهرًا ربما لأنها عازفة بيانو متمرسة، دعتني و«خالد» لحضور حفل بالأوبرا، كانت المرة الأولى التي أحضر فيها حفلًا من هذا النوع، وكانت تعزف بمصاحبة أوركسترا القاهرة السيمفونية كونسرت لشوبان. أسرتني لحظة أن كانت أناملها تتحرك فوق أصابع البيانو، بدت كشحنة

كهربية منفلتة لا يمكن تطويقها، ولا يمكن أسرها، حازت طاقة جبارة هادرة، كانت حرة رقيقة لدرجة الإعجاز، وقوية مثيرة وبعيدة المنال.. لم تكن تعزف الموسيقى فقط وإنما كانت تجسدها، ما فعلته ليلتها كان احتدامًا جميلًا مرهقًا للمشاعر متزامنًا مع حركة جسدها الناحل المتمايل، نسج لحنها رداء غير الذي ترتديه، لف جسدها كما حجب الليل بستار ملائكي، كنا نستقبل عزفها كمنومين متوسدين البحر بنعومته وأصخاب موجه ونسيم يوده.. في نهاية الأمسية عانقها طويلًا، لف ذراعيه حول خصرها مقبِّلًا جبينها بعذوبة شديدة، أشحتُ بوجهي للبعيد خجلًا بينما كانت أصابع «خالد» تفتِّش بصمت عن أصابعي.

كثيرًا ما كنا نخرج معًا، نسهر بالمسرح، نرتاد البازارات، نزور معارض الفن التشكيلي، نجلس على المقاهي الكبيرة ونحضر

الأمسيات، كنا نتناقش ونختلف ونصفو ونهدأ ونعتنق الجنون.. أسرَّت لي ذات ليلة أن روح أبيها لا تفارقها وأن كلماته عشية وفاته هي التي حركتها للحياة عندما همس بأذنها:

– عليكِ أن تتعلمي كل شيء قبل بلوغ السادسة عشرة؛ لأننا نصبح أغبياء فيما بعدُ.

لا شك كانت جملته دافعها الأساسي للسفر إلى روما لتدرس الموسيقى، لتتشربها من مارتا آرجيرتش، أسطورة البيانو بإيطاليا، لكن عزف «خالد» كان مختلفًا، يهمس فيصنع زمنًا للأمنيات؛ لتصبح الخرافات كلها التي لم تحكِها الجدة وخلت منها جعبة أمي هي الحقائق المجردة كلها، لتصبح كل الوعود التي لم تمشط شعر وحدتي وتعقد له الجدائل تبشر بعقود من ياسمين وقرنفلات، ليستحيل الليلُ شموسًا تتشكل بحروف عشرة شعراء ومائة مغنٍّ،

فتشهد روحي خمسين شروقًا وغروبًا، فقط حين يقول:

– امنحيني كلكِ؛ فما عاد بعضكِ يكفيني.

لم يكن سلامًا نفسيًّا ما اختبرناه معًا، كان أكبر وأعظم، كان حبًّا وجنونًا وكيمياء لم نعرف منها إلا ما يشطر الذرات، وكان علينا البحث كل مرة عن تفاعل يجمعنا من جديد.

***

دلفت إلى الشقة أفكر في كل ما حدث، ما الذي فعلته لأستحق هذا كله؟ كانت الأسباب كثيرة، وعلى الرغم من ذلك وجدتني لا أستحق هذا العذاب كله، تجوَّلت بالشقة أتأمل كل شيء: ستائرها، نوافذها، أثاثها، حوائطها.. ما زالت الساعة السوداء الضخمة المتوسدة جدارنا الحجري تمارس نقرها المتصل على إيقاع الوحشة، ما زال اللاهثان يركضان بالميناء حنينًا لرشفة ماء

ليواصلا المسير، هدوء قاتل، غربة تحيط بكل شيء.. أردت لو أتحدث إليه للحظات، لكنه يصر أن أكون امرأة تُرضي فراشه، طاهية تطهو طعامه، صحفية تجيد كتابة الموضوعات، أما هو فمجرد عقل إلكتروني لا يخطئ ولو من قبيل الصدفة، قررت أن أتحدث لأشيائه، لأشباحه، لجدران البيت.. سألتها عنه، شكوت لها عطره العالق بها والمتنكر لي، فتحت باب غرفة النوم، كان الفراش مرتبًا، كل شيء بمكانه ويصلح لالتقاط صورة لإحدى مجلات الديكور.. لم تكن كصورة أمي بغرفة المكتب بأقصى اليمين، ملامح أعرفها، أنف دقيق، حاجبان رقيقان وعينان ناعستان.. ارتجف قلبي، شعور بالرهبة ملأني وخيط من الحنين سرى، وكأنها لم تمُت، ما زال صوتها يرن في أذني:

– أنا معاكي.. ما تخافيش.

لمست وجهها فاحترق كياني، وألحَّ سؤال مربك عن معنى الفقد، تذكرت لقاءنا الثاني، انتابني شعور بالتحفز يشبه نغمة متصاعدة، وكأنها تمهِّد لاقتراب نزال، شيء ما يشبه المراودة، لحظة كالميلاد أود لو أستعيدها ألف مرة، جسدي يتنشق الرائحة، ويحن إلى دفء الحشوة، يتأهب لها، أصم أذني عمًّا سواها.

كان نهارًا مزعجًا، بدأ باستيقاظي على انسداد كامل ببالوعتَي المطبخ والحمام، مرورًا بتعنت زوجة الحاج، وزعمها أنني السبب الوحيد لنكسة المرافق بالعمارة، لم تكن السيارة أكثر رحمة منها؛ فضجيج محركها ودخان فتحة العادم أفصحا عن عطل جديد، الطقس حار والعرق ينز وقماش البلوزة ملتصق بي بجنون، تعليق الكائن الفضائي على ناصية الشارع حين مرَّ بدراجته بجواري ممعنًا النظر فيهما (هذين الرابضين على صدري كفوهتي بركان)

أوشك أن يدفعني للصراخ، كدت أمرر له بصقة تشبه سحنته، ابتسمت عوضًا عن ذلك بشكل لا يقل فجاجة أبدًا عن نظرته الجائعة، فلملم ذكورته، وركض بالدراجة مسرعًا، لمحته يتلفَّت خلفه، للأسف لم تصدمه سيارة واختفى بين الناس، تعرُّق شعري وتَّرني، فجذبته بعصبية وعقصته أعلى دماغي، دفنت نفسي بالمقعد، وقُدت بكل طاقات الإحباط الممكنة، سحابة سوداء ضخمة صاحبها عواء متصل متقطع مصدره فتحة العادم فتح أفواههم بكثير من السخرية، وصلت أخيرًا، اندفعت باتجاه مكتب «ناصر» بكمٍّ من الضيق لا حد له، لم يؤشِّر لنشر تقريري عن فلسطين، على الرغم من مواكبته ذكرى الانتفاضة، كان شعورًا سخيفًا بسوء التقدير، «ناصر»، الذي سهَّل لنا مهمة دخول فلسطين بناء على دعوة خاصة من جمعية «عطاء غزة» الخيرية،

هو ذاته الذي تجاهل تحقيقًا ضخمًا كبَّدنا مشقة ما بين سفر وبحث مُضنٍ ولقاءات مصورة.. لمعان اللافتة النحاسية بالباب استفزني، فزجرته دافعة الباب بغضب، لم أتوقف بمكتب السكرتيرة، ولم تأذن لي بالدخول، كان يجلس خلف مكتبه واضعًا على أنفه نظارة القراءة، وكان يقرأ من ديوان «حزن بملابس سهرة»، وبرفقته صديق لم أدقق فيه، لم تتغير ملامحه بدخولي، استمر يلتهم السطور، كان يصدر تلك الأصوات بين حين وآخر ليدلل على إعجابه بالقصائد، يهمهم، يزوم، يئن، يزفر.. صفقت بسخرية فانتبه وأشار لي بالجلوس.. صدمني رد فعله فقلت بضيق:

- ممكن أعرف ليه الموضوع ما نزلش؟!

- مين سمح تدخلي؟

حاولت بخجل لملمة شعري الذي انسدل فجأة.. وصلني صوت ضحكة جانبية لم يحاول صاحبها إزهاق رنينها، كان عليَّ أن التفت لأراه، حينها دخل عامل البوفيه وهو يحمل صينية يعلوها فنجانان من القهوة، وضعهما أمامهما وحدَّق بي وانصرف، سألني «ناصر» من جديد عن دخولي بتلك الطريقة فطالبته بتوضيح لموقفه، قال بطريقة مستفزة ليس علي أن أحاسبه، استحالت ضحكة صديقه بعدها لابتسامة متسعة.. تساءلت بنفسي:

- هل هو الرجل ذاته الذي حين اختبرت جنونه أهداني حديقة عطرٍ تستفز المشاعر؟ لا شك كان هو.

تسمرت مكاني..

- آسفة بس اا...

تمنيت لو أخبر «ناصر» أن أسوأ ما يمكن أن تقابله يومًا هو

خيبة الأمل في شخص تثق به، خاصة بعد أن يخذلك، وجدته بالنهاية وصفًا لا يليق وقد تأخذ الأمور منحى آخر فسكت.

لا بد أنه لاحظ حيرتي وخيبة الأمل على وجهي؛ فقال بلهجة أقل تحفزًا:

- لحظات وأكون معاكي، اقعدي.

كنت أنظر إلى عينيه مباشرة، وأتجنَّب النظر لضيفه.. جاء الصوت هادئًا محددًا بلكنة مشدودة تمامًا كجسده:

- اهدي.. آنسة...

- نعم؟!

- الموضوع فعلًا بسيط.

- مين وجِّهلك كلام؟!

عقد حاجبيه، نفث دخان سيجاره في هدوء شديد، وعاد بظهره

للوراء، امتلأت الأجواء برائحة التبغ الكوبي المحترق، أمرني «ناصر» بالعودة لمكتبي، حاولت أن أقول شيئًا فلم أستطِع، مرت اللحظات كدهر، ساد الصمت، كنا، ثلاثتنا، نتبادل النظر، اندفعت للخارج متجهة لمكتبي، لملمت حاجياتي ومشيت، اتصل «ناصر» مساءً ليعتذر عن تأخر المقال متعللًا بخطأ تجميع، كان لطيفًا، أنهى اعتذاره حالة الضيق التي استبدَّت بي طيلة اليوم.. وعدني بملحق خاص يناسب موضوعي، بنهاية المكالمة لامني على فظاظتي مع صديقه. كنت في حرج من الصورة التي انطبعت بذاكرته عني، عرفت منه أنه يدرس إمكانية البقاء بمصر بعد سنوات قضاها بأمريكا، وأننا بصدد تغييرات شاملة بـ«سبوت» لو تحقق ذلك، عندما ذكر أنهما بصدد شراكة، استدعيت مشهد انفعالي وكلماته، تذكرت ابتسامته التي تموضعت بشيء من

السخرية، وكأنني دمية تقدم عرضًا هزليًّا، ظل جزءٌ مني لا يرغب في توجيه أي اعتذار له، وظل جزءٌ آخر يستدعي ملامح صدفتنا الأولى بأناضول.

19

الأجمل من الكتابة اللحظات التي تسبقها، وأسميها: لحظات التحليق.. أحلِّق في مدارات متدرجة، تبدأ من المطبخ بتحسس برطمان البن، راسمة مشهدًا مدهشًا لفنجان قهوة مَلَكي، أدير

مؤشر الراديو بحثًا عن جملة بأغنية ما تستحق أن تكون مفتتحًا لائقًا، مرورًا بتفاصيل عالمي الخاص عبر زاوية مغرية بالشرفة أو مشهد مضبب يخترق زجاج النافذة، ربما لعاشقين يتسابقان ليفوز أحدهما بقبلة من الآخر، ربما لجرو صغير يتداخل بين قدمي شحاذ يطعمه فتات رغيف عفن، في النهاية عليَّ أن أستسلم تمامًا لمحاولاتي الدؤوب لتفريق أشعة الشمس بتضييق عيني أو للقبض عليها بأصابعي، أو ربما للتلصص على شرشف جارتي لاكتشاف سبب شحوبه، أنتهي مستغرقة تمامًا في حوض الاستحمام محدقة في السقف بانتظار المعجزة.

لم يكن انقسامًا بين عالمين ما يحدث لي، كان انبعاثًا لضوءٍ خافتٍ عبر نافذة مواربة، كان لا بد مع الوقت أن يخترق المساحة، ويفرض هيمنته على عتمة غرفة تآكلت جدرانها، ونبتت

بأرضها نباتات صبار ضخمة بلا جذور، كنت أقتلعها بسهولة على الرغم من مظهرها الوحشي، وكنت أجد الطريق لنفسي لعبور آمن، لم يتطلب الأمر أكثر من تدريب نفسيٍّ، وكان لا بد لعقلي أن يستدعي التفاصيل البعيدة ويسكبها على الأوراق لتحريرها من الأمس البعيد؛ فسجنها يربك واقعي ويفسد إدراكي لكينونتي، ويمحو الاسم الذي يبهجني رسم حروفه فوق شواخص الأوراق؛ فيهدر كموجة تدرك أن للبحر ثورة حين يوجعه السكون.

عيناي تتفقدان بفضول بياض الصفحات، تفتشان، أزداد توترًا كلما انسكب الحبر بين السطور، أتوجَّس قلقًا لإدراكي أن القادم سيكون سيرة ذاتية لن أعلن أنها لي، لكنها لباليرينا بمسرح عبثي؛ لذا فكل ما سيرد على ألسنة أبطالي وبطلاتي غير قابل للشرح ولا التبرير،

لكن ما زالت تربكني النهاية، وأخشى أن أضع خاتمة مفتوحة كالتي يفتعلونها بفيلم رديء، وربما تكون الأقرب لاحتياجي.

***

في آخر اجتماع لنا، استعرض «ناصر» التحقيق، وأشاد بالجهد المبذول، وأوضح لِمَ كان عليه أن يُفرد له ثلاثين صفحة منفصلة بشكل ملحق، كان في ابتسامته وعد أكبر من المكافأة المالية، أصدر قرارًا بأن أكون نائبة القسم الثقافي، الذي يترأسه «ضياء الحسيني»، أصبحت أحدد بشكل غير مباشر الموضوعات الصالحة للنشر والأخرى التي لا تستحق عناء القراءة، أصبحت بعدها مسئولة عن صفحة أسبوعية ثابتة، مرت أسابيع بعدها، وحررت تحقيقات أخرى وظل تحقيق فلسطين بداية لأحلام كثيرة ممكنة، أهديت نسخًا من العدد لـ«أم زياد» وأخريات، كن نساء من

فولاذ، دعمن وجهة نظري بخصوص ألواح «الإردواز» وما يمكن نقشه بها.. بعض الأمور حين تحدث لا يمكن وقفها أو إبطاء ما يليها من توابع، وعند حدوثها لا تملك إلا أن تشكر القدر لمنحك إياها، مثل رحلتنا تلك.

كنا قد وصلنا إلى رفح المصرية، وهي آخر مدينة على حدود مصر الشرقية، وبها معبر رفح البري، ومنها دخلنا رفح الفلسطينية، كنا ثلاثة، أنا ومنعم الجبالي ومازن إياد، وهو ابن لأب فلسطيني استُشهد مع أخوين له بإحدى الغارات الشرسة على القطاع، كنا باستضافة جدته لأبيه لخمسة أيام هي عمر الرحلة التي تمنيت ألا تنتهي، دعمتنا الجريدة بكل ما يمكن لتسهيل مهمتنا من سيارة وآلات تصوير ومعدات صوت وتأشيرات مرور، لبسنا السترات المدون عليها بالإنجليزية كلمة «برس»، كنت

سعيدة لدرجة أن انتابني شعور كما لو كنت أبدّل جلدي، وكنت على يقين تام بأن تلك الحياة التي اخترتها ربما تكون أجمل من بلورة ضوء تلمع في عيني عند البكاء، كنت مرتاحة كمن تركض للشفاء من مرض عضال، باتت الأشياء التي تذكرني بهم مجرد جدار عازل يفصلني عن بقاياهم، لا شيء يؤرق ضجيجهم غير أنفاسي الهائمة، قررت أن أحيا لأكتب نهايتهم وأنثر رمادهم للعدم، بما فيها تلك التي تحمل اسمي مقترنا بأسمائهم، وتاريخ ميلادي وبرهان ثبوتي، وفصيلة دمي ولون بشرتي وعينيّ.

مشاعر مختلطة ما بين شغف وقلق عندما اختفى العمران، وحل مكانه اللونان الأصفر والبني بتدرجهما ليخترق الرتابةَ النخيلُ الكثيفُ بخطوط متعامدة، عبرنا المنفذ الحدودي بسهولة، نصف ساعة من السير المتواصل حتى لاحت نقطة تفتيش تحاذيها يمينًا

لافتة تحمل عبارة «إبراز الوثائق للفحص». وقفت السيارة أمامها مع اقتراب الغروب، قال «مازن» إن دخول رفح أصبح أمرًا يسيرًا عن ذي قبل، وإن النقاط الحدودية سُلِّمت بالكامل للسلطة الوطنية الفلسطينية، وتحديدًا لجهات أمنية تتبع حركة حماس بحلول فبراير 2005 من ضمن خطة وضعتها الحكومة الإسرائيلية تحت اسم «خطة فك الارتباط الأحادي»، وتقضي بإخلاء المستوطنات الإسرائيلية من قطاع غزة وأربع مستوطنات أخرى متفرقة، تم الإخلاء قسرًا على الرغم من تعهد الحكومة الإسرائيلية بتعويض المستوطنين وإعادة تسكينهم، بعدها بدأت الاحتفالات بالقطاع، خاصة في الأماكن التي كانت عليها المستوطنات، شملت أعمال تخريب وحرقًا كاملًا لكل ما تركه اليهود، حتى دور العبادة. كانت نقاط التفتيش الحدودية قبل هذا الوقت خاضعة للسيطرة الإسرائيلية

مع رقابة دولية، من الطبيعي جدًّا حينها أن تنمو مخاوفك في حال قررت زيارة القطاع، وعليك أن تتأهب لهذا الفوران الداخلي، وأن تستشعر زيادة إفراز الأدرينالين بخلاياك لمجرد أن تصدمك وجوه الصهاينة الكالحة، من المتوقَّع مثلًا أن نجد بنقاط التفتيش ما لا يقل عن سبعة جنود إسرائيليين بينهم مجندة أو اثنتان بالسحنة نفسها، الكل يحمل على كتفه بندقية مذخَّرة مستعدة للإطلاق، كان التفتيش يجري وقتها بشكل أميل للامتهان، فعادة ما يدفعون الركاب للخارج بشكل فج، فيخضعون لتفتيش دقيق، كذلك السيارات، في النهاية يجمعون جوازات السفر ليفحصها ضابط برتبة مقدم أو عقيد، وليس من المقبول أن تشكو حرارة الطقس حين يتركون السيارة تحت الشمس لنصف الساعة أو أكثر لحين التأكد من صحة الأختام.. وعلى الرغم من كل ما قاله

وجدته أمرًا لو حدث حينها فهو جدير بالمخاطرة، مررنا بسهولة عبر نقطتي تفتيش متتاليتين، تركونا بعد فحص هوياتنا لنمر بسلام، قدنا لمسافة كبيرة قبل أن نصل إلى حدود المخيم، وكان الظلام قد حل، لمحنا الأضواء بعيدة على الامتداد في تدرج عشوائي، نبهَنا «مازن» لإمكانية سماع دوي قصف بين حين وآخر، قال فيما يشبه الدعابة إن أصوات القصف هنا بمثابة موسيقى تصويرية تصاحب الحياة اليومية لسكان المخيمات، حتى المشاهد الجنائزية المهيبة بالطرقات ما هي إلا طقوس ثابتة.

كانت الصورة متكررة تقريبًا، بيوت من دور واحد أو دورين تعلوها انواع من أطباق الساتلايت، وتقطعها شبكة كبيرة من الأسلاك الممتدة وتخص الفضاء السبراني، تفصل بينها ممرات ضيقة وتحيطها جبال تنفرج عن سهول شاسعة تنتشر بها مراعي الغنم،

كلما تقدمنا بالسيارة تبعتنا أعين الأهالي بفضول لتشير أصابعهم بعلامة النصر وليبتسموا بثبات آلهة لا يخيفها المجهول، ما إن اقتربنا من مخيم الأمعري جنوب مدينة رام الله حتى اكتشفنا أننا على بُعد خطوات من أيام وليالٍ مفعمة بعبق فلسطين؛ فالزعتر والميرمية والخبيزة تفوح روائحها في كل مدق وزقاق، والبيوت مزدانة بخارطة فلسطين والكثير من صور الشهداء، تنبعث أيضا من الداخل رائحة المسخن المعجون بزيت الزيتون والسماق، والمفتول المغزول بأيدي الجدات، أما القهوة بالهال فكانت تحية واجبة، ومن دون موعد تسبق جلسات السمر الممتدة.

بدت صورة لأناس حصَّنوا أنفسهم بالتكاتف لمواجهة مأساة مريرة، هناك دومًا ستلتقي الآلام ممزوجة بالآمال، والجراح تداويها الأفراح، والأشجان تتدافع كلها مجتمعة لتحتل روحك النهمة

للمعرفة، هناك ستلتقي أطفالًا اكتشفوا الألعاب التي كانت لآبائهم وأجدادهم يومًا، وهناك أطفال لم يعرفوا الألعاب والدمى التي يعرفها أطفال العالم فكبروا قبل الأوان، هناك كل شيء ونقيضه، فالحياة دوما مهداة للعدم، والموت مجرد إشارة لميلاد جديد.

استقبلتنا جدة «مازن» بابتسامات رائعة، عانقتها وجمدت مكاني، ما إن وجَّهت نظري للجدار حتى فاجأتني قطع من الملابس مثبتة عليه كشواهد للمجزرة، ملابس ممزقة يكسوها الدم، كنا نتبادل الكلام وعيناي مثبتتان بصدر قميص، بقايا بنطال، أو حذاء رجالي متهرئ، كنا من عالمين مختلفين، لفتت نظري أوعية الصبار على الحافة، لم تكُن غير قنابل فارغة مملوءة بالطين وتداعب حوافها أزهار الصبار. كانت امرأة ثمانينية صلبة وقصيرة القامة، تفوح منها رائحة ذكية.. أحسست بأصابعها تتحرك بين

كفي، تضغط عليها وتتركها ثم تضغط من جديد، تلك طريقتها في الكلام، ربما ودت أن تخبرني بأشياء عجزت عن قولها الحروف.. كان الموقف ملهمًا، وكان الأحفاد يلعبون بالخارج ويعودون من وقت لآخر وبأكفهم أشياء صغيرة.. معظمها أنواع من الحجارة، كانوا خمسة أولاد وبنتين، لفتت نظري «أروى»، بنت السنوات السبع، حملت ملامحها نوعًا من العدائية لدرجة أنها أمسكت بعصا وزعمت أنها قنبلة، قالت بينما تكز على أسنانها:

– لو كان مع أبوي بارودة، لطخ كل الجيش.

ابتسمت بينما أتابع المرأة العجوز تتجه ببطء للدرج الخشبي، تسلقته بخفة دمية مخفية الخيوط، اتجهت للمطبخ وغيَّبتها الجدران.. عدت بظهري للوراء، تساءلت: كيف توقف بي الزمن هنا؟ فكرت بأسماك الحوض ونبتات الشرفة وقطط المسقط

الجائعة، فكرت بالثمانينية صاحبة التجاعيد المعقدة كشبكة صيد، ورجال بطنها الثلاثة.. فكرت بأمي وسنواتها الخمسين ورجل بطنها الوحيد.. هالني الفرق، ثمَّة حصاد آخر لم أفكر فيه.. شيء أكبر من المعجزات، ثمَّة صبر ينحت البشر هنا غير عابئ بالبارود ولا بالدم، بدت جُمَلُهن التقليدية بعالمي مجرد حروف سخيفة مكررة؛ فلم يكن الحزن فعلًا كفيلًا بكسرهن، باتت الظلال الرمادية لرجل الصورة على الحائط أكذوبة كبرى، وبدا كوني كله غرفة آسنة كبحيرة في غيبوبة، بينما غرفة الجدران المثقوبة عالم متسع يغازل الفضاءات.. قدمت لنا حليبًا طازجًا وخبزًا معجونًا بزيت الزيتون والزعتر وطبقًا من عسل النحل وبرتقالًا.

بعد العشاء، اقتادتني لغرفة جانبية حوت فراشًا يقابله جدار تتوسطه خزانة بلا باب، فقط ستارة ثقيلة حجبت محتواه، مدت

يدها وسحبت غطاءً ثقيلًا ووسادة احتياطية. كانت الخزانة تحوي دُثُرًا وأغطية ويبدو أنها صُنِعت خصيصًا لهذا الغرض، بالغرفة منضدة تناثرت عليها علب ألوان ورسوم لشخوص تحاكي صورًا على الجدران وكتب كثيرة للأحفاد. قالت إن الطابق الثاني عبارة عن غرفة نوم وغرفة أخرى متسعة تُستخدم لأغراض شتى. وجدت بها حشيات أرضية من القطن تُستخدم للجلوس، ومساند محشوة من القطن اليابس ليُتكأ عليها، توسطت غرفتي، كما الغرف الأخرى، مصابيح صفراء تشاغب الظلمة بعذوبة، لم أمنع الضوء عن مصباح غرفتي حتى الصباح، كانت ليلة مشحونة بالتفاصيل والتعب، على الرغم من دفء الغرفة تسللت الوحشة لروحي فأدرت التلفاز وظللت أتجوَّل بين القنوات حتى بزوغ النهار، بمجرد أن أسلمت جفني للنعاس سمعت طرقًا خفيفًا على الباب،

كانت هي، ارتكنت للفراش وأجبت، دخلت مسرعة وبين يديها خمار مطرز برسوم من الطبيعة غاية في الرقة وقطع أخرى مطرزة برسوم هندسية من قماش الخوج والإيتامين.. كانت الألوان مبهجة، وفي الغالب تميل للأحمر بدرجاته.. أهدتني تلك القطع كلها وثوبًا رائعًا قالت إن تطريزاته تشبه تلك التي حاكتها بثوب زفافها. لذا فهو المفضل والأثير، كل شيء هنا مختلف وحيٌّ، حتى أثواب الأعراس، نسوة فلسطين لا يرتدين غالبًا ثيابًا بيضاء من الدانتيل بحفلات الزفاف، لكنها أثواب مطرزة يدويًّا بالكامل يمكن أن تبدأها الفتاة بسن صغيرة لتنهيها بالكامل بسن الزواج؛ ولأن تكلفة شراء الثوب الفلسطيني عمومًا مرتفعة فإن النساء يعمدن إلى استئجاره في مناسباتهن.

في فلسطين، ليست الثياب مجرد أقمشة مبهجة، ويقال إنه كان

بإمكان من يوجد في سوق من الأسواق القديمة، حيث تتجمع النسوة من جميع أنحاء فلسطين، أن يميز المناطق التي ينتمين إليها بمجرد النظر إلى أثوابهن، كانت النسوة لا يميزن المناطق المختلفة فقط، بل تتعداها المعرفة إلى التمييز بين قرية وأخرى بعد أن يتفحصن الرسومات وطريقة تنسيقها على الثوب، تلك الرسوم كانت دليلا مهمًّا لهوية القرية، تحفظها المرأة جيدًا، وترث المعلومة من أمها وجدتها؛ إذ إنها تبدأ بتعلم فن التطريز من سن مبكرة حالما تتمكن من الإمساك بالإبرة، وتتغرس فيها منذ طفولتها.

كان من المهم جدًّا، من خلال تلك الرحلة على الأقل بالنسبة لي، رسم بعض الخطوط الأساسية لملامح الشخصية الفلسطينية، خاصة للمرأة؛ فالمكان هنا يضج بطاقة عجيبة هنَّ سرها، ويكفي

أن تتفحص علب خيوطهن وكم الألوان التي تحتويها لتدرك أنهن يرسمن الحياة ويشكلنها بقدر ما تشكلهن.

في المساء، جاءت الرفيقات من الجوار، وتحدثن عن ذكرياتهن الخاصة بفترة التهجير، لم يختلفن عنها شكلًا ولا روحًا، وإن كانت لكل واحدة منهن تجربة منفصلة تستحق الرصد، تكلمن بعفوية لا تلائم حجم الألم الذي عانينه ولا كم الخسائر التي ما زالت تلهب الروح. حكين عن فترة ما قبل النكبة بكم من الصلابة غريب.. دوَّنت الشهادات بلهجات صاحباتها كما وعدتهن، أكدت لهن ذلك وقت أن أهدينني مفهومًا جديدًا عن النساء، ظهر جليًّا بكلمات «أم زياد» التي استضافتنا ببيتها بمدينة بئر سبع:

– عنَّا النسوان بتشتغل مثل الرجال وزيادة، عنا ما فيه كسل، متعودين المرا تشتغل مثل الزلمة، تروح مع جوزها ع الأرض، ما

في حدا يترك أرضه، كان عنّا نسوان لبانات، اللي كان عنده معز أو بقر وبدو يبيع حليباته كانت النساء تروب الحليب وتحمله على راسها وتروح على عكا تبيعه.

تكلمن عن المساعدات الإنسانية التي قدمنها للاجئين، سارعن إلى تأمين المأوى والطعام لهم، كن يذهبن مسرعات عبر الدروب والحارات، يقهرن الخوف بينما يسلكن مساربها الخفية، خضن في الطين، عبرن الجسور واجتزن أكوام القش، لم يتوقفن إنما تحركن بخفة طيور تخشى لمس الأرض، غريب أن يفعلن ذلك كله بأجساد ضئيلة تغذت على القليل من الطعام.

تحدثت جارة لها، واسمها «نديمة»، عن تجربتها المعاصرة للنكبة، حكت كيف هيأن الكنائس والمساجد للنوم، وكن يطهين أنواعًا من الأطعمة، ولم يميزن بين صغير وكبير.. قطع حديثها دخول ابنتها

وبين يديها صينية تعلوها كئوس من القرفة.. على الرغم من صغر سنها كانت عيناها تنضحان بالخجل، وضعت الصينية وانصرفت، لا أدري ما الذي حدث فجأة، شعور بالغربة تسرب إليَّ، فجأة صرت غريبة لا تنتمي لأي شيء، لا لأسرة، لا لجماعة، لا لفكرة.. لا لشيء أبدًا، نظرتُ في أعينهن وداهمتني رغبة قوية في البكاء، هل يمكن أن تكون رحلتي تلك بداية للبحث عن ذاتي المفقودة؟ هل يمكن أن أسترد معهن بعضًا ممَّا خسرت؟ هل يمكن تجاوز الماضي بندوبه وصوره المرهقة لتحل محلها صور أخرى لعالم أكثر رحابة ونسوة أكثر قوة؟ من المؤلم فعلًا الربط بين عالمين يستحيل المزج بينهما لانعدام التشابه، أو أن يكون الأول معبرًا للثاني من دون وجع الانسلاخ، أو أن تتواجه شخوصهما، كل ونقيضه، في نزال صريح حتى ينتصر الحق، بدا

الباقي من الوقت مساحة مختنقة لن تمتلئ بالأحلام المجهضة كلها، كان من السخف أن أفكر في هذا كله لمجرد أن ودَّعت، بابتسامة، الفتاة وقت أن انصرفت مشبكة ذراعيها فوق صدرها بخجل.

ناولتني «نديمة» كأس القرفة وأردفت:

– كنا واعين لما الطيارة إجت ع الساعة خمسة، هاي الغارة تضرر فيها كتير، قمت أركض، ياما ولاد ماتت وهي طالعة مع أمهاتها، اللي كانت حاملة ولدين وتلاتة، وحاملة ملابس وأغراض، كيف بدها تدبر حالها؟

بعد ساعة كانت الغرفة ممتلئة عن آخرها، والأغرب أن اتسعت الأمسية لكل حكاياتهن، لم تكن ليلة عادية بالنسبة لي؛ فالأمور التي وجدنها بسيطة متشابهة كانت بالفعل عظيمة وفارقة، والموت

الذي يرهبنا ويدمي قلوبنا يستقبلنه كعرس، والأشياء التي نفترض أن تقتلنا تشد من عزائمهن، تذكرت مقولة جدتي بفراش مرضها « الموت وسط الناس رحمة»، استشعرت قيمتها وما ترمي إليه وقت أن سرت بثقة، وسط الناس بالسوق، كتفا بكتف، أتشمم روائحهم، أتنصت لأوجاعهم، أدقق بملامحهم، وأفتش عنهم بأشيائهم، تخيلت لوهلة ساحة السوق المكتظة لو قصفت بصاروخ، تعاطفت مع هؤلاء المتزاحمين على الخضر واللحم المجمد برغم رداءته، والباحثين عن كسرة خبز يومية، والمودعين والعائدين، وزعت الحلوى على بعض الأطفال، واشتريت من بضاعتهم، أمشاطًا من الكبريت، ثلاث علب سجائر، قطعا من اللبان، لوحًا من الشوكولاتة، بعض الخيوط والأزرار، وشمعتين وعلم.

استمعت لنسوة الحوانيت، اكتشفت أن التراث الفلسطيني لم يتجمَّد،

بل امتد للثقافة الشعبية، كن يحفظن أغاني كثيرة، وظَّفنها لتعبِّر عن مشاعر الغربة والفقد التي تغلغلت إلى أبسط تفاصيلهم الحياتية.

التمعت عينا «أم زياد»، وكانت تغني بصوت مبحوح، وترسل النظر لصورة على جدار استشهد كل شخوصها:

- «والصبر يا مبتلي والصبر يا أيوب..

والصبر جبتو معي لينمحي المكتوب..

والصبر جبتو معي من يوم هجرتنا..

وحجارة الدار يا يما بتبكي ع فرقتنا».

بالليلة قبل الأخيرة احتفين بي، جلسن ليخبزن أنواعًا من الحلوى أهدينني منها الكثير، كن يضحكن بملء القلب والروح، كانت الجدران نفسها تضحك، وكأن الزمن قد نسي حينها تلك البقعة من

الأرض، مرَّ الوقت حنونًا هانئًا، أوشكت أن أنسى كلام «مازن» عن ليال يقطع القصف سكونها، وعن طائرات لن يرى القاصفون منها غير أضواء المخيم كفزاعات.

صباحا، مازحته متندرة بهدوء الأجواء وكنا في طريقنا لشراء بعض التذكارات، سألته عن السر؛ فرد ساخرًا:

– باتمنى لو كنتِ شاهدة على عملية قذرة لجيشهم، أو غارة بتستهدف القطاع، وقتها بس كنتِ هاتسألي نفسك: أنا ليه هنا؟ وباعمل إيه؟ مش يمكن الموت اللي جابني عشان اموت في المكان ده تحديدا، غريبة في أرض غريبة؟ وقتها بس هتعرفي المعنى الحقيقي لكلمة فزع ، ويمكن تعيدي حساباتك من جديد.

– معنى كلامك ممكن نكون مستهدفين؟!

قال بالوجه الضاحك ذاته:

– ليه لأ، طبيعي جدا، الموت هنا مالوش قاعدة، ومالوش وقت، كل حاجة متاحة، ومن غير مقدمات، واللي مؤمن بالقضية بيخرج كل يوم من بيته وعينه مرفوعة للسما، وصدره مفتوح للرصاص.

من دون قصد كنت اتلفت حولي لأتاكد من هدوء الأجواء، وكأنني التقط براداري ما يعين على استكمال آخر ساعات الرحلة بسلام، حينها التقط إشارة قلقي فقال مطمئنا:

– ما تقلقيش، فيه هدنة مؤقتة ولا بد من احترامها، في الأوقات العادية بين فترات الهدنة ممكن يبدأوا بتصعيد جديد، ببساطة شديدة ممكن يستهدفوا شخص من غير سبب لمجرد أن شيطانهم أمرهم.

نكست رأسي أفكر في الكلام وقبل أن تعبر السيارة مدخل السوق، استوقفتنا دراجة بخارية يقودها شاب اسمر يضع الكوفية

الفلسطينية ويرتدي الجينز وحذاءً رياضيا خفيفا؛ ليسألنا إن كانت لنا رغبة باستئجار قارب ببحر غزة لاصطياد السمك، هززت رأسي بالنفي، وأنا انظر بعيدًا غير منتبهة للكلام، لكنني ما إن فكرت حتى عدت لأسأل نفسي إن كان يمكن أن نفعل مقابل بعض الصور، عندما سألته أجاب بنعم قلت: لنذهب. كانت المرة الأولى التي أرتاد فيها قاربًا صغيرًا بمياه محظورة جزئيا، ليصبح مصدر الرزق للصيادين مرهونا بفترات التهدئة.

كان قاربًا صغيرًا يحتمل اثنين إضافة للصياد وابنه، مد يده الخشنة ليلتقطني، فاهتز القارب لبرهة ثم استقر، كانا مشرقين برغم كل ذلك، وبرغم ما فيهما من تعب، كان حديثهما تلقائيا لم تنقطع فيه الإشارة للقوارب التي دمرت كليا بقذائف البحرية الإسرائيلية، فأصيب أصحابها أو قتلوا، جريء هذا الموت الذي

يركب الأمواج ليحارب الناس في قوتهم، كانت المساحة المسموح بها للصيد لا تتعدى ثلاثة أميال بحرية، ومن بعدها يبدأ القصف العشوائي، وبدون سابق إنذار. لا أعرف السبب الذي أضحك الصياد في المرة التي سرد فيها حكاية زميله الذي فقد ساقيه، وما زال يواصل الصيد بنصف جسد. لم يبد الأمر مضحكا لي لدرجة إصراره أن يتجاوز المسافة المسموح به لعدة أمتار ليثير ضيق جنود البحرية. قال: أقسمت عليه برب البحر ألا يفعل؛ فقذيفة أخرى كفيلة بتمزيق الخمسين سنتيمترًا الباقية منه، اجتررنا مرارة الضحكات، وعدنا بالكثير من الصور والسمك.

التقيت قبل رحيلي بأم الطفل فادي العجل وأم الطفل أحمد أبو رداحة، وروتا قصة قتلهما بدم بارد بقنبلة ناسفة وضعها جنود الاحتلال في المخيم، وكيف ظنَّاها لعبة، فانفجرت بهما، وادعت

قوات الاحتلال فيما بعد أنهما كانا يعدان عبوة ناسفة.

كان تحقيقًا إنسانيًّا يترك أثرًا بالنفس، شيء خفي يعجز عن البكاء لكنه يأخذ بالتلابيب، فلا تملك غير أن تحلم لهم بقيامة جديدة تناسب صمودهم، تلائم انتظارهم الطويل، ويظل يزعجك هذا الهاجس؛ فالشهداء لن يكونوا أبدًا وقتها هناك، لم أجد ما يماثل تلك الحالة، أعادت بعض التوازن لي، وربما بعدها بأيام لم أخفِ شعورًا بالفقد ظل يلازمني، تفقدت ما أهدينني من ثياب مدهشة وقطع مطرزة ردتني لمفرش أمي بفراشاته الزرقاء، أهدينني أيضًا زيتونًا وخبزًا وأوراق زعتر خضراء وأُخَر يابسة، لكن الأكثر من ذلك تركن وجوهًا يتخللها التاريخ بوشومه ورؤوسًا اكتست بالشيب، ولم أجد غضاضة في تقبيلها، وحكايات كثيرة وصورًا لأعزاء على الجدر وفارقوا.. بعدها كتبت مقالًا عن الحدود، كان عنوانه

«مسافات مقبضة».

***

لم يكن أمامي، بعد أن عُدتُ، خيار آخر غير أن أذوب بحوض الماء كفقاعة أو أنزوي بأحد دفاتري، تمنيت لو أختفي بأحد جيوب معطف المطر فلا يراني أحد، أغلقت هاتفي وعطلت ساعات البيت، أوصدت الباب، جلست خلف مكتبي أحتسي القهوة، أمسكت بقلمي لأكتب عن مسافاتنا المقبضة، تلك التي لا تتسع لأكثر من خطوة، ربما لو اتخذتها لانفجر لغم بك، أو لعلقت بشَرَكٍ.

مساءً لُذت بغرفتي فجافاني النوم، ظللت أحايل أرَقي، وأقطع المكان جيئة وذهابًا، فتحت النافذة لأشاهد الشارع الممتد وقد خلا من الناس وأعمدة المحال، وقد خلت من العوارض والقواطع

الخشبية. لم يعد يبدد السكون غير مواء القطط ونباح الكلاب، نسمة باردة تسللت خلسة فاقشعر جلدي، أغلقت النافذة منتظرة ولوج الصباح، تُفتُ لمكالمة اعتدتها منها بجوف الليل لتخبرني أننا في الليل شريكتان.

غياب «غيداء» ضاعف وحدتي، مكالماتها الأخيرة أفصحت عن سوء أحوالها، كانت أمها تمر بأسوأ مراحل المرض، وكانت ساعاتها تنفد تباعًا، ضاعف خروجها المؤقت من الصورة من إحساسٍ متنامٍ بالفراغ على الرغم من انهماكي بالعمل، وأصبحت نوبات الصداع تلازمني كقرينٍ، وأصبحت كغريق يستجير بآخر الأنفاس.

كل ما أفعله يزيد ارتباكي، أفتقد أشياء لا أعرفها، وحين أعجز عن إيجادها أتناول السوشي، أحتسي الشوكولاتة الساخنة وأظل

غير راضية، يجافيني النوم فأشاهد فيلمًا بالتلفاز ويزداد الأرق، أشتاق للقراءة فأطالع «أنا لست لي» لـ«درويش»، ويغتالني الشجن، أزهق أنفاس وحشتي بالناس والشارع؛ فتسحقني دوائرهم المشتعلة لتلتهم دائرتي المنهكة، توتر غريب يشبه موجة تحت سطح خامل، تتوالى الترددات وكأنها تمهد لبركان، تبدأ برعدة تكاد لا تحس وتنتهي بتنهيدة ضجرٍ طويلة، أقفز على أثرها من الفراش إلى المرآة. أتجاوز كل ما بينهما، أنزع دبابيس الشعر، أتركه بشكل عبثي، أضع كثيرًا من الكحل وطلاء الشفاه.. أتعطر.. أدير مؤشر الراديو.. أشاركني مرحًا مرهقًا لا يناسب حالتي.

20

ربما كانت هي، ربما تشبهها، دققت النظر.. كانت تنقر زجاج السيارة بإلحاح وتتوسَّل مساعدة.. كأنني أعرفها، بشرتها السمراء وعيناها اللامعتان، مدت يدها وكانت تقبض على روشتة زرقاء مهلهلة كالتي يتداولنها في مواقف السيارات والإشارات، بدت ملابسها متسخة وأطرافها سوداء نتيجة المبيت في الشارع لأسابيع من دون أن تقربها المياة، كنت في العادة أمنح مثيلاتها ابتسامة رقيقة وورقة نقدية، وربما ما تبقى من ساندويتش الغداء، لكن معها الأمر مختلف، ترجلت من السيارة، انفرجت شفتاي عن ابتسامة:

– «مريم».. انتِ «مريم»؟!

حين تأكدت مني كادت تهرول، لولا زحام الإشارة لانسابت بين السيارات، قبضت على ذراعها فالتفتت وبوجهها ظهرت مسحة حزن.. تراجعت نصف خطوة للوراء بينما ترفع بصرها نحوي،

فكرت لحظة قبل أن ترد: «أيوه.. أنا»، راحت تنفض الغبار عن ثيابها وتضبط منديل الرأس بارتباك..

– كنت حاسة إني هشوفك.. قلبي دليلي.

ضممتها، لم يثنِني اتساخها ولا الندبة الغائرة فوق الجبين، تعالى نفير السيارات معلنًا فتح الإشارة، وكانوا جميعًا يحدقون بنا، فتحت الباب بتردد، واندفعت للداخل.. كانت تتعمد أن تفقد تواصلًا بيننا، أشاحت بوجهها خارج النافذة، هبط على قلبي حزن مفاجئ، سرحت ببصري لحظة قبل أن أقول لها:

– تعالي معايا، ما تخافيش.

تفرَّست بي وكأنها تتعمد أن تذكرني بما حدث، خلتها تقول أنا «مريم».. كنت ابنة «سعيد» قبل سنوات.. والآن ابنة الشارع فحسب، سادت لحظات صمت ثقيلة، تذكرت القصة التي أهديتها

لها قبل سنوات، كانت عن ذئب يتربص بثلاثة حملان.. اعتقدتها تعرف الآن عن عالم الذئاب ما يكفي لملء ثلاثين كتابًا، قررت أن أضمها لنادي لاجئي الوجع.. وكأن شقة روكسي ملاذ لكل مساكين الأرض.. هكذا يحدث الأمر طِبْقَ تسلسل منطقي.. وجبة ساخنة.. حمام منعش وبعض ساعات من النومِ المريحِ، لا بأس بقدر متزن من الثقة كرغبة في الانتصار للإنسانية على جميع المبررات الواهية والأنانية الوضيعة، لمحت اشتعال عينيها بالفضول، على الرغم من تحفظها؛ فاستبدَّت بي طاقة غريبة لم آلفها من زمن، جعلتني أصر على ما انتويت، ظلت طيلة الطريق لا تبادلني النظرة، كانت تمط شفتيها وتزمهما بخجل، سعلت أكثر من مرة ولم يكن لوجهها أي انفعال، لا ملامح مميزة كالتي عرفتها في السابق، ثمَّ شيء ثقيل جعلها تبدو كدمية بمتحفِ شمع، كنت

أقرأ تفاصيل وجهها المنهك بلا أحلام ولا رخصة لممارسة النوم بلا أرق ولا كوابيس، حين وصلنا توقفت بالمدخل.. تأملت غرفة السلم.. تحسست الباب.. تسللت أصابعها لبقعة محددة بالجدار، كانت رسمة مصغرة لرجل قصير يقبض على أنامل طفلة بجديلة واحدة.. حين اقتربت لأتفقد الرسمة وجدت وجهها حزينا خائفا، وفي عينيها دمعة متحجرة كصخرة عتيدة، رفعت أصابعها عن الجدار، انهارت وبكت، سبقتها للسلم، كانت تتسحب خلفي، دخلت الشقة مرتبكة بعد أن خلعت الحذاء، جلست على حرف الكرسي مشبوكة اليدين، تبادلنا حديثًا ذوَّب من ضيق اللحظات، ارتسمت على ملامحها ابتسامة، تركتها لبعض الوقت، عدت لأمنحها طاقمَ نومٍ قطني وفستانًا وحذاءً رياضيًّا مسطحًا، رغَّبْتُها في الاستحمام؛ فغابت قرابة نصف ساعة وخرجت وقد بدت عليها آثار الاغتسال،

كانت نظيفة بعطر فواح.

طلبتُ لنا وجبة.. التهمت نصيبها منها على عجل وتركت لها نصيبي، أوحى تعبير وجهها بعدم اكتراث، فبداخلها جوع للحياة أكبر من ضجيج معدتها الفارغة، لمع بمقلتيها فرحٌ بينما تقطعان أرجاء الصالة لتتعلقا بالشرفة، تسللت وانزرعت وسط النباتات لتتشمم عطر الياسمين، بدت كقطة تلتقط بالغريزة عالمًا كانت تعرفه، استكانت ككائن بري حذر يترقب شَرَكًا لصياد، حكت عن أشياء توقعتها، طمأنتها بأنني أعرف وأدرك وأصدق وأتعاطف؛ فلا تظنني كائنًا غافلًا عن عذابات الحياة، منحتها ورقة وقلمًا وتركتها ترسم أحلامها فرسمت طائرًا بالسماء وقطة ورغيفًا مستديرًا.

أوحى الفرح المستتر الذي لفَّ المكان بأن به ما يستحق

التصوير.. فاتخذت أوضاعًا كثيرة: عبست، قطبت حاجبيها، مدت لسانها، انفرجت شفتاها عن ابتسامات مدهشة، تربعت، تمطت، استكانت.. قضت ساعة أمام التلفاز.. بالنهاية احتضنت الوسادة وظلت لوقت تقاوم النعاس، دعوتها لتنام بجواري فجاءت متباطئة، مددت يدي ومسدت شعرها فأطرقت بخجل، كان وجهها باردًا تمامًا كجسدها، جذبت عليها الغطاء؛ فاطمأنَّت وظلت عيناها تراوغان، حدثتني عن صويحباتها في الشارع وعن مناطق النفوذ لقطيع الذكور، حكت عن جنين فقدته منذ عام، وعن مضاجعة ليلية تهبها طواعية لمن يضمن لها ليلة هادئة بلا اعتداء جنسي عنيف، قالت إن لقاءها بهم يختلف عن لقاء صهر ابن الوزير؛ يشبه لقاء حبيبين افتقدا الجنس لسنوات، لم تعد تستطيع العيش سوى في الشارع، قضت أكثر من شتاء بعربة قديمة لقطار، بدت

السماء من النافذة أرحب بكثير.. بكثير جدًّا، تروقها فكرة النوافذ المفتوحة مساء لطرد الأشباح القديمة، تستسلم حينها لرغبة تدفع عنها البرد وتقودها للنوم حتى الصباح، غفوتُ بينما نتكلم وأفقتُ لأجدها مضطجعة على جانبها بجوار الفراش غارقة في النوم.. في تلك الليلة نمت نومًا عميقًا بعد أن أغلقت هاتفي المحمول ورفعت سماعة الهاتف الأرضي.

أكثر ما آلمني حين استيقظت كان ذهابها بلا وداع، واختفاء قرط أمي، وكنت قد احتفظت به بدولاب ملابسي، لماذا اضطرت أن تفعل ذلك وكنت سأهديها خاتمًا في الصباح؟! اختلط ذهولي بإدراكي الساخر لطبيعة البشر وأزمات الثقة.. فهكذا دائمًا تنتهي الأشياء. ارتسمت بوجهي بسمة واسعة، ولا أدري لماذا قررت القيام برحلة لأي مدينة ساحلية لأنفرد بنفسي بعيدًا عن الكتابة والناس

وعن كل شيء.

***

صباحًا انفعل «ناصر» ونعتني بالمجنونة حين أخبرته عن السرقة، وأسمعني ما كنت في غنى عنه من تأنيب، ذكَّرني بالمصير الأسوأ الذي غالبًا تتلقاه مثيلاتي من حسناتِ النية في حال قررت صديقتي من الشارع نحر عنقي أثناء النوم.. ازددت ارتباكًا لكنني زجرته حين قرر اصطحابي لقسم الشرطة لتحرير محضر بالواقعة، وحين فشل في إقناعي أمرني باتخاذ كل التدابير اللازمة لتأمين الشقة، لجزء من الثانية انتابني القلق، ولكنني بالنهاية قررت الكتابة عنها من دون ذكر السرقة، والاكتفاء بالإشارة لها بأول حرفين من اسمها (م. س)، وكما وعدتها بنشر لوحتها حتمًا كنت سأفعل، اخترت عنوانًا لطيفًا للمقال وكان «قطة

ورغيف». دعوت الله أن ألتقيها من جديد لمنحها نسخة تحتوي صورها الفوتوغرافية ورسومها علَّها تبتهج.

بنهاية اليوم، قدمت طلب إجازة لأسبوع، أملت الذهاب لمدينة توطنَها النوارس وشباك الصيد، لم أرغب بغطسة عميقة لاصطياد لؤلؤة بحجمٍ نادرٍ، ولكن أكثر ما انساب لإحساسي رائحة اليود، وسماء قرمزية بعيدة، ومشهد كلاسيكي للموج ينشطر على الحافة، تعجبت لحقيقة أنني لم أصور مشهدًا للغروب بكورنيش الإسكندرية، وقبل أن أُحلِّق بخيالي للبعيد، فاجأتني دعوة «ناصر» لحفل بفيلته بالهرم على شرف صديقه المغترب، وبدء شراكة بينهما، ظل الحفل شاغلي الشاغل طيلة المساءِ بعد تفقد النوافذ وظل فستان السهرة الذي سأرتديه يومها لغزًا محيرًا.

كانت المرة الأولى التي أقترب فيها من عالم ناصر، بعيدًا عن

المجلة والأوراق والصور ورنين الهاتف وعشرات المقابلات، فريق عمل «سبوت» كان حاضرًا فلم أجد صعوبة في التأقلم على المكان، شعرت ببعض الألفة، وحين أمعنت النظر اكتشفت كم أن الفيلا رائعة، شغلت ربع المساحة تقريبًا واحتلت الحديقة الباقي منها، كنت أدقق بتلك الأجسام الفخارية المستديرة المتناثرة على العشب ومن بين تجاويفها تفرقت إضاءات غير مباشرة، رسمت انعكاسًا لطيفًا على الأرض الرطبة، كان لها تأثير فوضوي مبهج على أشجار اليوكا والأكاسيا، لم أشاهد مثل روعة تنسيقهم لأبصال الجلاديولس بألوانها المتعددة وعصفور الجنة ببرتقاليته الحادة، بلمسات دافئة اتشحت الطاولاتُ بأغطية حريرية أرجوانية، واستقرت فوقها كئوس من الكريستال – أعتقدها بطبيعة الحال سينييه – لأن بريقها كان مبهرًا، اجتذبني كل شيء منذ البداية

حتى الشموع الزرقاء الضخمة بأناشيطها المعطرة، انطلقت موسيقى Yanni لتتداخل ومقطوعات Buddha bar لتلف الأركان بدفء خالص.

كان مدهشًا وجود شقراوات يرتدين فساتين موحدة بلون زهور اللافندر، ويقمن بتحية الضيوف بكئوس من المشروب أو بأطباق من الحلوى والمملحات منحت الحضور طاقة غير اعتيادية، ساد الحماس ودارت أحاديث كثيرة، أحاديث لا تنقطع عن كل شيء: اقتصاد، سياسة، جمل متشابهة عن الفقر والغلاء، واقع المثقفين، الحرب الباردة، نزاعات دول الجوار. أصغيت، استنفرت حواسي للرد، توقفت قدرتي على المتابعة وخذلني الاستيعاب، انتشرت سحب التبغ الكوبي، مرت كثيفة كعطور النساء، للمرة الأولى أسقط بكاملي داخل بهو المجتمع الأرستقراطي، هذا الكم الهائل

من رجال السياسة والاقتصاديين، فنانين ورجال أعمال، سيدات عاريات النهود متفتحات، أحاديث منمقة كثيرة، أنوف مرفوعة للسماء وأخرى تتشمم النبيذ بين حين وحين، وقفت أتابعهم عن بُعد.. فتح «ناصر» زجاجة ويسكي بلاك ليبل وناولني كأسًا، رفضت يده الممدودة فاحتساها ضاحكًا.. بدا الأمر عاديًّا جدًّا لدرجة أن أعاد لخيالي بعض المشاهد على شاشة التلفاز، تسللت للبوفيه بنهاية الحديقة لشعوري بالعطش الشديد، كان الكل مشغولًا بالكل، وحين منحني «ياسين» لثغته المميزة قمت بتحيته عن بُعد لتجنبه بقية الأمسية، كان البوفيه ممتدًا لمسافة كبيرة، أغرتني كرات الفريرو روشيه المتناثرة بشكل عشوائي على الغطاء الأرجواني بامتداد الطاولات، فمددت يدي لإحداها، فضضت عنها غلافها الذهبي ووضعتها بفمي كاملة، وقبل أن تختفي تمامًا

ممتزجة بدفء اللعاب، فاجأني صوته فندت عني شهقة لم يسمعها سوانا.

- أهلًا.. ا....

- ....!

واجهته مبهوتة مأخوذة الأنفاس وفمي ما زال منكهًا بالشوكولاتة.

- انتِ ااا... اتقابلنا عند «ناصر» من شهر تقريبًا.. مش كدا؟

- يمكن.

كان عطر الـ«جاكومو» قريبًا لحد كبير، لكن على الرغم من التوكسيدو الملتصقة بجسده ما زال وجهه ينفرج عن ابتسامة باردة حسبتني رأيتها من قبل، هالني تحركه باتجاهي، كنا قريبين وربما تفصلنا خطوتان، أشار بيده لشفته السفلى فلم أفهم، ظل يحدق بي ويكرر حركته.

- هنا.. هنا.

كان طرف سبابته يلامس فمه، أمجنون هو؟! ما المفترض أن تعنيه تلك الإشارة؟

- ....؟!

- هنا لون بني.

أدركت أنه يقصد الشوكولاتة، دائمًا ما آكلها على عجل؛ فتترك أثرًا يفضح المحتوى، كنت خجلة، ناولني منديلًا ورقيًّا، وظل يحدق بي.. أزلت ما علق بشفتي.. أدرت وجهي والتهمني الخجل، اقتربت من الطاولة أكثر وانشغلت بالبحث عن خليط سكري أرتشفه على مهل.

- جميل اللحن ده.

- مش قوي.

– أشك، مفيش اتنين اختلفوا عليه.

– بالعكس، ممل لأقصى درجة.

مشيتُ قليلًا قبل أن ألتفت إليه وأكمل:

– مش بتفارقك الابتسامة دي؟!

– مضايقاكي للدرجة دي؟!

كان اللحن لبودا شديد العذوبة، خاصة لنكهته الشرقية؛ لكني لم أوافقه، بل كنت أتحفز للرد متخذة قناعًا باردًا؛ فلعبة الانفصام دائمًا تجدي، بادلته نظرة غير مكترثة وقلت:

– مش مهم.. كل واحد حر ف رأيه.

– بالتأكيد.. تعرفي يا آنسة ا... «جورية»، فستانك جميل؛ بس لون أحمر شفايفك باهت، محتاجة لون أكتر جرأة يناسب فستانك الأسود.. بجد ذوقك رائع.. الدانتيل مثير.. يمكن كمان بتشبهي

نجمات السينما.

صمت قليلًا وأردف بشيء من السخرية:

- إلى حدٍّ ما.

ابتسم ابتسامة اعتقدت لها معنى آخر غير الذي احتوته كلماته، انزعجت.. تراه كان ساخرًا فعلًا أم أنه يحاول إثارة فضولي.. وربما كلاهما! قلت بحدة:

- لون مكياجي مناسب لبشرتي وفي كل الأحوال، وبكل صراحة أنا مش مهتمة أبدًا بكل اللي قلته.

- أكيد ردك سخيف.

- تمام زي ابتسامتك.

قلب شفتيه محاولًا إبداء امتعاض، لكنه أحالهما لابتسامة عريضة، وفي تلك المرة تأكدت أنني أسبر أغوار عينيه على الرغم ممَّا بدا

بيننا من تحفز.

– صدقيني، روحك أجمل بكتير من إنك تسجنيها بمشهد رديء بفيلم كلاسيكي ممل.

قالها وتركني أفكر في المعنى الأبعد من ظاهر كلماته.

قضيت ليلة مشحونة أحاول فيها أن أفهم لِمَ كنت تلك السخيفة معك؟ كيف سيكون الصباح وأنت رئيسي بالعمل؟ قلت لي ذات مرة إنني أنثى الكهف التي تنتظر رجلها ليحملها فوق ظهره ليعبر بها الوديان، وليقاوما التصحُّر معًا ببضعة آلاف من القبلات. كان تشبيهًا غريبًا، لكنني حين قرأت كتابك «سيلينا» أدركت أنك تفتش عن أنثى مثلها، وحين صارحتك برأيي قلت ضاحكًا:

– هتصدقي لو قلت إني كتبت مجموعات كاملة عن «سيلينا» ومن غير نتيجة؟!

لم أتخيَّل إلا أن يجمعنا مشهد بين الجدران الرمادية، النوافذ المغلقة دومًا لتجنب العادم، جهاز التكييف الممعن في البرودة، مئات الأوراق والبروفات، عشرات الصور المرفقة مع التقارير، قلم يتطلع بحيادية للمواضيع المفترشة طاولة الاجتماعات، الهمهمات الجانبية كلها، أصوات النقاش الحاد أحيانًا والمفعم بالفهم كثيرًا، وفي خضم ذلك كله كنت أتأمل خطوط وجهك المنمنمة، وأتساءل: ما الذي يخفيه غموضك؟ ما الذي يتوسد عقلك ويشغل حيزا من ساعاتك؟ ما الذي يحرك مشاعرك فيبهجك أو يبعث حزنك؟ أدقق النظر في شعرك الأبيض فأراه فخًا للغواية، أتطلع إلى حركة أصابعك حين تتوتر فأعجز عن تفسير صمتك اللا معقول، وحين يزداد التوتر تُلجئ ظهرك للمقعد محدقا في اللاشيء، تلتقط نفسًا عميقًا وتزفر، تنقر الطاولة فيسود الهدوء،

تربكهم نظرتك وعقدة حاجبيك، تؤرقهم نبرتك الجادة، يتبادلون الإيماءات وتختفي الضحكات. كنت أستمتع بذلك كله، فأتخذ مقعدًا جانبيا لأنفرد بمشاهدة رائعة ترضي داخلي ولا يحاصرني تلصص حواسهم.

- «جوري»، إيه اقتراحك بالنسبة للي ناقشناه حالًا؟

- ااااا...

- ما سمعتش اقتراحك بخصوص ملحق العدد.

- اااا... كويس.

- إيه اللي كويس ؟!

لم أكن منتبهة، وكان يتحيَّن الفرصة، تمامًا كحالي مع مدرس اللغة الفرنسية بالمدرسة، كان يتصيَّد انشغالي فيحرجني أمام البنات، لا أدري كيف استطاع بكل تركيز اقتناص لحظة حاسمة

ليفاجئني بسؤال أو حتى ملاحظة، وكثيرًا بعض العبارات التي تحمل نوعًا من التأنيب، حينها، وكما يحدث دائمًا، كنت ألتفُّ حول نفسي وأنسج جدارًا نفسيًّا عازلًا، وأبتلع الدموع قبل انهمارها فلا يهنأ بانتصار، لم أظنه غير ضعف لا يليق بامرأة، هيَّأت لنفسي سلامًا نفسيًّا غرقت فيه حتى أذني فلا يزعجني غروره، حتى إن وُجود «ناصر» بألمانيا بصحبة «داليا» منعني من شكايته، كان عليَّ أن أتقبل الأمر؛ فلـ«خالد» نسبة 49% من «سبوت»، ويشغل الآن منصب نائب رئيس التحرير، وما أنا إلا إحدى المرؤوسات، ليت له نصف كياسة «ناصر»، رجل خفيف الظل، مهذب ولبق، مميز في أمور كثيرة، ينكر ذاته طوال الوقت ليشعرها بالسعادة، تكبد مشقة السفر ليصحبها بحفلها الأهم بكاتدرائية كولونيا، ولم لا؟ فامرأة مثلها على استعداد تام لأن تلقي

نفسها بين ذراعه لتعلن حبها. لم يغِب عن خيالي حفل فيلا الهرم، ولا كيف استقبلني بحفاوة، كانت المرة الأولى التي ألتقي فيها «داليا»، لم تمل ذراعه التي أحاطت خصرها بشغف، ولا قبلاته التي غازلت وجهها طيلة الأمسية، مازحته:

- touch the wood.

- ده العادي يا «جوري»، ما لك؟

- عيون الناس، خافوا من الحسد.

- المنطق سجن كئيب.. حرري روحك.

- مش بالشكل ده.

- خدي ليمون بالنعناع، هنا بيعملوه حلو قوي.

قالها ساخرًا. تأملتهما متعانقين، لفَّني شعور غريب بأن ثَمَّة عالمًا لا أعرفه يفتح بابًا لي، قلت ضاحكة:

- يعني الجنون ده هو عين العقل في نظرك؟!

- في الحياة حاجات كتير تستحق.

قالها وابتسم ابتسامة كشفت نصوع أسنانه.

هل كنت أعنيها حين قلتها أم أن غبائي يأبى إلا أن يظهر من جديد؟! أيقنت يومها أن عطشي الدائم كان يلاحقهما أينما ذهبا، وما زال يلهث خلف وهم الارتواء، لكنه يرفض كل ما كان استمتاعًا خاطفًا، وها هي الصدفة تشكل جداريتنا معًا، لكن الهدوء الذي كنت تدعيه كان يخيفني، خاصة حين تتعامل بثقة مع قاربنا المتأرجح بلجة بحر هائج، والثغور تملأ قاعه، وما زلت بثقة تنفث دخان سيجارك الكوبي على الرغم من ضياع فرص النجاة؛ فالماء ينفد والقارب يميل، وأنا عاجزة أرقبك تفتش عن شيءٍ طافٍ نتعلق به؛ فينجو ما افترضناه حصننا الآمن وننجو معه.

***

كان العمل بالمجلة ينتهي في السادسة مساءً. تختلف ملامحنا بنهاية اليوم، تتشح قدرًا من البؤس، وتستكين بالأنسجة بعض الظلال المرهقة، حتى وقع أقدامنا يتثاقل كلما مرت ساعة تلو أخرى، قرقرات أمعائنا حنينًا لوجبة ساخنة، وفراش دافئ وبعض الكاكاو، وإغفاءة ربما لا تقربها الأحلام، لكنه الشتاء، كان «خالد» آخر من يغادر، يتصادف أحيانًا أن يجمعنا المصعد فيتقدمني للباب مبتسمًا، يصبح النظر إليه حينها مغامرة يدفعني الحذر لتجنبها، ومع ذلك كلما مددت نظري وجدته بكامل أناقته، أزياؤه الرمادية والسوداء تطلق زخات عطوره، حذاؤه الكلاسيكي يغازل الأرض بشغف، أصبح العبور للمصعد بابًا يفصل بين عالمين، وها أنا ذي عالقة بين السماء والأرض مستسلمة لجاذبيتين على

قدر كبير من التناقض، تولدت شرارة البطولة بداخلي فاستدعيت طاقة هائلة لتدفعني للثبات عكس مدارات جاذبيته السحيقة، وأشحت بوجهي للبعيد، حرارة جسدي تتسرب رويدًا، احتضنت حقيبتي، وأرسلتني للاشيء وأخيرًا توقف المصعد.

سبقني للمغادرة، تبعته متباطئة، اتجه للـJeep.. وكانت الـFiat على مسافة أمتار، لكن محركها أبى أن يدور، حاولت إنعاشه من دون جدوى، عيناي مثبتتان بها والبرودة ملتصقة بي، لكن إصرار المحرك ألا يتنفس قادني للجنون، سرت بي لفحة ساخنة، كان بالجهة المقابلة يجلس بالسيارة مطفئًا كل الأنوار، ويدخن سيجاره على مهل، شغلني سؤال لحوح، لو أن رجلاً غيره بالمكان ماذا تراه ليفعل؟!

– ما تحاوليش.

جاءني صوته عن بُعد، اخترقني ككرة لهب ذوَّبت رجفتي.

- نعم؟!

ترجل من السيارة ومشى باتجاهي، نقرات الحذاء الكلاسيكي على الأسفلت بددت وحشة المكان، وأعطت للأمر بعدًا آخر.

- ممكن أشوفها، بس صدقيني من غير فايدة.. يعني تعب ع الفاضي.. سيبيها للصبح وهوصلك لأي مكان.

- فعلًا مش هتدور؟!

- هاجرب عشان تتأكدي.

ترجلت وحلَّ مكاني، كان غريبًا بـ«الفيات»، لم يبدُ متوافقًا وبساطتها، غاب بمحاولاته إنعاش الموتور، لم ألتقط وهج عينيه سوى مرتين، تعبت من الوقوف فجلست فوق السلم الرخامي بواجهة باب المجلة، كان باردًا جدًّا، طوَّقتني البرودة من كل اتجاه

وما زال يحاول، احتضنت الحقيبة وقمت لأتجه إليه:

- خلاص مفيش داعي، آسفة تعبتك معايا.

- مفيش تعب ولا حاجة.

- أشكرك، هاخد تاكسي.

- بحبها لاتيه، وانتِ؟!

قالها بحسم بينما نتجه لل jeep، تساءلت بسري: ما لها تلك الليلة لا تمر؟! تسللت للداخل، أغلق الباب خلفي، قاد بنا فاتسعت نافذة الرؤية لكل شيء: المارة، أعمدة الإضاءة، الشوارع الجانبية، لافتات المحال، الليل، ونافذة قلب شغوف تقاوم الصحو، على الرغم من تضارب مشاعري ظل جزء مني يرفض ما يحدث والآخر يدفعه لالتقاط الأنفاس، حاول استدراجي لمنطقة من الكلام فهززت رأسي، لكنني بعالم من الغيم، أتلمس الطريق بين غيمة

وأخرى بحذر.. شيء فيه يسكنني.. يشطرني.. يمتصني وبثوانٍ يعيدني إلى حيث كنت بجواره، أثارتني النقلة المذهلة، الوجه الآخر لحوارنا، امتلكت التركيز كله لأدرك الفرق بين ما كنا فيه وما نحن عليه، صارحني بأنه كلما قابل «ناصر» سأله عن صديقته العصبية «أبلة الناظرة»، ابتسمت حين قال ذلك وانتابني الخجل.

بـ«الخان» احتسينا القهوة، مضت ساعة حاول فيها أن يقنعني أنني لست تلك المرأة التي تدَّعي القوة، ويسألني لماذا اخترت صورة باهتة لامرأة متنمرة على الرغم من حضوري الشديد، لماذا أخفي ذاك الشعور بالدفء الذي يغمرني، وأمنح الأخرى بداخلي صورة باردة.. عندما سألته عن سر ذاك الانطباع قال إنها كلماتي القصيرة بمقدمة كل مقال؛ وكأنني بلا قصد أسرب إحساسًا ما،

أجرد نفسي من اعتراف وأفرغ أسراري على الورق، ابتسمت.. قلت له إن عباراته المغلفة بسخرية كانت السبب في أن أعيد قراءة رواية «هاجس» لميريام الكاشف؛ فبطلها يشبهه لحد كبير. اندهش لكونه محركًا لعالمي من دون قصد، اعتذر عن طريقته وعن ابتسامته التي كانت سببًا في الخلاف، تنفست بعمق؛ وكأنني ألفظ للعالم أوجاعي كلها، كانت الألفة التي غلَّفت ليلتنا دليلي بأن حكايتنا توشك على البدء، تكلم كثيرًا، تخفف من أحماله، حكى عن أماكن أحبها: التحرير وشارع قصر العيني.. القاهرة القديمة وحواريها الضيقة، مئذنة الحسين، زهرة البستان، ريش والتكعيبة، حكى عن صوت فيروز في المساء، عن الورق الأصفر لمصحف أمه، شاطئ جليم وآيس كريم منتصف الليل، عن عطر يقص حكاية «صوفي»، مُدرِّسة الموسيقى بمدرسة تواجه بيتهم..

استعرض بعض صور الأصدقاء، حكى عن خادمة الجيران الفلبينية، وقبلة مجنونة بالمصعد، كان مجرد مراهق يختبر ذكورته، حكى عن درَّاجته النارية، وقصيدة كتبها عن بنت بجونلة «فوشيا» ونهدين من زجاج.. تحولاته مربكة، مراهق جامح ثم فتى حالم ثم بالنهاية ناضج يجيد التعاطف، كان من غطى تفجير برجي مركز التجارة العالمي، وكانت «لورا» إحدى الناجيات لمغادرتها المكان بفارق دقائق. التقطَت صورًا للمبنى قبل انهياره كليًّا، بعدها أصابتها حالة هستيريا، أما هو فقد تَواجد بالمكان على مقربة منها وهناك كان التعارف.

تقمَّص نبرة جادة عندما تكلم عنها، سرعان ما اختفت عندما تحدث عن طفلتيه لتصبح أكثر ألفة وحميمية، لم يكن في حاجة لأن يثبت أي شيء؛ ببساطة لأننا اتفقنا أن ننزع الأقنعة. لم تكن

طريقتنا واحدة فكنت أُخرج الأسئلة تباعًا، وربما دفعة واحدة، بينما تتداعى إجاباتي مرهقة بقليل من أسئلته، لم نفقد رغبة في التواصل، وهذا كل ما في الأمر، مرة بعد مرة أدركت أنه في زمن ما بمكان ما اضطر للتواجُد، وأنه بكل بساطة لم يكن يحبها، وربما لم يحبها بقدر حبها له.

– محتاج أعرف عنِّك أكتر.. مش عاوزة تحكي؟

أتبع جملته بدعوة على عشاء بـ«كاليجولا».. طيلة الطريق كنت أفكر كيف ستكون أمسية للمكاشفة، وقبل أن تتوتر كل خلية بي واجهت نفسي بأهمية وجوده بحياتي، وضرورة إزاحة كل ما يمكن أن يستثنيه.

لم أستطِع النوم بتلك الليلة، كنت أقرأ لها وأخط وأعاود القراءة وأضحك ويفاجئني البكاء، كيف استطاعت أن تترجم حالي بتلك

العبقرية، ولم يخُنها التعبير؟!

لكم ألجمت شوقي لبزوغ النهار حتى جاءني رنينه صباحًا يخبرني بأنه لم ينَم؛ تعلل بقهوة المساء، سألني إن كنت استطعت النوم، أجبت من دون تفكير: بعمق كما لم يحدث من قبلُ. ضحك فتسرب لداخلي شعور بالدفء، أحب حين يحدث ذلك فيكاد قلبي يقفز من بين ضلوعي، يشتهي نافذة رحبة تطل على العمر الجميل، هو من قال مرة إنه ليس هذا الرجل المبرمج المعلوماتي وإن بصدره كتلة حمراء تنبض باشتعال. وقلت حينها: إن الجميلات لا يبُحن بكل أسرارهن وإن الاعتراف بالحب أولى درجات الهزيمة، لكن شيئًا ما دفعني للتعرف إلى ملامح جديدة تسكن روحي، وكأنني عرفتني فقط بالأمس، تسللت إلى قلب الموجة عمدًا، شعورٌ غامضٌ يلف إرادتي، وكأنني وجدت أخيرًا ما

كنت أبحث عنه.

21

بـ«كاليجولا» لم أخفِ مشاعري، كانت ليلة دافئة، وعيناي لم تبرحا وجهه، له نظرة بعمق الكون، تهديك مساحات للركض الآمن من دون احتمال للتعثر.

– «خالد» فعلًا جميل، كاسم أقصد..

– فعلًا؟!

– فعلًا، أو «زياد».

– ليه «زياد»؟!

– بحب الاسم ده.

- اسمك دافي يا «جورية»، سمعتهم بيقولوا «جوري».

- «جوري» الأقرب لي.

- فيه سبب محدد للتسمية؟

- يمكن يكون مش لطيف.

- لو حبيتي تقولي أنا سامعك.

- «جورية» هي الوردة شديدة الحمرة، ولون الشمس ساعة الغروب لاختلاط لونها بدرجات الشفق.

نظر لي بابتسامة متسعة يشوبها بعض الفضول:

- مش مندهش إن الاسم دافي وحنون، جميل إني توقعت، بس فين المشكلة هنا؟! يمكن تكون في اللي اختاره مثلًا!

قالها ضاحكًا وأردف:

- آسف للتطفل.

- لا أبدًا، كان اسم حبيبة والدي في وقت من الأوقات.

- متوقع النتيجة.

- دايمًا فيه حد لازم يدفع التمن، مع إن علاقتنا بالحياة مجرد علاقة افتراضية زي اللي بتربطنا بناس من ورا شاشة، ده حتى النفس اللي بناخده مجرد أمانة في يوم هترجع.

- دي فلسفة.

- ده مجرد رأي.. جميلة مراتك على فكرة.

- تعرفي إن «لورا» نص أمريكية ونص إيطالية، الإيطاليات فيهم دفا تمام زي المصريات، أجمل ما فيها إنها بتستخدم إيديها وهي بتتكلم فتحسيها منَّا، نبرة صوتها جميلة بتفكَّرني بنبرة جيسي نورمان، ورغم كل الجمال ده مش سعيدة، ماضيها خانقها.

تعجبت للحظة تلتقي فيها جزيئات صغيرة تحمل قدرًا من التشابه

في كون شاسع، لم أتصوَّر الحياة بتلك الدقة، فكما لم أنسَ أبدًا أمي لم تنسَ «لورا» أمها، وكانت تعاقب أباها كجلاد لمجرد أنه أخفى عنها حقيقة هجرها لهما لعشرين عامًا كاملة مشيحًا بوجهه عنها عبوسًا كئيبًا صامتًا، كانت تكرهها، وتتمنى لو أنها واجهتها بجرمها.. فبرودة لياليها الفارغة منها والحساء البارد دومًا، وحبات البازلاء الصغيرة المتناثرة تحت المنضدة حين سقط الطبق محطمًا قطعًا، كُبراها بحجم خيبتها فيها وصغراها بحجم قلبها المتهالك وجعًا، لم يجعلها ذلك كله تنسى كيف كانت تلتقطها بإصبعها الصغيرة ثم تعود تلقيها؛ فربما تعود مَن غابت فتجمعها وتنظف فوضاها فيعود البريق. حين ماتت وجدته يبكيها كطفل يتجرَّد من جبروت، سألته: ما الداعي للبكاء إن كانت من اختارت أن تلقننا دروس الهجران وجفاف الذكريات؟ قال: كانت دومًا ترغب بالعودة

لأجلكِ فقط وليس لأجل خاطري.

جذبتني الحكاية ومسحة الحزن المرسومة على وجهه، بدأ يهاجمني فوران المعدة لمجرد أن تسربت الحكايات المخبوءة من بطن الذاكرة.

– قبل «لورا» كنت على علاقة ببنت آسيوية، استمرت سنة تقريبًا؛ رغم إني ما كنتش حابب ده، كانت معلبات السوشي ولفائف الـ«اسبرينج رولز» تقريبًا الرابط الوحيد بينًّا، يضايقك لو قلتلك إني كنت...

صمت لبرهة ثم قال:

– كنوع من الواجب ليس إلا، مش من اللايق ترفض صديقتك لو استدرجتك لعلاقة، في الغربة بتعملي حاجات تندهشي من نفسك بعدها، يمكن الميزة الوحيدة فيها إنها كانت منظمة جدًّا وواضحة

أكتر من اللازم، بسهولة أنهت العلاقة لمجرد إنها زهقت، وببساطة لمت حاجتها وباستني بوسة عميقة وصديقها الجديد على الباب منتظر...

قاطعته مستسلمة لصخب قلبي، ومن جديد انتابني الغثيان، فبتلك اللحظة اكتشفت أنني لا أملك ترف الاعتراف بأن فصولنا الكئيبة كانت متشابهة السواد.

– حاسة طفولتك هادية، مش متخيلاك زينا ما اعرفش ليه.. يمكن هدوءك السبب؟!

– مش للدرجة دي صدقيني.

قالها ضاحكًا ثم أردف:

– اتولدت في أكتوبر 62، وبعدها بأقل من عشرين يوم مات والدي في حادثة.. كان ظابط بسلاح المهندسين وراجع أجازة،

مش هقدر أقولك عن مشاعر طفل افتقد طول الوقت ضمة قوية تمس ضلوعه فما عرفش يحس الأمان، كنت ولد شاطر، مش عشان حابب ده، إنما عشان الناظر ما يستدعيش أمي فتحس إنها قصرت في تربيتي، تقريبًا ما لعبتش زي باقي الولاد اللي في سني، ويمكن ما صاحبتش بنت، والفلبينية إياها، يمكن ما كانتش أكتر من محاولة جريئة لكسر الرتابة ويمكن حلم باهت يشبه حفلة آخر السنة في المدرسة، وغالبًا ما كنتش بشارك فيها عشان والدي ما كانش هناك، يمكن المرة الوحيدة اللي سمحت لنفسي أكون بينهم لمحت دموع أمي من بعيد، كانت عصبية طول الوقت.. عصبية وحزينة.. ما عملتش شيء في حياتها غير إنها تربيني، صعب ست تكمل حياتها وحيدة لأكتر من 30 سنة، وفي الآخر تلوميها لو يوم بكت.

كان من الصعب تجاهل حالة الارتياح التي انتابتني حين استمعت إليه، استسلمت لها، والتمعت عيناي لأقول:

– توقعت حياتك على كل رصيدك مجردة من الإنسانيات، امريكا حلم لناس كتير. وصعب تقاوم التغيير الحاصل لشخصيتك وبالذات لو كنت شرقي.

– امريكا وهم يا جوري، امريكا تحشو مسدسك الفارغ من غير علمك، فتتباكي عليك لو وجهته لنفسك في لحظة ضعف، أو ضد غيرك على سبيل التهديد وتحاكمك كقاتل.

قلت بارتباك:

– جميل انك فاهم ده برغم سنين الغربة هناك.

– كانت سبب أساسي.

– سألتني الصبح سؤال ومحتاجة أجاوب.

- سامعك.

- نفسي أبطل أفكر في إجابة مختلفة لمجرد إنها ترضيك، باختصار اتفقنا نتصارح.. محتاجة بس شوية وقت لأن الرحلة دي فعلًا مجهدة. أتمنى تقدر ده.

كان مندهشًا من مقدمتي، متحفزًا لرد ربما بقرارة نفسه يتوقعه، لكنني حين هممت بالحكي اعتراني القلق، ابتلعت ريقي مغلفًا بروائحهم ومنكهاتهم، زفرت زفرة حارة ودققت النظر لحركة أصابعه.. يا رب كم باب يُفتح على مصراعيه كلما ولجت ذاك الزقاق؛ لتفلت روائحُ وشخوصٌ! كل سخافات الماضي وأوجاع الخذلان تتجدد بلحظة، كل النوافذ التي أغلقتها تتفتح عن روائح عطنة كتاريخ تليد قابع تحت الركام.

دعاني لرقصة، حرت حينها أين أنظر، إلى قدميّ، أم إلى وجهه؟

إلى الناس، أم إلى مرآة الواجهة لتأمل انعكاسنا؟ جذبني من يدي، ظللت أتعثر في احتمالات القرب والبعد، أنفاسه تربكني، تحاشيتها بالتفكير في موضع الخطوات، خطوة إلى الوراء وأخرى للخلف، درت حول نفسي مرة حينها تأملت الناس من حولنا بالمرقص، عدت لأواجه صدره، وأهرب من عينيه، كان طويلا، مشدودًا بصلابة وأناقة، كأنني أعرفه بوجود سابق، كالذي يقبع خلف المرآة، تابعت المشهد من بعيد، فستاني الوردي، تناسق خطوتي، جسده الفارع بحركاته المدروسة، أنغام الماريمبا بصوت دين مارتن، هذا الحنين الجارف بكلمة Sway، تلك الزاوية من العالم حيث امرأة تنتظر رجلها، لا ليضمها كمحيط كسلان؛ لكن لتشاركه رقصة مبتكرة، لن يتحدثا خلالها عن الأثر النفسي للحروب، لن تتطرق لقرارات منظمة العفو الدولية، فيسألها بدوره

عن رأيها في أداء المنظمات الحقوقية، لن تحدثه عن أزمة كوسوفو وأثر الاحتباس الحراري على الكرة الأرضية، لن يشغلهما توثيق «ويكيليكس»، وبالتأكيد لن يتطرقا إلى أحبِّ الألوان لكليهما أو عن المعنى الشجي للغروب.. فقط سيكونان نفسيهما.

احتواني برفق، ودعاني لنتبادل الأدوار، في الأحوال كلها لن تكون محاكمة، بل مجرد تعرية، نبش هادئ بين الصخور، توسدت صدره، تهادت خطواتنا، استسلمت لجاذبية فك الرموز واستدعاء صور الجُذُر، كنوع مبتكَر من تنشيط الذاكرة.

وجدت صعوبة بينما أقصُّ عليه ما أعرفه عن رجال حياتي، فكلهم بالفعل ممل، تعثرت الحروف؛ وكأنها عار يصمم أن يحتجب، كانت حكاية متقطعة لملمتها بالكاد، وصلته مفتتة كأحجية، لم يكُن عليه سوى أن يربط بين الخيوط، وأن يصل بين

بعض الأجزاء لتكتمل الصورة، أحيانًا ما رغبتُ في التوقف، أو اللجوء لزقاق ما للاختباء، لكنه كان يستمع بثبات. كبحر يتنفس بعمق، تورطت حتى أذني بالحكي، كانت رغبة مجنونة في الخلاص من أمس بغيض، صمته كان مربكًا، أدركتُ أنني أتعامل مع عقلية متفتحة وثقافة مزدوجة، وكل ما يعتنقه من مفاهيم منبعها وعيه بالضعف البشري، وفهمه للحاجة لمن يعبر معنا الأوجاع، ويحمل عنا أثقال العمر، كان يؤمن بذلك، وكنت أومن بازدواجية المثقف وانفتاح المغترب، خشيت من حكم قاسٍ مشمول بالنفاذ يوطد الألم ويعيد كشط السحجات، لكن عجبًا! كنت أتابع.

كنغمة غير مألوفة بدونا بإيقاعنا المتناغم كغريقين يتماسكان، أي عاقل كان ليدرك أن ثمَّة انفصامًا بين ما نفعله وما نؤمن به، عين

الرحمة وقلب الجلاد، عاد يشغلني رد فعله عند اقتراب النهاية، فسكتُّ للحظة، أومأ لي لأكمل وعادت عيناه تطمئنني، الاحتمالات كلها تقتات على راحتي، كنت بحاجة لاستكمال الرحلة الكشفية للتنقيب عني بين الركام، لأقاوم الخوف المتنامي من إفلات آخر الأشباح التي ربما تأكل سنابل القمح التي لم يلتهمها الإعصار، التفاصيل الدقيقة كلها عن عالم لم يلجه، وإنما يتسلل خلسة من بين حروفي، وردود فعله الهادئة وصمته الطويل، يا رب متى يتوقف هذا كله؟ ليته ينهي ما بدأناه معًا، أو لينتصر لشرقيته فيطعن إثم أنوثتي أو لتتوقف رقصتنا للأبد.

***

مشتعلة كنت كجمرة تداعبها الريحُ، مارشات صخب تفتك بجمجمتي، الرحلة توشك أن تنتهي، وكلما عَلا الصخب أدركت

أن الصمت آتٍ، ابتلعت ريقي، وتنفست أخيرًا؛ فشفتاه تحفزتا للكلام.

- ما كنتيش محتاجة تقولي كل ده.

- بالعكس، كنت محتاجة جدًّا، كان لازم أتأكد إني قدرت أواجه خوفي من إني أتكلم، هي دي الحقيقة، كان ماضي سخيف بكل ما فيه، ورغم كل ده عديته.. خسرت كتير قليل مش مهم، المهم إني قدرت.

- اكتبي عنهم، وقتها بس هتنسي.. وهتبطلي تلومي نفسك.. وهتبطلي تفتكريهم عشان تعلقي عليهم شماعة إحباطك، مش بلومك، على فكرة كلنا بشكل أو بآخر مازوخي بيستمتع بجلده لذاته.

- خالد، اا...

– «جوري»، هحكيلك حاجة عن أمي، بس اوعديني ما تضحكيش.

استعار كل شيء ليسرد حكاية ملؤها الحنين، أبدى براعة فائقة في ذكر كل تفصيلة. كانت حيلة تعلَّم بها أن يفرغ شحنة الغضب بداخله، ربما أدهشني أنها حيلة أمه، دخل عليها فزعًا غرفتها مرة بعد أن وصله صوت اختلاج أنفاسها، كانا وحيدين تمامًا بعد وفاة أبيه، فمن عساه أن يكون معها بجوف الليل؟ ظنه لصًّا، اندفع إليها وكان مجرد مراهق يحمل سكينًا للدفاع عن أمه التي لا يعرف ماذا ألمَّ بها، كانت مهوشة الشعر حمراء الوجه بينما تكيل اللكمات لوسادة تتدلى من حبل بمنتصف السقف، كانت الوسادة تحمل أكثر من عشرين اسمًا دوَّنتها بخط واضح، فكَّر.. ربما أصابتها لوثة، كزَّ على أسنانه، التصق بالجدار، تسمر بمكانه

وأسقط السكين من كفه، منحته ابتسامة مطمئنة بينما تلهث، قال: كانت الأجمل على الرغم من كل شيء. سألته عن سر الوسادة، قال إنهما سمياها مجازًا «وسادة المُحبِطِين»؛ إذ كان عليهما أن يكيلا اللكمات لهؤلاء طوال الوقت؛ فهؤلاء في سيرهم لا يتركون خلفهم سوى العثرات، ما كان منه يومها إلا أن التقط القلم ودوَّن على الطرف الآخر من الوسادة اسمين، أحدهما لمدرس الفيزياء؛ وكان دائم التقريع له، والآخر لزميل فصل بدين يسلبه الساندويتشات؛ كان يعترضه يوميًّا.. يقف بطريقه، ويطلب منه دفاتر الواجب لينهي فروضه، وأحيانًا مصروفه، ويتعلل بالحاجة، يحدق به طويلًا بطريقة رجل عصابة بفيلم كاوبوي، تضيق عيناه ويمد ذراعه لتجذب الحقيبة، يفتحها بتحدٍّ غريب، يأخذ ما طاب له أن يأخذ ويلقيها إلى الجانب.. ويمشي.

تبادلا ليلتها تسديد اللكمات للوسادة، فعلاها كل شهر غالبًا حتى ماتت، بعد وفاتها تعلَّم التصويب، واكتشف أن الغرفة التي صوَّب فيها على الجدار، تحديدًا على الرقعة الجلدية المتداخلة الدوائر، حين يوجه للداخل بعمق فتسقط إحدى الخيبات، هي الغرفة ذاتها التي تتسلل لها العصافير، هي ذاتها التي كان يقرأ فيها الشعر ويصلي الفجر، اكتشف أن للشرفة روحًا، وحين يخرج يوميًّا لها مستقبلًا الصباح تملأ الدهشة فمه بطعم حلو، يقينًا كان يدرك أن للشارعِ نافذة وبابًا لم يفطن لهما العابرون.

واجهتُ عينيه.. أعدت رأسي إلى حيث كان، قبلت كتفه من دون أن يشعر، جاءني صوته مفعمًا بالنضج:

- بطلي تعاقبي نفسك، لما تروحي مارسي حيلة المخدة لأسبوع.. صدقيني هتفرق معاكي كتير.

- تفتكر ممكن؟!

- ممكن جدًا، إلا بقى لو حالتك مستحيلة ومحتاجة طبيب متخصص.

- ساعات باشك.

- مش للدرجة دي، إيه اغرب حاجة بتعمليها وانت لوحدك، وانا احدد درجة خطورة الحالة؟

ضحكت من جملته، أظهر بعض الجدية، ولم يبد السؤال غير امتداد طبيعي لقطبة جبينه المصطنعة.

- من غير ضحك من فضلَك.

- قولي من غير خجل.

- لحد وقت قريب كنت كل ما اشوف حساب على الفيس بوك صاحبه مات، من غير ما احس ابعتله إضافة، مش عاوزاك

تستغرب، أنا نفسي مش عارفة السبب .

- ها ..

- تأمل حسابات الراحلين بيرسم تصور لأزمة الفراق ووجعه وتقبله ولإحساسك إن الجسد فارق والروح بتحس بالتفاصيل، صدمة انك تكتشف إن صاحب الحساب كان له status أو صورة، أومشاركة لخبر من ساعة. فكرة انك تكون عارف إنه سابها ومشي، معجزة انك في يوم تصحى عشان تلاقي طلب الإضافة اتقبل، جنون المحاولة المستميتة للتشبث بالحياة، عبثها، أكذوبة السعادة في الدنيا، وشعورك بالخديعة لأنها خذلتك.

- كملي..

- باتوقع اصحى ف يوم القى طلب الاضافة اتقبل ومعاه برقية شكر، وأمنية لطيفة بقضاء وقت ممتع في البرزخ إلى أن نلتقي.

- فين مثلا؟

- أي مكان، حتى لو الجحيم، برضو خيار محتمل.

- يا ساتر، حالتك ميئوس منها، وفعلا محتاجة طبيب متخصص.

قالها ضاحكا وهمس:

- متخافيش، لسه فيه أمل.

هززت رأسي واستكنت، جزء مني ما زال يعمل كزنبرك لا يمل الامتلاء، تراه كان متفهمًا بالقدر الذي ظهر به؟ تراه كان مدركًا لطبيعة الحال؟ ليت رأسي يتوقف عن الضجيج، تلومني التي تسكنني، لا تتوقف عن قرع رأسي.. عن جذبها حتى بعد أن اكتشفت أننا آخر من غادر، وأن المكان أصبح فارغًا إلا من خطواتنا، اصطحبني بسيارته، وجهها بطريق مفتوح بعيدًا عن

ضوضاء المدينة، قاومت إحساسًا بالراحة يروح ويجيء، توقفت مؤقتًا عن التحليق لأبعد من تلك اللحظة، في الطريق كنت أختلس النظر إليه، عيناه العسليتان تتسعان كلما تواجهنا، أعرف تلك النظرة، أفسرها كما هي من دون زيادة أو نقصان، يمكن أن ألتقط بيسر إشارة للوجد، ليته لا يكون حلمًا، ليته لا يكون. ما زال يطاردني السؤال: كيف سمحت له أن يتسلل على غفلة؟ هذا العمر مر، وأنا أحافظ على بقايا كبرياء، كيف أتعرى بهذا اليسر ليقرأ داخلي؟! وكيف أخذلها حين صدقت كلماتها عن قصص الحب المرتبكة؟ تلك التي غالبًا ما تترك خلفها إعاقات مزمنة، تبقى شعرة فاصلة بين الحياة والموت، بين الوهم واليقين، بين الصخب والسكون، بين كل شيء ونقيضه، كيف لمجنونة أن تترك لهارب هدم نصف عمرها لتظل النصف الآخر تبكيه؟ أي فاجعة

عندما تدخل معركة نسيان ضد هارب؟ أن تكتشف أن حواسك خذلتك، وأن عليك أن تخرج هذه الحمى من جسدك فتقول لا بملء الروح لهاتف يذكِّرك بصوته، وقارورة عطر برائحته، ومساء بعيد بلمساته، وعطش أبدي بقبلاته، وقبضة يد بحضنه، وتجعد منامته.

لسعتني البرودة كما سرقتني الأسئلة، قاومته ملتبسة مشاعري تجاهه، لم يعد يجدي ارتداء القناع مهما فعلت، لم يعد يجدي. كل تلك اللحظات بيننا تترجم لغة جديدة غير التي تعلمت حروفها في الزمن البعيد.. توقفت السيارة.. نظرت إليه بدهشة، وسألته من دون كلام.. كان صافيًا تمامًا وهمس:

- يمكن يكون حب كبير.

- يمكن؟!

- أكيد.

- لو حصل حبني زي ما أنا.

- مش هاطلب منك تتغيري.

- اوعدني.

- بحبِك.

- بتقول إيه؟ ما سمعتش!

- بحبِك.

- حاسة بالأمان معاك، ومش عارفة السبب.. واحدة زيي صعب تحس كدا.

- ما تكونيش قيد على مشاعرك. كوني سيلينا الجميلة.

ظلت هذه الجملة تطنُّ في أذني، رافقتها ابتساماته، تركنا الطريق يقودنا إلى حيث يشاء، تحدثنا عن «سماء تمطر صدفًا»، عنوان

مقاله الجديد.. فجرًا جاءتني رسالة بالجوال، كانت تحتوي كلمة واحدة، طالعتها مائة مرة، وكأنني ألتقط صوته من بين حروفها، وكأنني أستدعي نبرته تطالبني بـ«تزوجيني». خفق قلبي بشدة، ارتعدت، وضعت الهاتف إلى جانبي، استلقيت فوق السرير في شرود، كان الأمر مربكًا، أمسكت الهاتف، واتصلت أكثر من مرة، وفي كل مرة كنت أغلق قبل أن يكتمل الرقم، تساءلت: كيف يكون الأمر بتلك البساطة؟! وكأن العالم كله لم يحتشد لتلك اللحظة بطقس خاص، ما من أوركسترا تعزف الجمال النائم لـ«تشايكوفسكي»، ما من «دو» تتصاعد ركضًا للـ«سي»، وما من إيقاع صاخب يصاحب رحلة صيد بدغل أفريقي تتوطنه الأفاعي وبنات آوَى، ما من مشهدٍ معجزٍ لموجة رحيم ترسلها ملائكة الرب لينجو صياد من موت حتمي، ليست حتى بتعقيد احتضان القمر

الرقيق لأشعة الشمس الساخنة لحظة الكسوف، كانت أبسط من ذلك بكثير كاسترسال نسمة في البعيد..

أمسكت الجوال بكل حيرة، فعَّلت الرسائل، وكتبت كلمة واحدة: «ليه؟!».

جاءت نغمة رسالة بعدها بثوانٍ، كان كل ما بي يسرع لانتهاك ستر حروفها، أجاب بجملة مقتضبة: «لأنها أنتِ».

كنت «سيلينا»، سقطت تلك الحقيقة بقلبي كنجم الشمال يرشدني لعالمه، في كل ارتعاشة يمنحني دليلًا إليه، في كل مرة أعود أكثر صخبًا وجنونًا به؛ فعالمه مفعم بالألوان كلها. وكل ما فيه يكشف عن تلك الحقيقة.

22

ليلة مختلفة.. ليست كليالٍ أطبع فيها صورته كوشم أهبه من روحي يوميًّا ليكتمل، أخيرًا ضمنا بيت واحد، انصرف «ناصر» بصحبة الشاهد الثاني على عقد الزواج، البيت مضاء بكامله، النوافذ مفتوحة، رائحة العطر والبخور تملأ الجنبات بما يثير الخيال ويدغدغ الحواس، تفرقت باقات الزهر بالأركان وموسيقى الفرح لـ«كيني روجرز» تغزل شركًا لائقًا بالمساء. تشبثت كفي برخام السور البارد، كززت على شفتي وتسمرت. كنت كراقصة باليه تناست خطواتها على المسرح بليلة عرض رئيسي، تقافزت الصور الشهية والاشتهاء. كنا وحيدين تمامًا، لم يكن بالحفل

ضيوف ينثرون بتلات الزهر كلما مررنا بهم أو تقدمنا خطوة للأمام، لم يكن فرحًا تطاردنا فيه البنات بفساتين السهرة الكاشفة عن سيقان جذابة، حتى إننا لم نجلس على الكرسيين الأماميين لنضحك كما لم نضحك بعمرنا، في الخلف لم تحسدنا امرأة ورجل قدرهما الفراق، النافذة المتسعة لم تتزين بعقود الضوء، ولم تتداخل بقضبانها الياسمينات.. كنا فقط نتقاسم مشروبًا ونقضم نصف تفاحة.

اقترب ليضمني، أنفاسه لفحت عنقي، قبَّل كتفي العارية فالتفتُّ لأواجه عينيه، بدت الإضاءة خافتة على وجهه.. أردت أن أصفه في تلك اللحظة، كمشعل للنار، كواهب للفرح الذي لا يشبهه أحد، أردت أن أتخيله في مشهد ناعم بفيلم كلاسيكي، بدا فيه وسيمًا بعينين ساحرتين، وملامح وادعة، شعره يبرق بنوع من الفازلين

الزلق مثل «فرانك سيناترا»، بقميص ناصع من الساتان يكشف تفاصيل صدره، يتحرك برشاقة ممسكا سترة سوداء أنيقة، حاكها عند خياط ماهر بحي «مونت كارلو» الفرنسي، يهمس بينما يضمني «الطريقة التي تبدين فيها الليلة»، يسألني الخروج في نزهة أفقد فيها عمدًا مهارتي في الركض لأصبح أسيرته، أردت أن أفعل ذلك كله لأوقن بجنوني المطلق به فهو العقل ذاته، وإيماني بسواه هو الجنون.

بالداخل اشتعل فستاني بغابة من لمساته، وبي رغبة مَوَّارة أن تترك الليلة أكثر من آهة مرسومة على وجه بعثرته القبل، رغبت بسيجارة لعل دخانها يحرر خواطري السجينة، بدا مندهشًا من ذهولي، حينما تطلعت بوجهه بعينين شاكرتين متفرستين منحني قبلة على جبهتي.. تمنيت أن أستعيد تلك الصغيرة قبل سنين، فتاة

المدرسة بقميصها الأبيض وجونلتها الزرقاء جالسة على السلم تطالع مجلة الموضة بشغف، وددت لو أستعيد بكارتي ليكون مغامرتي الوحيدة، فأتجرد له ولأجله فقط أنزع ثياب الخوف، أركض عارية مني، فأهبه نفسي بالكامل، وددت لو أختبئ به فتهزمني ضلوعه.. خطواته نحوي أضاءت دنياي المقفرة، تلك اللحظة الفارقة التي استدرجتني فيها رجولته، تلك الإشارة التي احتوت تيهي، واجهني بعينين مشاغبتين قائلا:

- نرقص؟

هززت رأسي وقلت:

- أكيد.

توسدت كتفه، قبلته كما فعلت بأمسيتنا الأخيرة، لا أدري من أين أتت تلك الأنانية التي استولت على أفكاري، أردت لو تنتهي

الرقصة قبل أن تبدأ لنمارس طقسنا الخاص، لكننا لم نفعل، تماهت حركاتي العفوية وحركاته المدروسة، جذبني إليه، تهنا في فضاء الغرفة الواسعة، الدنيا كلها ترقص وتدور، كل الأشياء تميل، إيقاعنا الصاخب يشاغب حضور الليلة، نبضه الحاد، ووقع حواسي النقري. «How deep is your love».. همست بها مع الأغنية، قلتها بسري كمن تلجأ لحيلة تريحها من أثقالها. نعم أحبك و« كم هو عميق حبك ». رددتها خمسين مرة، ستين مرة، مائة، رددتها ألفًا. رددتها كثيرًا، كثيرًا جدًا لأثير تلك الدوامات، دُرنا معا، الكون تنورة فضفاضة حاكها الوجد فتلونت، والمسافة من مرقصنا لمتكأ غرامنا سحابة صيفية عابرة.

– سعيدة؟

– مش مصدقة نفسي.

- اتكلمي.

- بحبَك.

- بعشقِك .

- أكتر ما خيالك يتصور.

- كل حاجة فيكي.

- جوايا كلام كتير.

- اتكلمي.

- معاك باحس اني ست، باخجل وارتبك واضعف واخاف.

- تخافي مني؟!

- مقصدتش.

- وانا معاكي، متخافيش من أي حاجة.

في تلك اللحظة كان يمكن أن أقايض عمري كله بحرف منه،

حتى هذا الاستقلال الذي نلته بعد عراك طويل مع الزمن يوشك أن يعلن الهزيمة، هذا الماضي الذي يلاحقني بلا كلل سأهيل عليه التراب، تلك الأشواك التي نشبت مخالبها فيّ بكل عنفوان وجبروت سأتخلص منها، هذا الجرح النافذ بنفسي المثقلة سأداويه، أبعدت كل الأغصانِ الجافة المغروسة بشرايين ذاكرتي، ومن جديد تناثر الورد أمامي، احتضنني، ذبت بأنفاسه، استنشقت رائحته، تنفست عميقا، تآوهت بعمق، يتسرب العرق من جسدينا، توقفت الموسيقى ولم تنتهِ الرقصةُ بعد.

أذكر حين ارتعشتُ بين يديه لأول مرة، بعدها فارقني النوم، أعدت الغوص في عينيه حتى أثبت لنفسي أنه حقيقة لا وهم وأنني واقع لا حلم، لا أذكر إن كان ضمني أو أني ارتميت بضلوعه.. لم أخجل.. تشممته، داعبت شعر صدره بأصابعي،

فرقته، لهوتُ به، جذبته بشفتيّ، شعرت بسخونة نبضاته.. رغبت بالبكاء، وأنا ملتصقة به في استسلام تام.. سألته عن مطر انهمر في غير موعده فقال:

- لأنه الفرح جورية.

كيف لا يكون فرحًا وهو لي.. ساعاته لي.. جنونه لي.. شوقه لي.. نومه، يقظته، شروده، دفاتر تدويناته، فنجان قهوته، سيجاره، معاطفه الشتوية، جواربه، فرشاة أسنانه وموسي الحلاقة، وجهه، جسده، نبضه، حرارة خلاياه، نوافذ أحاسيسه، طقوس غرامه، ارتعاشه عندما تغرقنا الموجة فيجمعنا جسد واحد؟ ما الذي يحدث وهو لي؟ كل ضجيج العالم مصير المغرمين، وضجيجنا كهفنا نلوذ به فلا يتسع لسوانا، وحين ننفلت يحدق بي طويلًا، يتنفس بعمق، يقبل كفي ويهمس:

- انتِ بنوتة جميلة.

لم أفهم هذا التناقض، كيف تكون مشاعرنا بهذه القوة ويسحقني الوجع كلما رفع رأسه لنتبادل صمتًا غائمًا بعد طقس الحب الجميل؟ وبكل جنون الحيرة تسأله عيناي: «ها؟».. فتجيء إجابة فضفاضة: «انتِ السر الوحيد اللي اتمنيت أصارِح الكون بيه».

- لحد امتى؟

- اتكلمنا ف ده كتير.

كان عليّ وقتها أن أَقدر وضعه المعقد كونه فرض ظرفًا لا يلائم احتياجي، تصرفت كما يُفترض أن تفعل سيدة راقية. تجنبت المناطق الوعرة بكلامنا تفاديًا لحدوث أزمة، كنت مذهولة من أننا غير قادرين على صنع حياة كاملة متخمة بالتفاصيل، كنا دومًا نتحدث بينما نرمي نظراتنا صوب الشرفة أو النافذة، وكأننا نطلب

المدد من السماء، فيرفع كفي بهدوء ويقبِّل أناملي، فأشم رائحة الشتاء، أرتعش، تتشابك أيدينا بقوة، يسارع إلى عينيَّ الذابلتين، يرفع ذقني، يكبلني احتياجه الدائم، نتداخل، نتعشق من دون أن نترك فرصة للوعي لامتصاص مشاعرنا على مهل، ويظل داخلي يشعر بالنقص، وكأني أهبه برضا منحة امرأة عابرة.

***

تتابني نوباتُ بكاء صامت في حين يخالني نائمة، يأتيني وقع خطواته بينما ينسل بهدوء لحجرة المكتب، ألمح انعكاس المصباح على أرض الصالة، تنهمر الموسيقى، يستمر تدفق اللحن حتى يقرر التوقف عن الكتابة، أمرُّ به أحيانًا، أحتضن رأسه وتروح عيناي تفتشان بين السطور، يخيَّل إليَّ أنه يكتبنا، أو أنني ربما مررت صدفة كعابر سبيل، أدرك أن لحظات متعتنا هي حافزه

للتوقد، ليست مصادفة أن يتدفق طوفان إبداعه بعد كل لقاء، وحين أسأله لا ينكر، خفت أن أكون «سيلينا سيدة الدهشة»، حالة يتقمصها شعوره فيتسرب الهوينى للخيال فيكتب ويكتب ويظل يكتب حتى يعتريه الملل أو يزوره النوم أو ينفد المداد.

– ارفعي عينيكي يا «جوري»، ما تخبيش وكأنه سر، سهرك وقلقك وارتباكك بيقولوا كتير.

تمر الليالي.. كنت أتمدد عارية بحوض الاستحمام لأكثر من ساعة، يطرق الباب، وبقليل من الجهد يدلف، يطيل النظر إليَّ ويردد الجمل المهتمة نفسها.. تربكني لمساته لعنقي المبتل فأستدعي ابتسامة وبعض الهدوء لأجزائي، يمد أصابعه للنهد الزلق فأجفل، يسلمني لخدرٍ يُذهب حذري، ويراهن على استكانة جسدي المأخوذ، يجفف شعري في عادة جديدة، تمتد يداه لتحاصرا

وجهي، تداعبان أذني وتطوِّقان ابتسامتي، أمنحه أفكارًا متهورة، أفككه وأجمعه، أذيبه وألملمه.. أشغله عن خيالات قديمة مشحونة بحقائق ملموسة، يفرغ في احتياجه العاطفي في مقابل عناوين جذابة لمجموعة جديدة تيمتها الغواية.. عناوين رائعة مدهشة كـ «نهود الجنيات، عطش التوت، أعشاب شيطانية، أناشيد لامرأة عارية».. كان واثقًا دومًا أنني هناك؛ فالتورط ليس سوى قبلة.. والبداية دومًا حضن عابث.

شتَّان ما بين لحظاتنا، أغرس الزهر لأحيي حديقتي فيجمعه ليؤنس عمره الحيران، وبالنهاية ألوذ بالفراش لأحتضن الوسادة، فتتلمس أناملي المفتاح، أكوِّر شفتي عن آهة، يغمرني فرح اصطناعي يبعثر شعري المبتل ويُذهب رجفتي، أتناسى الفرق بين وجهه المسالم أبدًا والآخر الحاد الشهواني، تُذهلني لقاءاتنا الساخنة

بهباتها المشروطة، خواتمها الماسية، عقود اللؤلؤ، فساتين السهرة والسترات الجلدية، تلك العطور الغالية التي كنت أنثرها بمواضع النبض لتثير جنونه، لم يعد يمكن أن أحصي عدد المرات التي فاجأني فيها بهدية من نوع غال، ولا تفويت مناسبة من دون منحة تستحق الثناء، لكنها اليوم كرايسلر سوداء، فاليوم عيدنا الأول، ليلة مختلفة سبقتها لوحة غنية بالصور، بدأت بباقة تيوليب ساحرة تتوسد شرشفًا أرجوانيًّا ناعمًا، بالأجواء يعبق عطر فرنسي تراوده زجاجة مشروب معتَّق بلون ذهبي، وانتهت بجسد ممدد مفعم بالرغبة وليل طويل ينتظر من يعبره.

قال إن مفتاح سعادتنا مرهون بتلك الأوقات، وأن تلك الحالة من النشوة التي خفنا أن تنتهي، لن تخفُت أبدًا طالما غمرني فيضان كرمه، لكنني بالفعل كنت أرتجف من الفكرة، أرتجف كلما أدركت

أنه جنون مؤقت كنت أكثر منه توقًا إليه.

أيام طويلة كنت أفكر في كلماته ف" السعادة دوما تبدأ من هنا" هذا السرير، تلك البقعة النارية التي تلتهمنا، هذا الجب المتوقد الذي نلقي بجسدينا إليه، ليؤجج طيشنا.

خالد الرقيق المهذب يخفي وغدًا شقيًا يمارس العشق مستمتعًا ولا يفوت تفصيلة، يمارسه برعونة ولا يترك شيئا للصدفة، يدخل العلاقة بنية مكتشف، لأصبح أنا تلك الممنونة المجنونة الغارقة حتى أذنيها ببحر الرغبة، والتي تتنشق الروائح وتتذوق الطعم ويبهجها الملمس، أصبح تلك الأنثى التي لا تكتفي.

***

فاتحني برغبة بحفل توقيع لعمله الأخير «هرطقات»، بعدها قال سيرتب لمفاجأة. لم أكن أفكر إلا في شيءٍ واحدٍ، إعلان زواجنا،

تشبثت بساعده كطفلة، وتوسدت صدره، وعقلي يموج بكثير من الأسئلة، وللموقف الذي يشبه الدوران بمتاهة، أغلقت عينيَّ.. لم أعد أتذكر شيئًا غير نهاياتنا المفتوحة دوما على احتمالات الضجر، ووعوده المفرطة بالإقلاع عن التدخين، ووعودي في المقابل بالتوقف عن التفكير، ووميض الصور الأخرى المتلاحقة غير المنطقية حينها، طلاء شفاهي الأقل تشبثا بالأشياء، بكرة مناديل جديدة برائحة القرفة، تنانيري المحبوكة، قصة شعري المودرن، زر الريموت العالق منذ الأمس، مصباح الغرفة المحترق، حساء الدجاج المقزز بنكهة الهليون. أشياء غريبة واهية. كان ألطفها سن حذائي المدبب وكيف أنه يسمح لي بنقل خطواتي بحذر، مصعدنا المتاهة، خطوة الرقص الخامسة قبل الالتفاف، والسقوط بين ذراعيه، مقدمة حذائه، قبلة الخنصر

الأخيرة ولعقه أصابعي، صار يعبر بين خيال وخيال، وفكرة وفكرة، قال بمكر رجولي:

- هاتكتبيني، تأملاتك توحي بكده، عارف أعراض المخاض على الورق، مش متفاجئ على فكرة، بس خايف تتألمي.

مسدت شعره بكفي، وقلت:

- هكتبنا في رواية.

نظر لي متصيدًا رجفة عيني:

- رواية! فعلا! ده شيء جميل.

- اقتنعت بكلامك.

- ممكن نكتبها سوا؟!

ضممت وجهه بصدري، شعرت بسخونة أنفاسه:

- طبعًا ممكن.

رفع رأسه وقال بفضول:

- فكرتي في عنوان؟

قلت بشيء من تحفز:

- طبعًا.. المستبد.

صمت لبرهة وعاد يدقق في الأوراق على الكومود، ثم أردف:

- غريب عنوانك جدًا، والأغرب إنك شايفاني كدا.

- المعنى في قلب الشاعر، اللي محيَّرني بجد إني لسَّه مش عارفة النهاية..

نظر إليَّ بوجهٍ عابسٍ:

- خلينا نختارها سوا، بس ليه تسميها نهاية؟! ده شيء سخيف جدًّا على فكرة.

- ده شيء طبيعي. مش سخيف.

– أحيانا بكون مش فاهم مع إني الأقرب لك.

رمقته في شرود، قبَّلت رأسه، تركته يمارس طقوسه وعدت إلى غرفتي، فكرت بهذا المساء وفي كونه هنا، فكرت بالغد وأين تُراه سيكون، فكرت بي، وفكرت بنا، أيها الحاضر الغائب، كيف تراني سأكتبك؟!

***

الوقت يمر بطيئًا كسلحفاة، الساعات متناثرة بالجُدُر تحدق بي متسائلة عن مساءٍ مملٍ لم ينقر صحوَه صوتُ مفتاح، ولم توقظه من غيبوبته انفراجة باب، ما الذي سيحدث لو علقت اللوحة التي ابتعناها معا؟ لا شيء، جاكوش ومسمار وبعض دقات متتاليات تنتهك أصداء الصمت، قليل من الإزعاج للجيران الذين لا أعرفهم، يخيَّل لي أحيانًا أن لنا طفلين، أحدهما لم يتعدَّ العام

والآخر ثلاثة أعوام، يقفزان فوق سرير يرتكن إلى الزاوية، يلعبان، يصرخان، يغفوان بينما تحيطهما الدببة والعرائس، ما الذي وهبتني أحلامي غير الإفراط في مشاعري وغير التمسك بها أكثر؟ دومًا أتهيأ لك على الرغم من أني أعرف النتيجة مقدمًا، كُلي يئن من رغبة تلائم إعصارًا، تترقب اللحظة بعيني خبير يجيد قراءة المؤشرات، تمعن في الإنصات، ترصد كل تغير، تضبط كل شيء حتى إيقاعك، تدرك أنها اللحظة الفارقة، تخشى من اندفاعك وثورة بركانك، ترهقني محاولاتي لتطويق حركتك فيحدث ما تخشاه، لكنك دومًا هناك بمنتصف المسافة، لا يمكن أن أخبرك حينها أني بانتظار غيمة واحدة في مكانها لنقاوم التصحر، وربما تولد بعدها في الأفق نجمة، لكنك دومًا شهاب يشاغب في البعيد، ارتدت عيناي للغرفة الإضافية التي لم تستوعب سوى الفراغ، وارتد

لي صدى الأنفاس محملًا بطاقات الملل كلها.. أعادني لتلك الليلة قبل شهرين.

«أحنُّ لطفلنا الذي لم يأتِ»، دوَّنت الجملة بهامش الجريدة التي يطالعها، تناول رشفة من فنجان الشاي المر متجاهلًا مرارته، تناولت قطعة سكر وأضفتها له، فتناول أخرى ووضعها بفمي، كانت مُرة كفنجانه الذي لم يشكُ مرارته.. نظرة عيني أرعبته وصمته كذلك، وجَّه نظره للصحيفة، قلَّب أوراقها، كانت إحدى دلالات الغياب، قلت:

– لازم وقفة يا «خالد»، انت عاوز ست من نوع خاص، مش بس احتياج عاطفي.. فاهمة ده كويس، حد يفهمك.. يستوعبك، يرضيك ويرضي غرورك.

أسند ذقنه إلى كفه المضمومة بانتظار تتابع الكلام، فقلت:

- أنا عمري ما حددت قيود على علاقتنا، بس صعب كمان نختصرها في مجرد رغبة، أنا بدِّيلك كل اللي ممكن تحتاجه من واحدة ست، وانت بتحرمني من أكتر شيء تحتاجه أي ست.

أضافت جملتي شيئًا من الضيق فاربدَّ وجهه، لكني تابعت:

- افهمني من فضلك.. خليك مكاني.. انت مش ليَّ لوحدي وكمان عندك بناتك.. على الأقل لازم يكون بينًّا اللي يخليني أتحمل.

التفت إليَّ محتفظًا بقطبة حاجبيه، وقال بلهجة حادة:

- مش أنا بس اللي محتاجلك، انتِ كمان محتاجة لي وأكتر، من غيري بتمري بأزمة ثقة.. انتِ عارفة بعمل إيه علشانك، ومع كل ده شايفاني مجرد راجل بيدفع مقابل متعة وست بيتمناها.

تظاهرت بالتماسك، وقلت:

- أفهم من كلامك إنك عاوز واحدة ترضيك من غير أي التزام؟

- انتِ مجنونة فعلًا.

زفرت بعصبية لم تفلح في إزالة الثقل الذي يعذبني، كنت أدرك أن القدر وحده قادر على منحي ما أريد من دون عناء، فقط لو ابتسم، أصبح كل منا لغز الآخر، تكلم بموضوعية لا تلائم احتياجي الإنساني بتلك اللحظة بالذات، في النهاية سألني ما إذا كنت قد فهمت أو تفهمت، كانت مرة أخرى من مرات جدلنا العقيم، دائمًا نتحدث عن علاقتنا بحذر، لكننا نستفيض حين نتكلم عن العالم وأزمات الوجود.

سكت للحظات وعاد ليكمل:

- مفيش أقذر من كدا؟!

وددت لو أسأله: ماذا تخبئ تلك المرة غير تلك الترهات التي تأكل

منك؟ لِمَ تزاحمني تلك الأشياء السخيفة فيك، ولا تزاحمني كتلة حمراء تنبض لها ملامحك وبعض مني؟ لماذا نخوض النقاشات العقيمة نفسها؟ ولماذا تفضي دومًا إلى النهايات ذاتها بشكل نوبات صداع حادة وألم بالمعدة لأيام؟!

- في العشوائيات أطفال بعدد حبات الرمل، تفتكري إنهم مرتاحين فعلًا، أو لهم دور في صنع سعادة من أي نوع؟! دي أقل حاجة بيبيعوها دمهم عشان يقدروا يعيشوا. حتى أهاليهم بيعملوا كدا.

- .....

- طبعا مفيش رد!

رغبتي في الحديث تلاشت، لكنه تابع:

- شوفي الخبر ده.

ناولني الجريدة، طالعت عنوانًا جانبيًّا بصفحة الحوادث:

«يلقي بعشيقته من النافذة خوفًا من زوجته».

عدت لأنظر إليه وأقاوم حيرتي، لماذا يثير ضيقي لهذه الدرجة؟ يتعمد أن يترك أسئلة يعجز عن إيجاد إجابة لها، لم أفهم ما الذي يعنيه بتلك الحادثة، تراه يرمي إلى علاقتنا المربكة، أم زوجته التي يخيفه فقدانها لو اكتشفت ما بيننا، تساءلت: كيف يتحول هذا الرجل المفعم بالحب لقاتل يصوِّب الكلمات لتصيبني في مقتل؟ كززت على أسناني متشبثة بخيط ضعيف من التماسك، أصابني الوجوم فسألت:

– إيه علاقة ده بكلامنا؟ ليه مصمم تجرحني؟

– مش فاهم، إيه اللي بتقوليه ده؟ إيه علاقة ده بينا أصلًا؟!

ناولته الجريدة، وأشرت للحادثة فزفر عميقًا حتى ظننت روحه تبلغ حلقومه، أشار لعنوان آخر بأقصى يسار الصفحة:

«تذبح عشيقها وشحاذًا عجوزًا بعد ضبطهما متلبسين بالشذوذ».

- إيه الغريب؟ صعب جدًّا تثق في راجل اليومين دول، سواء كان زوج أو عشيق.

- كملي.

«طعنت فتاةٌ عشيقَها بأكثر من عشرين طعنة نافذة، فأردته في الحال، وحين وُوجهت المتهمة اعترفت بارتكاب الجريمة، وقالت إن صديقها دفع العجوز لممارسة الرذيلة مقابل عشرة جنيهات، الفتاة تدعى مريم سعيد، وتعمل بائعة مناديل، وكانت تنفق على صديقها العاطل، وتجلب له الحبوب المخدرة».

مع كل حرف كنت أزداد قناعة أن الحياة خدعة، وأنها على كل ألوانها ليست غير شرك للمستضعفين، اتسعت حدقتاي في ذهول، لا سيَّما بعد أن قرأت الاسم، شعور مباغت بالقهر ملأ كياني،

ورغبة في أن أمضي وأدع هذا الهراء كله، رغبة بالركض في شارع مظلم أو حتى يختفي الأسفلت، رغبت بركوب حافلة خالية، والصراخ حتى يبح صوتي أو ينتفض الكون، أي ختام بارد هذا يا مريم؟ بل أي وجع أهديتني؟ أي صورة لعالم يتداعى قبحًا كل يوم؟ في الكون خلل. قلت بغضب:

- الناس اللي عندها ايمان مطلق مرتاحين، واللي ميعرفوش ربنا برضو، اللي ف النص مابين ايمان مطلق وشك بيموتوا بدل المرة ألف! إيه المنطق في كدا؟! أنا تعبانه مش فاهمة حاجة. زي ما يكون ربنا بيختبرنا بضعفنا، بيوجعنا قوي عشان يشوف احتمالنا.

- ما لك؟

- تعبت.

- ممكن تهدي وتفهميني.

– أنا نفسي ما بقيتش فاهمة. ليه العالم كريه للدرجة دي؟!

وددت لو أفجر القتلة، اللصوص، متعاطي الترامادول، المتحرشين، سائقي التاكسي، واضعي اللافتات، أمناء الشرطة، زنازين التعذيب، طياري الديليفري، المحامين، جزاري الرحمة، بدينات التمريض، موظفي شركات النت، امرأة الخدمة الصوتية، بائع اللبن المخلوط، زوجة الحاج ونفسي.. بعناء شديد استطعت أن ألملم الحروف.. قلت بضيق:

– حلمها ما كانش أكتر من رغيف عيش تاكله ونومة مرتاحة، ليه يحصلها كل ده؟!

– بتقولي إيه؟ مين دي؟

– مريم اللي أعرفها كان حلمها بسيط، ليه تتحول بين يوم وليلة لمجرمة؟!

– انتِ تعرفيها؟ مش يمكن تشابه أسماء؟!

– ويمكن لأ.

– ولنفرض إنها هي، ده يؤكد وجهة نظري مش ينفيها.. نبقى أغبيا لو فكرنا نجيب أطفال تتعذب في عالم زي ده.. إحنا اللي بنصنع سعادتنا مش العكس.. ومش كل اللي معاهم أطفال مرتاحين.

على الرغم من أن عبارته الأخيرة لم تُضِف جديدًا، فإنها نزلت على قلبي كسكين، أدركت عمق المأساة، تزوجت في السر رجلًا له زوجة أخرى، وله منها بنتان، تبينت أنه من العبث الجلوس والانتظار لشيء ربما لا يأتي، كنت مجرد فجوة في حياته، بين عمله وبيته، فجوة يقذف بجوارها سائله ويمر، أي عبث أن أنتظر هذا الوقت كله لينتهي الحال بي مجرد فجوة، توضع بداخلي

الأشياء كلها لتثمر خارجي فرحًا لم يكن أبدًا لي؟! لم أكد أتماسك حتى أسترسل بهدوء، قال إنه لا يريد أن تتأزم الأمور بيننا، ربما نحن أكثر سعادة الآن، وربما أن لهاثي المحموم خلف جنين هو مجرد حالة تنتهي لو أن القدر فاجأنا بطفل مشوه أو به إعاقة ما، كانت كلمات قاسية تمامًا كخبر الجريدة وضياع «مريم» بشكل نهائي، أي جبروت هذا الذي يمارسه العالم ضدنا؟ أي تعنت هذا الذي يسهم فيه البشر تجاه البشر؟ أي عقل جبار هذا الذي يحدثني وبالأدلة المنطقية الممكنة كلها؟!

كان يتكلم بينما أنظر إليه ويتآكل قلبي وجعا، منشغلا بترتيب أفكاره، منشغلة بلملمة كبريائي، مهموما بإقناعي، مشحونة بالبكاء، حسبت ما بيننا لم يكن مجرد علاقة تنهيها ارتجافة النشوة بلحظات لقائنا المحمومة، كانت تشبه المغناطيس يجتذبني باتجاه

محوره فلا أملك الانفلات، يظن أن لحظات توحُّدنا المعدودة تحقق بعض ما ينقصني، لكنه لا يدرك أنني ما زلت ملتفة حول نفسي بانتظار ميلاد حقيقي يفكك أجزائي.

كانت ليلة سخيفة تركت بي من الحيرة ما لا يُحتمل.. لم يمكث طويلًا، رشف رشفات متلاحقة من فنجان الشاي، هز رأسه ممتنًّا، وربت على كتفي، وغادرني لينام.

23

قضيت معظم الليل أدوِّن، بينما كنت منكفئة على المكتب لا أكاد أنتهي من ملء ورقة تلو أخرى، ذكريات الأمس الكئيب بكل

تفاصيلها ترتسم في الأفق، في تلك الليلة الفارقة لم أنَم دقيقة واحدة. انسحبت للغرفة، أغمضت عيني لأوهمه بأنني نمت، غير أني ظللت مستيقظة، استعدت حياتي كلها صورًا متتابعة، كل ما قلته، كل ما لم أَقُلْه، عُدت إلى نفسي، عرَّيتها تمامًا، أدركت أن انتصاراتي العاطفية كلها مجرد هزائم متتالية، سمَّيتها كوارث، زلازل، أعاصير ربما.

لم يكن الليل مفلسًا إلى حد أن أجدني أراقب تلك الكآبة كلها بصبر غريب، فتولد بين أضلعي غمامة، تكبر فتكبر لتبتلعني، يقال بأن الأرض الميتة يمطرها الغمام فتحيا.. تلك الأرض هي أنا، فأنا ميتة بك، وأحيا بك.. أحاول بدأب أن ألصق صورة لامرأة – كنت قصصتها من صفحة الملحق – لأثبتها على وجهي، تثبت برهة ثم تسقط.. لكن، ألن ترسم أبدًا ملامحي؟!

***

صباح جديد، أيقظت ساعاته بينما أغتسل من بقايا ليلة حقوقية بحتة، لم يكلف نفسه بعدها عناء تقبيلي، فقط لأنه كالعادة ما يفلح في انتشال رغبتي من ركام القلق، يضمني بنزق الثورة وأقاوم بمكر السياسة، وبدلال امرأة تمارس طقوسها، تسقط أقنعة التفاوض. تطلعت له لأجد عينيه معلقتين بالباب الذي اندفع إليه ليغلقه خلفه بإصرار.

بالمكتب، توقف أمام منضدة جانبية تعلوها بعض نسخٍ قديمة لأعداد سابقة، قلَّب فيها من دون كلمة، تابعته حتى التقت أعيننا وارتدت في فتور، تراه الرجل الذي قبَّلته صباحًا، وأغلقت الباب خلفه قبل أن أعيد ترتيب الفراش، وأتفقد اللحم للغداء، وكأنه ليس هو؟!

– «كريم»، من فضلك نزِّل خبر عن توقيع «هرطقات» في المركز الثقافي الروسي الخميس الجاي، بعده هاكون بره مصر لأسبوع.

كان عليَّ أن أستقبل جملته الطويلة بابتسامة وحركة تعني الاهتمام، أو أن أقولها مكورة شفتي: «وااووو»، لكنني وجمت، سرت سخونة بجسدي، سخونة حادة غلفها صقيع نفسي، وكيف لا؟! عاتبته مساء فأطلق ضحكة مصطنعة وتعلل برغبته في منحي مفاجأة، سادت حالة من الضيق طيلة الأمسية لم يخفف احتقانها برنامج «التوك شو» الشهير، ولكن أنهتها زفرة حارة افتعلها قبل أن يقوم متجهًا للنافذة:

– حاولي تكوني سعيدة يا «جوري»، حاولي، بعمل المستحيل عشان أسعدك، ومع ذلك مفيش فايدة.

وقف في الهواء البارد بضع دقائق يدخن سيجارًا ثم أغلق النافذة، ربت على كتفي وقبَّل جبهتي، وانسحب للداخل لينام.. ما الذي يحدث هنا؟ ما الذي يتسرب؟ أشكو من ضجر عالق فلا يهتم، أزفر فيختنق ويكتسي وجهًا عابسًا، أتململ ضيقًا فلا ينطق ويغادر، يلتقط السترة ويتسلل للخارج بهدوء، يأمرني بغلق الباب وإحكام المزلاج، أي قناع بارد يغلف قشرته؟! أخبرني مرة أن للأشياء حق الجنون بقربي، وإنني أعيد للجمادات حقها في الحياة، وكيف لا، فالكلمات تخرج من فمي بأجنحة عصافير، أتراه نسى؟ تدهشني حالة الدفء التي تغمرني كلما استعدت بداية أشواقنا، ثم لا تلبث أن تصبح هاجسًا يحفزه الفقدان، سأتدبر الأمر مؤقتًا، سأرتب حقيبة السفر، وأعيد تلوين شعري، سأشتري الكثير من الملابس والأحذية، سأضحك ملء روحي وعينيّ، سأمنح

الأشياء بهجتها، وللأكاذيب ألوانها، إنه الأسبوع الأمثل بعمر زواجنا، وقبل كل شيء سأعمل بنصيحته، سأحاول أن أكون سعيدة – فقط –لأنني أستحق.

24

تونس، المدينة القديمة بطرزها العتيقة، نتأمل الأشياء كأننا نعيد اكتشافها، نتسابق للدرج الحجري مأخوذين برائحة البخور، ندلف للمقاهي عبر أبواب خشبية مزدانة بحلي من نحاس، نقطع الأزقة الضيقة معًا، نفتش عن ممرات سرية بين البيوت تنفتح على شوارع واسعة نقطعها ركضًا، نجلس على السلالم الرخامية لنتأمل

البيوت بجدرانها الجيرية البيضاء ونوافذها الزرقاء، نأكل في أحد المطاعم المحلية البسيطة، لا تزيد مساحته على عشرة أمتار، ويقدم وجبات بيتية.. تلتقط آذاننا الفرقة الموسيقية بالساحة، نتسابق إلى هناك، تسحرنا التنانير بتداخل ألوانها، لها نفس سحر ابتسامته، يدور الراقصون، لا تتوقف الرقصة، تميل رؤوسهم للجانب باتزان، لكن لا يزوغ بريق ضحكاتهم، تدور التنانير، تعلو وتهبط، تتشابك لتلتحم، يدور كل شيء.. فلا منطق محدد لفلسفة عنوانها الألوان والموسيقى ووشوشات المحبين، كما لا نهاية لهالة تثيرها تنانير يحيكها قوس قزح.

نستمع لخطواتنا بالطرقات المبلطة، نقر متسق بإيقاع نقري، لم يكن صعبًا أن ندعي كوننا راقصين بارعين، خاصة حين يلف يده حول خصري، فألقي برأسي فوق كتفه فتأخذني عيناه ويسرق قبلة،

نتعانق بعدها ونعود نتأمل المشربيات الخشبية والأبواب المتينة المسمرة، ندلف سرًّا لحدائق افترشت أرضها قطع الخزف والفسيفساء، وتسلقت أسوارها نبتات البوجانفي والياسمين، لم تتوقف روحانا عن التقاط الصور، لم يفُتنا كمش تعابيرهم في المقهى العالي أو من خلف أسوار الجامع الكبير، أو حتى لنا بمساعدة من أحدهم، شوقي إليه جعل مني امرأة أخرى، كنت بحاجة لجنونها، امرأة تمنحه نفسها، يغرق في عطرها، يقبِّلها أمام الجميع، يصحبها للمطاعم الفاخرة والبازارات، يمنحها تذكارات وقلائد فضية وأساور مجدولة، وفي الليل تتقلب بين ذراعيه كسمكة، فيتقاسمان غرامًا لا يُنسى، كنا نعود منهكين في المساء، يحتضننا الفراش بعد أن نتشارك حمامًا ممتلئًا بفقاعات الخزامى، ثلاث ليالٍ بفندق La Chambre bleue كفيلة بإحداث معجزة،

لو أنه جني المصباح بنفسه لكان عاجزًا عن الإتيان بهذا السحر كله، أي هذيان استحوذ علينا حين وطأنا الجناح المتسع بنوافذه الرحبة؟! كان ضخمًا فسيحًا بأرض من الفسيفساء، وكان السقف بشكل قبة برسوم بارزة لملائكة وألوان وتجاويف مضيئة، شعرت كما لو كنا فوق بساط يحلِّق بنا في عالم من أجواء أندلسية، أو ربما كأننا ننفذ عبر فجوة زمنية لمشهد عاطفي بفيلم «كازابلانكا»، ارتميت بصدره.. عانقته قائلة:

– مش مصدقة، كأنه حلم جميل.

– مش بجمالك حبيبتي.

بالصباح وقبل أن نخرج، حكيت عن حلم راودني، كنا طيلة الليل ننزح الماء من غرفة طافية فوق نهر لتخذلنا القنينة المشروخة ولينفد الماء.. أسكتتي بقبلة على خدي.

قُدنا سيارة مستأجَرة، رأينا عن يسارنا أراضي واسعة ومروجًا محاطة بسور مزخرف وقلعة عالية على الامتداد، كان مكانًا أثريًّا تحيطه بوابة كبيرة وورود ملونة، وخضرة ممتدة على مرمى البصر، دُرنا حول السور العالي، وجلسنا على إحدى العتبات، بالكاد احتوت جسدينا، كنا ملتصقين تمامًا، أمسك «خالد» بكفي، فرد أصابعي، منح خنصري خاتمًا جديدًا، ملت على كتفه لأعانقه، أحاطني بذراعيه، شعرت بارتجافة لذيذة، قبَّلني عميقًا، غرق في شعري المتماوج وهمس، إعصار من الزفرات الحارة تلفتُّ بعده خشية أن يلمحنا أحد العابرين، بالطريق الجبلي أخذني بكاملي جانبًا.

- بتعمل إيه؟

- بطلي كلام.. أرجوكي سيلينا.

بجبل سيدي بو سعيد وددت لو انغمسنا بعمق التيه، وضمتنا ظلمة الكهف، لنفعل كما فعل سيرفانتي وسيلينا، قبَّلته وبين شفتيه غاب عقلي للحظة، حين فتَّش عن الأخرى بداخلي ركضت خوفًا، أربكتني نظرته الجائعة، ونحن نقطع المنحدر، كدت أتعثر فجذبني إليه، أمطر وجهي بقبلاته الشبقة، كان من الغريب وقتها أن أستعير مشهدًا لـ«ناصر» و«داليا» يمارسان الغرام، حضرا تلك المرة وبإلحاح، لا أدري لماذا لا أحتل مشاهدي معك؟ لماذا أكون بحاجة لاستعارة أخريات لأمارس الجنون؟ فأعيش كسمكة بقلب إنسية تتوق للشاطئ، أسبح ضد التيار لترميني موجة للبر، وبين يديك تذوب زعانفي وقشوري وتنضج رئتاي فأتنفسك، أنتزع من على وجهي قناع اللياقة لنمارس المستحيل، ونركض معًا لعمر مسروق من زمن الناس، لكني يوم تلبست وجهي لم يكن

الإحساس ذاته، كانت رقصة المولوية على سلم ضيق، تساءلت في حيرة: تراني سأكمل الصعود أم أن طاقتي أقرب للزوال؟ يا الله، وكأنني بحاجة لمعجزة!

«كوني سعيدة يا جوري».

***

في يومنا الرابع، كنا بساحل سيدي بو سعيد بالضواحي الشمالية للعاصمة تونس، ما الأكثر سحرًا من مدينة أُقيمت بالكامل فوق جبل ضخم يكسوه الشجر ويبطنه العشب، وتمتد بمنحدره الغابات؟! كأميرة منحوتة تتوسد زرقة ودفء المتوسط، تنعكس إضاءاتها بوداعة على الساحل الممتد، وتنتشر بها أعداد مهولة من اليخوت الفارهة، كنا بناظور سيدي بو سعيد طيلة اليوم، يتوسط ربوة خضراء، بنهايتها يلتقي الشاطئ والخلجان، كان الموج

يضرب الصخور الراسخة برقة، وكأنه عناق حار، وبين الصخور ازدهر الورد، ونمت الكثير من الطحالب الخضراء، كان من المدهش الاستماع لسكان المدينة المحليين يتحدثون عنها بشغف، كنت مشدوهة من الصور التي عجت بها حوانيتهم للمشاهير والكتاب بين الطرقات وعلى المقاهي يحتسون الشاي بالنعناع ويتناولون البمبالوني.

تكمن الروعة في التجول باكرًا في أزقة القرية الوادعة، وبين الممرات الضيقة المرصوفة بحجارة بات سطحها أملسَ بفعل المشي عليها لمئات السنين، حينها تخترق مجالنا صوت العصافير عبر الشوارع التي احتضنت بلطف عبق زهور البرتقال، تفقدنا دار العنابي بنهاية السوق، التقط لنا غنَّام صورًا كثيرة، وهو شابٌ عشريني أسمر ومهذب، وكان دليلنا في الرحلة، ترك له

«خالد» الكاميرا ليوم كامل ليلتقط صورًا كيفما شاء للشوارع والبيوت، للوجوه والحوانيت، للسوق وصانعي الحلوى، سألته عن السر فأجاب بأنه سيوثق الرحلة بألبوم صور مرفق بالعدد الجديد وسيكون عنوانه «تونس في عيون غنَّام»، تصورته يعود فيدعي فقدها أو لا يعود من الأساس، لكنه اتصل بظهيرة اليوم التالي، قابلناه بالجبل، كانت الكاميرا بعنقه، وبين يديه وجبة شهية مكونة من دجاج تندوري وإناء فخاري كبير يحتوي برودو بالخضرة، وهو حساء نصف تونسي ونصف إيطالي به قطعٌ صغيرة من لحم البقر، كانت أمه مَن صنعت الوجبة خصيصًا لضيفيه، لم يشاركنا «غنَّام» الغداء وانطلق ركضًا بالمنحدر، اقتادني «خالد» لنجلس فوق تبة صخرية عالية، كان المنظر كله مكشوفًا، والنسيم بارد يحمل رائحة اليود، وبعضًا من عبق الياسمين، أرَّقني خاطر

لحوح؛ فهي مجرد ساعات، أعرف أن عمرها مرهون بالقدرة على التماسك وادعاء الفرح، وربما نوثقها ببعض سطور بدفتر عنوانه الذكريات أو صورة تجمعنا مدون بظهرها: «تونس، المقهى العالي، سيدي بو سعيد، سبتمبر 2010». أعرف ذلك كله وأعرف تمامًا أن العمر الذي عاشني قبلك.. محض موت.

تناولنا السمك بالعشاء في فيلا ديدون بقرطاج، كان عبقريًّا بنكهته الطازجة، ومذاق الصلصة المصاحبة الحافلة بتوابل المتوسط والشرق الأوسط، لم أتخيَّل أن للسمك مذاقًا كهذا من قبلُ، وربما لم أكن أتخيَّل أن تلك القطع الصغيرة التي يطعمني إياها «خالد» كانت أجزاء صغيرة من أخطبوط مشويّ، لم يكن ليخبرني عن محتوى الطبق الذي لم أظنه إلا قطعًا من السمك، أو نوعًا من المحار الكبير، في الأحوال كلها كان لذيذًا ومدهشًا، أمضينا بفيلا

ديدون، المطلة على حدائق قرطاج الأثرية، الليالي الثلاث الأخيرة، كانت هادئة ومريحة، وكان لا بد لليلتنا الأخيرة من احتفال مثير.

كانت اللفافة البنفسجية بخزانة الملابس سر «خالد» الذي حرص ألا أكشفه قبل يومنا الأخير، عندما قررنا باكرًا اللوذ بالبحر واستئجار يخت فخم، وضعها جانبًا بحقيبة الأغراض، تملكتني الدهشة حين وجدتها بين يديه ونحن على اليخت، لم تكن تلك الخبيئة سوى مايوه بكيني بلون الزهر.. اقترب مني هامسًا بعد أن غلفت وجهه نظرة حنون:

- ممكن أطلب حاجة؟!

- بتفكر في إيه؟

ابتسم في رقة وقال:

- فيكي طبعًا.

بادلته نظرة ماكرة:

- إيه الجديد؟!

قال بخفوت موشوشًا أذني:

- بالمايوه يا حبيبتي.

هززت رأسي بالنفي:

- استحالة اعمل كدا.

- مفيش استحالة، هتلبسيه وفورًا.

قلت بعند:

- لأ..

- مفيش لأ.

- مش بعرف أعوم.

- هاعلمك

- لنفرض اني غرقت!

خلع ملابسه، ألقاها جانبًا وقال:

- حد قالك إني جبان، وهسيبك تغرقي!

قفز للماء واختفى، غاب لنصف دقيقة، كاد قلبي يقفز من بين ضلوعي، فجأة انشق عنه الموج على مسافة قصيرة من اليخت، لم تحجب زرقة الماء جسده، كانت ساقاه تبدلان بانسيابية، بدا مسترخيًا، كان الأمر محفزًا للنزول، دخلت لأبدل ملابسي، تأملتهما في المرآة، جميلين لم يُخجلاني، صلبين كثمرتي رمان، كل دورة عام تذيب تكلسًا مِلحيًّا عالقًا بالروح، فأنا الآن أخف وأروع، انطلقت بثقة للخارج، وكأنني للمرة الأولى أتنفس، وضعت سترة النجاة وقفزت إلى الماء. لوهلة صدمتني برودته، بدلت إلى

حيث كان، عانقني، ذبت بين ذراعيه، غلبه الاشتياق وضمني أكثر، نزع سترة النجاة فرأى النهد الثائر يتمرد على القطعة العلوية، غمره بنظراته، غمرني بكاملي، ضمني طويلًا إليه، تماوجت حركاتنا، رفعني فوق ذراعيه. بدا لي أنه لا يوجد من هو أسعد مني في الدنيا كلها. طفوت وعيناي مثبتتان بالأفق، شعور بالتحليق يغمرني، سيمفونية من لون متدرج، زرقة السماء، زرقة البحر، رحابة المدى، صوت النوارس، عذوبة النسيم وطعم ورائحة اليود، كون من سحر طاف، نطفو معه، وكل ما عدانا إلى القاع يغوص.. يغوص.

***

صباحًا تطلَّع في ساعته، توقَّف قليلًا وكأنه أراد أن يقول شيئًا ما، لكنه تراجع في اللحظة الأخيرة، على وجهه تعبير ألم، قبل يدي

وبدت في عينيه ارتعاشة صغيرة، أخبرني عن حبه لي، وعن شعور عميق بالامتنان، في تلك اللحظة تواجهنا، تفحصته بعينين خاليتين من أي تعبير، كانت عيناه تتنقلان حولي كأنما يبحث عن شيء ما، صمت قليلًا ليعطي نفسه الفرصة للتفكير وقال:

- بتمنى أكون عملت أي شيء يسعدك، عارف إن أسبوع مش كفاية.

بالطريق إلى المطار داهمني صداع مفاجئ، وبالطائرة طفرت دموعي على الرغم من تجلدي المصنوع، فأشار بحزن إلى أني سألفت النظر إلينا، على الرغم من أنني لم أرَ في الكون سوانا، لا أعرف كيف استطعت النوم واستسلمت لغيبوبة طوال الرحلة، عندما أفقت صفعني شريط الأسفلت الآخذ في الاقتراب، الناس والسيارات والطريق يركضون إلينا في جنون، لم يكن ثابتًا غير

وجهي المتوقد حزنًا، ووجهه الثابت المحتفظ بعينين لامعتين، طوَّقت ذراعه وقبضت أكثر على اللحظة، كان صورة تتأرجح مع أنفاسي اللاهثة خلف سعادتنا المندثرة، شيء ما يخيفني، ربما وجهه الآخر، قطبة جبينه، نبرته الجادة وتحفظه الزائد. القاهرة على اتساعها لن تستوعبنا معًا، ولا الشقة ذات المستويين، ولا الحي الراقي بجهاته الأربع، ولا الكون بتفاصيله الجدلية، شغله الجوال.. عيناه تراوغان كأنه يفتقد شيئًا ما.. بصالة الوصول لا أعرف ما الذي حدث لي، أمسكت به وأنا أبكي، كدت أستحلفه أن نعود، أحطته بذراعي، تململ بينما يدفعني – برفق – إلى البوابة، كان المطار هو الخط الأخير بين عالمين، خطوات أخرى تفصلني عن ضجيجهم، حاولت أن أهيئ نفسي لمن سأقابله من بشر، تذكرت أن أحزاني تأتي دائمًا على مهل بينما تركض اليوم

إليَّ في لهاث، توالت لافتات الطريق.. سألته عن خططه لليوم فتكلم عن اجتماع مؤجَّل لهيئة رئاسة التحرير.. فكرت أننا فعلًا غادرنا الجنة، وكلانا يخصف من ورق التوت ما يواري سره.

– أول مرة أحس بالخوف كدا، مش عاوزة أشوف حد غيرنا، ولا عاوزه أحس بحد غيرك.

– ما تبقيش صغيرة، كان لازم نرجع، والرجوع مش معناه مش هنشوف بعض..

– خايفة.

– روحي زايد.

– هتوحشني.

– أنا معاكي.

– كل حاجة هتوحشني: سيرفانتي، الكهف، البحر وانت.

– حاولي تكوني سعيدة يا «جوري»، عارف إني بكرر ده كتير، ويمكن شايفاني سخيف. فكري في كلامي.. هتقدَّري مشاعري وخوفي عليكي.

بدأت أشك أن إلحاحه كان جزءًا من مقدمة تنذر بما هو قادم. لم يعد يمكن أن أتغلب على الشك الذي ينمو بداخلي، أو أن أخفي إحساسي الكامل بفضاء مقبل. وكأنه يدفعني إلى الابتعاد بشكل غير مباشر أو ربما يتخفف من أحماله لشعور ما بالذنب. كان يتقبل مخاوفي بكثير من الهدوء. يبرر هواجسه بالقلق عليَّ. لم يكُن منطقيًّا حتى في تبريره. في أعماقي ألقيت اللوم على نفسي، لكنني استطعت أن أتخيَّل الصورة كاملة عندما قال:

– كنت عاوز أتكلم معاكي في شيء مهم، وما كانش فيه وقت مناسب، عصبيتك منعتني ويمكن اخترت نسافر تونس في

التوقيت ده لنفس السبب.

– ليه المقدمة دي؟

– مش عاوزك تضايقي، بس «لورا» في مصر، ويمكن ما أقدرش أرجع زايد غير كل يومين، عاوزك تستوعبي إني مش مبسوط، عاوزك تفتكري كمان إني بحبك.. وحبك هيغفر تقصيري، أنا متأكد.

داهمتني الصور القديمة ورغبت في البكاء.. تماسكت وتساءلت للحظة: ماذا يفعل الذين يُمنعون من البكاء بموقف كهذا؟ كيف يواجهون الحقائق المخزية؟ وكيف يمكن أن أتجاوز صلابته وافتقاري إلى الكلمات من دون دموع؟ ليتنا لم نذهب، ليتنا لم نفعل، ليتني لم أعرف.. عادت ذكريات سيدي بو سعيد تطاردني، فكرت بالأماكن التي لا تشيخ، وفكرت بالمكان هنا، بدت الشوارع

كأضيق ما يكون، النوافذ مترية، الوجوه كالحة، أطفال الإشارة بثياب مغبرة يروجون لأي شيء، أكياس القمامة ينهشها الذباب وتدهسها الإطارات، بدا الكون كله متضخمًا على غير العادة، يلفظ ذاته من ذاته أو يلفظني.. لا فرق، بحثت بذاكرتي عن وجوه مألوفة فلم أجد غير وجهي بالمرآة، بردت أطرافي، والرؤية من نافذة السيارة توحي بالباقي من المسافة، ترى كم معطف يقيني صقيع غيابه! تنفست بعمق، ضممت كفه واستكنت إلى كتفه، وجهي معلق بالنافذة، وعيناي تودعان العصفور الذي احتويته يومًا بين ذراعي:

– هتوحشيني.

– ليه بتقول كدا؟!

– لأنك دايمًا وحشاني، بس إزاي وانتِ معايا كل يوم؟! هتمِلِّي

سؤالي عن حالك، عن يومك، عن روايتك، رتبي ألبوم سيدي بو سعيد، كل صورة بتاريخها ومكانها، وقبل أي حاجة احتفظي بسيلينا الجميلة جواكي.

«وقبل كل شيء احتفظي بسيلينا الجميلة بداخلك.. وقبل كل شيء.. احتفظي.. احتفظي قبل كل شيء.. بسيلينا.. الجميلة بداخلك.. سيلينا.. بداااخـ... لك».

25

أمضيت ليلتي السابقة أتأمل صورتك، وأبثها أسئلة عن تلك الحياة الفارغة التي أعيشها لأسابيع من دونك، ولم أجد أي إجابة

باستثناء جملة من عشر كلمات، قررت أن أتجاهلها تمامًا؛ فذهابي إلى الشيخ زايد أصبح كمشاركة بعرض استربتيز بنادٍ ليلي.

أدهشتني قدرتي على الصمود، مرت الساعات رتيبة ولم تفض لشيء، قررت مطالعة رواية «حنين» لـ«مريام الكاشف»، قلبت أولى الصفحات بترقب، أنهيتها كلها بحلول الصباح، إنها المرأة حينما تحكي، تشكو، تتألم، تفقد، تصارع أحزانها لتصرعها، يقتلها الماضي، والحنين، ويقتلها قبلهما الحب بحماقاته، كانت البطلة أربعينية عاشقة، ناعمة رقيقة كثوب مخملي مزركش بزهور فيروزية، روحها أقحوانية، تعشق التحليق، تهيم كالتائهة، جاهدة تحاول أن تجد وجهتها، أقرت بالنهاية أن العشقَ أمرٌ حتمي على من فقدت كل الأشياء التي تدلها عليه، إنه منطق الأنثى في

الحب حيث لا منطق من الأساس، تساءلت: هل سيتخذها هذا الخمسيني أرجوحة يعانق بها أحلامه؟ أم ستتعلق هي بحبائل كاريزماه المتأنقة حتى تموت؟! كرهت ذاك الشعور الذي تسرب لي، وكأنها كانت أنا، مثلي تقلبُ بهاتفِها الصامت، وهي تترقب امتلاء حوض استحمامها، تسرح طويلا طويلا، تتحول هواجسُها إلى حقائق بمجرد أن يلمس جسدها الماء، تستغرق في الأفكار بينما تنقر حروف اسم حبيبها، تتخذ من الرسائلِ خندقًا لافتعال حوار جاف، وحين يفاجئها الرنينُ قبل أن تضغط أيقونة الإرسال، تدفن الهاتفَ في الماء فينمحي كل شيء.

بانتهاء الرواية كنت ممددة الساقين معلقة العينين بشماعة جانبية، دقت الساعة العاشرة.. قفزت من الفراش، هرعت إلى المطبخ، فتحت الثلاجة، شربت زجاجة المياه الباردة كلها، عدت إلى الغرفة

مهزومة.. كنت حزينة، فالمسافة بين ضجري وعينيَّ المتورمتين كأنها محطة قطار مسكونة بالعفاريت.. لهذا حين طالعت صورتك بالعدد الأسبوعي، لم أقصها كالعادة ولم أقبِّلها أيضًا، فقط فتحت صفحة مموهة كعلاقتنا الجدلية وجلست لأكتب. في الظهيرة توقفت عربة تحمل بعض قطع الأثاث، رأيت في الشارع امرأة ثلاثينية تمد بصرها صوب شرفة بالطابق الرابع وتبتسم، بائع اللبن يسب مختلًّا على الناصية أوقع الدراجة بينما انسكب السائل الأبيض كله، لوَّح بعدها بقرف لسائق العربة وابتعد، حارس العقار المقابل تخلى عن جلسته المعتادة، ووقف على المدخل بعين ملؤها الشغف مرحبًا بالوافدين في ظروف استثنائية.

خمس وعشرون سنة مضت على لحظة تشبهها، عجبت لكل هذه التفصيلات التي عادت فجأة، شخوصي الرمادية بشارعنا القديم،

الشاخص الحديدي، رائحة الفول الطازج وزبائن الصاوي، أواني الزهر الفخارية، لافتة زرقاء صدئة تشير لشارع «ريحان». في لحظة صدق نادرة ومواجهة مع نفسي المأزومة قررت أن أسترد روحي على الرغم من أن الطريق إليها صعب مليء بالذكريات، كيف تخليت عن اضطرابي بهذه السرعة؟ لم أجد تفسيرًا معقولًا إلا بأحد نهارات نوفمبر الناعسة، حين قدت السيارة إلى الزيتون لتستقبلني بيوتها الملتصقة وشوارعها الحميمة وناسها الغرباء.

***

بالحذاء الجلدي الطويل والمعطف، كنت أشبه موظفة من بعثة تقصِّي الحقائق، وقفت على رأس الشارع الضيق الذي ينفتح على ساحة بيتنا، بدأ قلبي يغوص، بل كاد يقفز من مكانه حتى ظننته سقط، حدَّقت في البيوت على الجانبين، أحنيت رأسي إلى صدري

عندما مر أحدهم ورفع عينيه نحوي، تأملت الشارع، كان البيت الواطئ ذو الشبابيك الخشبية والباب ذو الضلفتين قد تحوَّل لعمارة شاهقة، ودكان «زينب» برسومه غير المكتملة لمحل أدوات صحية، واستُغل الحائط الجانبي بكامله لعرض بعض الهواتف النقالة، مقهى «النوبي» كما هو، على الرغم من الواجهة المزدانة ببلاطات السيراميك بشكل نجوم وأهلَّة، وفي الركن سيدة سمراء تداعب ولدًا يرسم على الطاولة بالطباشير ويثير الغبار، البيت الرمادي ذو الشرفة الخشبية حيث اللبلابات لا أثر له.. وقفت طويلًا أدقق النظر بالأرض المستوية وأتخيل ثورة أشباحي، كان الغبار لصيقًا.. لصيقًا جدًّا، والرائحة تقترب لتغمر روحي، انشقت الأرض الصلدة لتنبتهم: أبي، أمي، «مجدي»، «علي»، الجيران، صبية الشارع، فتيات الحي.. يا الله.. وكأنني أحملهم معي إلى

ساحة مسرح مقفر، لماذا أتضاءل أمامهم إلى هذا الحد لأصبح طفلة تشتاق حضن أمها؟ لماذا أثير تلك الدوامات؟ ولأي سبب؟ ما من أحد يعرفني هنا، حتى الحلاق الذي جاوز عامه الستين يحملق في بغرابة، كان جالسًا على مقعد من الخوص على الرصيف يدخن الأرجيلة..سحب نفسًا عميقا، أدخل كمًا هائلا من الدخان إلى رئتيه، نفثه ببطء شديد، تابعته بعيني يثير بعض السحب، جاء صبي المقهى ووضع أمامه كوبًا من الحلبة، تأمل الحبات في القاع وشرع في أكلها، مضغها ببطءٍ، ببطءٍ واضحٍ، ارتشف السائل الأصفر وعاد إلى أرجيلته، أشرت له بود ولم يجب. بل ظل يبحلق فيّ بعينين تقاومان سحب الدخان.

– أخته ماتت من يومين، ومن ساعتها وهو هنا ما اتحركش من مكانه.

قالها أحدهم حين مر بجواري.. أومأت إليه فابتسم وانصرف مسرعًا.

«ماتت امرأة الجدار».. شعرت بالرثاء له. حين مددت خطوة للأمام كان يتابعني بينما فم قصبة التدخين ما زال لم يغادر شفتيه. كلما أمعنت النظر فيه ازدادت وطأة غربتي. ها أنا ذا وحيدة مرة أخرى في شارع مزدحم بالناس، هو شارعي، هناك بيوت وأعمدة إضاءة وبشر، قطعت الشارع طولا وعرضا، بدأت قطرات المطر تتساقط ببطء، اختفت الشمس تماما خلف الغيوم، مرت دقائق من دون أن أشعر أو أهتم لشعري المبتل.. دُرتُ فيها حول نفسي، جُبتُ الساحة حيث تجمع بعض الصبية الحفاة بينما يركلون بأرجلهم كرة من النوع الرخيص، غير عابئين بالأرض الرطبة، صوَّبوا وجوههم باتجاهي، تعلقت الأعين بي باهتمام،

وكأن الشارع لا يقربه غير سكانه، أردت أن أصرخ فيهم: مالكم تحدقون بي؟ كنت هنا.. هنا كان بيتي.. هنا سريري وهنا مكتبي.. هنا الطاولة التي نأكل عليها.. وهنا الكرسي الجانبي.. هنا التلفاز.. وهنا علبة السكر.. هنا صندوق الدواء.. هنا طائرة «عمر».. هنا عارضة اليمام.. هنا وُلدت قصيدة.. هنا انفلت نهد لتكتب القصيدة، وهنا جدار ارتكن إليه النهد وقت ميلاد القصيدة، هنا كان «علي»، وهنا كنا نغادر لعالم هزلي.

***

حين هممت بالذهاب فاجأني وجه ما.. في شرفة البيت الذي كان يجاوره بيتنا.. بطابقه الثاني.. بنت لها وجه «رضوى»، جبينها الضيق وشفتاها المكورتان، تسمرت مأخوذة، كانت تنحني لتلتقط قطعًا من الغسيل ثم تشبكها على الأحبال. سألتها عن صلة

القرابة؛ فأجابت بأنها ابنتها.. دعتني للدخول، قبلت لسبب أجهله، منحت عقلي ربع دقيقة قبل أن أدلف، أردت ألَّا أفتح فجوة أمام أي منهم لينفذ منها لعالمي، سأقول في حال سألتني: كنت بلندن وعدت مؤخرًا، وليس غريبًا أن أمر حين أكون بالجوار، تحسست طريقي إلى السلم، تعثرت بدرجة متآكلة، تلمست بعدها موضع قدمي، فتحت باب شقتهم، فأضاء وجهها.. ابتسمت وقالت أهلًا، قبل أن تنادي: ماما، فيه حد عاوزك.

خرجت أمها تجرجر جسدًا يرزح تحت كتل كثيفة من الشحم، كل ما فيها اختلف، خصرها النحيل اندثر، اختفت بروزاتها المغوية، وأصبح الوجه تام الاستدارة كشطيرة كبيرة، رحبت بي واصطحبتني إلى الداخل، قطع الترحاب ارتباك اللحظة وبعض الروائح المتداخلة لم أعرف لها مصدرًا.. مسحت صالة الشقة بعيني،

مصباح كبير تدلّى من السقف فوق طاولة طعام بسيطة توسطها طبق فاكهة خزفي، فتحت بابًا يفضي لغرفة جلوس كانت أكثر اتساعًا؛ جدرانها تميل للاصفرار، والأرض مغطاة بكاملها بسجادة حمراء، جلسنا على كنبة مغطاة بقطع من القماش المزركش بالزهور تشبه زهور قميصها البيتي، بالغرفة منضدة من الرخام، كنبتان «بلدي» متقابلتان، وبالركن ماكينة خياطة تتكفئ عليها يوميًّا لتخيط أخمرة الصلاة، بالجدار نافذة وحيدة تطل على الشارع، وتحجبها ستارة مفرغة، لكن وهجًا باهتًا ما زال يلمع بالمقلتين، كنت أنظر في عيونهن، وينظرن إليّ بكثير من الفضول، لـ«رضوى» أربع بنات: «نيرة» تزوجت وتسكن بشارع موازٍ، و«منال» تدرس بالجامعة، واثنتان تصغرانها، صففت «أمنية» شعرها كغجرية، تركته منسابًا مجعدًا، أما «أحلام» فتشبه

أباها، تحركت البنتان بألفة وحيوية، قدمت «أمنية» واجب الضيافة والتجأت لكرسي جانبي من الخيزران: صحن ممتلئ بشرائح الجوافة وبعض ثمار البرتقال، ودورق من المياه الباردة.. كنا نتبادل الكلام ليطل رأسٌ صغيرٌ من فراغ الباب، بعينين شقيتين، ضحك ضحكة ملء فيه، ولد جميل في الثالثة، دعوته بإشارة فجاء، واندس بيننا.. تحسست شعره المنسدل على عينيه وسألتها عنه، فأجابت باستخفاف واضح:

– «يوسف»، ابنه من مراته التانية.

سألتها بعد ضيق انتابني لارتياح نبرتها:

– للدرجة دي بتحبيه؟!

– معرفتش في حياتي راجل غيره، لا أب ولا أخ ولا ربنا قسملي عيل من صلبه يشيل إسمه، ويشيلنا لما نكبر، أنا مقدره اني حمل

تقيل بالبنات، بس كل حي بياخد نصيبه.

– كان يعمل ايه لو ما خلفش منك خالص، انت مش أقل منه، لازم تعرفي ده.

– حسام طيب وشال امي ف عياها، ده مكانش بينام م الشقا، ليل ونهار شغل عشان يكفي المصاريف.

– لو كنتِ كملتي تعليمك كانت حياتك اتغيرت. وكنت ساعدتي ف مصاريفك.

– أنا مش بتاعة شغل، كفاية عليا البنات، واهي المكنة بتساعد.

استاءت من تحاملي الشديد عليها بينما تتحدث عن كونه عطوفًا رائعًا، تأملتها بينما تعلو شفتيها ابتسامة في غير مكانها؛ فلها ضرة من خمس سنين، سمحت لها أن تشاركها الشقة الإرث، سكنت غرفة تجاور غرفتها، وكانت تعرف عن لقائهما كل ليلة

على فراش أمها المرحومة، في البداية باعت شبكتها لتسدد عنه قيمة المهر، اختارت ألبسة العروس، طهت طعام الصباحية، وفي الصباح زغردت، بعد الولادة مرَّضَت ضرتها، غسلت ثياب الرضيع، وزعت «المغات» وساهمت في تكلفة «العقيقة»، أمعنتُ النظر بالجدار، لاحظت خلوه من الصور بينما توسطته آية قرآنية تبشر الصابرين، وفي الركن ثُبِت قائم تعلوه بعض قوارير العطور.

– هعمل إيه؟ أهو بيجيلي آخر الليل حتى لو خلصان من التعب.

قالت تنهيدتها الحارة: «أعطيته كل شيء واحتفظت لنفسي بحزني».. تفاخرت بعطوره التي جهلت تراكيبها، لم تلمسها أبدًا ولم تعنِ لها أكثر من مجرد زيوت مركَّزة يشتريها من أحد التجار بطلوع الروح، ويقضي الليالي ساهرًا يخففها لتُباع بمحل صغير بالوكالة، كانت خلاصات فواحة، تداخلت روائحها لتصنع غيمات

بأريج الورد وعطر الريحان والخزامى والبخور، أهدتني قارورة عطر بخلاصة البنفسج، مرسومة عليها نجمات يقطعها قوس قزح، فخورة «رضوى» بتراكيب رجلها على الرغم من أنه أهدى امرأة غيرها تركيبة خاصة، فمنحته بالمقابل حلمه ووهبته الصبي.

في تلك اللحظة، دخل «حسام» بجلباب قصير وسروال بالكاد لامس عرقوبه، طمس بياض لحيته حقيقة عمره، بدا ستينيًّا كئيبًا، أو ربما أنه كان يستمتع كثيرًا بتبديد الوقت، تهلل الصغير حين رآه وفتح ذراعيه متشبثًا به، مال عليه أبوه وقبَّل رأسه وتركه، منذ اللحظة الأولى لدخوله قطب جبينه، غطت وجهه عبسة حادة، جمدت عيناه وجحظتا عندما واجه ساقي المكشوفتين وشعري المنسدل، قال بلهجة أقرب للسخرية:

- الصحفية الكبيرة عندنا؟!

تطلعت بوجه «رضوى»، هالني فضولها.. ندت عنها شهقة حادة وسألت:

- صحفية؟!

- أيوه، ايه الغريب؟!

- يعني بتكتبي وبتنزل صورك ف الجرايد والمجلات.

أردفت بزهو: «شفت يا حسام، بقى عندي أصحاب مهمين!». اغتم وبادلها نظرة ممتعضة، لوى شفتيه في حركة توحي بالضيق، جلس إلى مكتب صغير بالصالة، وبدأ يفتش في الأدراج، تحسس لفافة صغيرة، أخذها، كانت ممتلئة بكتيبات الأذكار. أدار حديثًا قصيرًا كان هجوميًّا فيه، سألني عن اليوتوبيا التي أعيشها، عن مكانها تحديدًا.. سألني بشيء من الاستخفاف إن كنت قادرة على رسم معالمها هنا، في هذا الشارع الضيق، أو بين تلك الجدران

الرطبة، أو أن لها حدودًا أخرى لا يعرفها غيري.. سألني عن الحد الفاصل بين يوتوبيانا ويوتوبياهم، هؤلاء الذين يقضون اليوم كله بالشارع في لهاث طاحن خلف لقمة العيش ليسحقهم الضجيج والغبار ولتحرقهم الشمس ورقاعة النساء، وليعلمهم الأدبَ أفراد الشرطة الوضيعون والمتسولون، سألني إن كان كل هذا طبيعيًّا بنظري، ولم أستطِع الرد.. كان على قناعة تامة بالمشروع الإسلامي، شدد على دورنا كصحفيين، وعلى ضرورة دعم تلك الفكرة بالترويج لها بمقالات تخاطب البسطاء كما تهتم بالساسة؛ فالإسلام هو الحل، الإسلام في بلد لا يعترف بالفقراء وما زال يتشدق بالدين، كان حديثًا قصيرًا حرص فيه ألا تتواجه أعيننا، ربما أنه كان يتحدث لأحد أشباحه، بعدها استأذن قائلًا:

– سأذهب للصلاة.

تابعته يمضي بكتفين مائلتين للأمام ورأس خفيض، بينما أسأل نفسي: أين شبابه وضحكته؟ وأين حبهما الذي كان؟! تساقط المطر من جديد محدثًا صوتًا على رقعة البلاستيك خارج الشرفة، وضعتها البنات لتحفظ الغسيل؛ فأصرت «رضوى» ألا أغادر قبل أن أشاركهن الغداء، وضعت أرزًا ودجاجًا وطاجن خضار.. حاولنا أن نتذكر مُدرساتنا، كثيرًا ما أطلنا النظر لـ«ميس صافي»، مدرسة التاريخ، بدت كامرأة من كوكب آخر، سحرتنا تنانيرها القصيرة وأحذيتها العالية وأحمر شفتيها الفاقع، كانت تسير باتجاه النافذة ببطء واضح، تخرج إصبع الروج، تتأمل وجهها بالزجاج، تخطه فوق شفتيها باهتمام بالغ، تلعقهما قبل أن تستدير فجأة لتقول بلكنة سوقية: بنتسسس انتي وهي، بطلوا رغي، شايفاكوا.

تذكرنا رفيقاتنا، خجلنا من أننا أضعنا نصفهن من الذاكرة، تذكرنا

شارب «داليا»، وأظافر «رباب» المتسخة، تذكرنا حذاء «إيمان» ذا الرقبة العالية، وقميص «مايسة» (المايصة) وعلكة «منى» (السهتانة)، وضحكنا كثيرًا على شريط «الكوكتيل» الذي كلفنا تسجيله جنيهين ونصف الجنيه لتسرقه «انتصار» في النهاية، تذكرنا «نجلاء» وقصص حبها الوهمية، أحبت نصف مدرسي المدرسة ورسبت بموادهم، عامًا بعد عام كانت تضيف واحدًا للقائمة، أكثرهم رسوخًا كان منغلقا جدًّا، كلما منحها تكشيرة زادت تعلقًا به، كلما بالغت في رد فعلها استشاط غضبًا، شكت اضطهاده فبرره بسوء سلوكها، وحين تقدم لخطبة زميلة لنا بفصل مجاور كانت الطامة الكبرى، تقصَّت عنها، تتبعتها حتى البيت، عرفت أنها يتيمة، فقالت والغيرة تكاد تفتك بها:

– ما أنا كمان يتيمة ومليش حد!

انتظرت موعد الفسحة وتسللت لفصل البنت، دست بحقيبتها رسالة تتضح بعبارات الحب المشتعلة ممهورة بتوقيعه، في البداية دار الحديث بشكل هامس، بعدها قام خيال البنات بالباقي، اتسعت الحكاية، تشعبت التفاصيل، وصلت القصة ملتهبة للناظرة، طلبت تحقيقًا فوريًا لم يكن لصالح «نجلاء»، فصلتها وظلت الدكة شاهدة على المأساة؛ إذ حفر القلم مشاعرها بعمق، وعلى الحائط تركت كلمات لأغنية حزينة.. تذكرنا ساندويتشات الرنجة وشرائح الخيار والجزر.. تناولنا الشاي، واعتذرَتْ عن جهامة زوجها، تعللت بضيق الحال، كانت هي الأخرى على يقين من أن المشروع الإسلامي سيغيِّر حياتهم للأفضل، قلت لها:

– مفيش حاجة تقدر تغير حياتك لو مالكيش رغبة في ده فعلًا، التغيير بيبتدي من هنا.

وأشرت لدماغي.

مددت النظر للنافذة، كان الظلام قد حل.. فاستأذنت، وعدتها بتكرار الزيارة، وتسللت للخارج بهدوء، خرجت من فم الزقاق متلفعة بالليل، مفعمة بالفقد، يأخذني دبيب قدميّ، كنت كلما هتكت ستر الأسفلت لأقطع مسافة، يأتيني وقعهما ليؤنس وحشتي، وباقتراب النهاية أقابل وجها ما يفصلني قليلا عن عزلتي، فأواصل بانكسار ملء الروح، متلفعة بالحزن كما هو ممسك بي، نتبادل التذكارات في الحارة الضيقة، أتجاهله فيجلدني دون رحمة، أرشده لقلبي فيبيت مطمئنا وأخرى يهديني الفراغ المطلق فنسكنه معًا، أنا وحزني أوفياء لبعضنا، نتشارك كل شيء، إن قسى مرة أحن، وإن وهب أضن، وإن تيسرت سبله لي أراوغ أحيانا فلربما يرحل مرة ذات سأم.

قدت السيارة في الشوارع بلا هدف، توقفت بشارع جانبي، أشعلت سيجارة، اكتشفت أنني أمضيت خمسة وعشرين عامًا في وهم، فلم يعُد للأشباح أي أثر.. كانت العقارب تشير إلى الثامنة مساء حين عدت لشقة روكسي، اندفعت نحو الشرفة، كانت غارقة تمامًا بالماء، تركتها ودخلت إلى غرفتي، خففت الإضاءة، جلست بزاوية معتمة، لم أكن على يقين تام بأن ما دار بساعات اليوم كان حقيقة.

26

دقات متتالية على الباب، وبإلحاح، وكأن الطارق يعلم بوجودي، تقدمت نحو الباب بخطوات قصيرة، دققت بالعين السحرية فرأيت خيالها، رأسها الصغير وشعرها الأحمر الناري، لكنها كانت مبتسمة، مبتسمة وراضية.. أدرتُ مقبض الباب، قبَّلتني ودخلت تملأ المكان بالضحكات، لم أجد ما أقوله فاكتفيت بتنهيدة وجلست على أقرب كرسي، تكلمت بالنبرة المرتاحة نفسها:

– فينك من زمان؟ وليه قافلة موبايلك؟!

كنت غير قادرة على الكلام، بصمت تأملت تقاطيعها، حدقت في وجهي وعادت لتسأل:

– كنتي فين كل ده؟!

رسمت على شفتي ابتسامة، بخطوات متبخترة استعرضت فستانها المحبوك وساعة يدها، وخاتمًا بشكل فراشة، سارت بخُيَلاء

واضحة وكأن الدنيا ملكها، وعطرها ملأ المكان، رسمت الذاكرة صورتها بردهة متسعة قبل شهرين، بعزاء أمها، كنت أقدم رجلًا وأؤخر أخرى.. السلم ثقيل والضوء يشاغب ومحمد رفعت يرتل تلاوة مباركة، دخلت لأجدها مكوَّمة بالكرسي، غارقة في الأسود، ترتعد من دون مساحيق، بكينا معًا، كانت تبكيها بينما أفتش بجعبتي عن الحزن، أستعيد صوره المموهة، لكنه ما إن لاح بالباب حتى هوت مستسلمة.. انفجرت في النحيب فأخذها في حضنه، صرخت فضمها لصدره أكثر، أدركت لحظتها أن حياتها فعلًا على وشك التغيير.

- «جوري»!

- ......؟

- ما لك؟

- لا أبدًا مفيش، كنتِ وحشاني قوي.

- مش باين.

- ليه بتقولي كدا؟

- لأنه فعلا مش باين.

- مبسوطة؟

- أكيد.. لو كنت عاوزة أتطلق كنت طلبت الطلاق، كانت كرامتي اللي بتصرخ، عاوزة إيه من ست جوزها سابها وراح لواحدة غيرها؟!

- غيرك بيرفض، وفيه ناس تانية عاجبها الوضع وراضية.

- صوابعك مش زي بعضها.

- قلتلك قبل كده، ما تخليش حد يحبك أكتر ما تحبي نفسك، مفيش حد يستاهل.

– بس انا بحبه ومحتاجاله.

– أيوه كده، اعترفي، هو ده السبب الأساسي، الاحتياج.

– مش ده بس صدقيني، موتها خلاني أخاف، ما بقيتش أستوعب أي شيء غير ريحة الدوا، وصورتها اللي ما كانتش بتفارق خيالي، عروق جسمها الظاهرة، علامات في كل مِلِّي مكان المحاليل والحقن، راس فاضية ما فيهاش ولا شعرة، دي كانت بتتوجع من مجرد لمسة، تخيلي! إحساس فظيع تكون بتترعش قدامك وجسمها مولع نار، وانتي واقفة تتفرجي ومش عارفة تعملي حاجة، موت موت موت، كل حاجة ليها ريحة الموت: الحيطان، السرير، حتى هدومها في الدولاب، أنا خايفة ألمس أي حاجة، حتى الراديو بتاعها سايباه مكانه تحت المخدة.

– ليه بتحاولي تبرري؟

- انتِ سألتي وانا بجاوب.

- وانا مصدقة كلامك.

- دي الحقيقة مش مجرد كلام.. سابت فراغ كبير.. حسيت وحدة من غيرها. حاولت أتعايش وما عرفتش.. عارفة؟ ما كنتش بسمع بالليل غير صوت نفسي وصوت صفارة القطر، أقفل الشبابيك والبيبان وأترعب لو قطة عدت تحت البيت أو حسيت صوت الشجر برّه البلكونة.. أنا بني آدمة من لحم ودم مش حجر.

- عشان كده رجعتي؟

- عشان كل حاجة.

- شكلك مرتاح.

- مين يقدر ينكر إن الحب جزء من حياة متوازنة؟!

- الحب بس؟!

- انتِ فاهمة قصدي، فبلاش تريقة.

توجَّعت بشكل غريب، انكمشت ملامحها، قبضت على بطنها وشكت ألم المثانة، تذكرت جوليا روبرتس بالفيلم الشهير.. شكت الحالة نفسها حين عادت لتضاجع صديقها راضية بهزائمها.. وددت لو أفاجئها بجملة مربكة.. فقلت:

- ده اللي بيحصل حبيبتي لما تنقطعي عن الجنس فترة وترجعي تمارسيه كتير.

ارتبكت وتلوَّن وجهها، تلفتت يمينًا باتجاه المكتبة، قالت بمكر:

- المعلومة دي في كتاب من بتوعك؟!

- لا دي حقيقة، ده اللي بيحصل لما نحب، بنعمل حاجات مضحكة بتبكينا في النهاية.

حاولت أن تجد مبررًا واحدًا قويًّا لرجوعها إليه، ولم تكن في حاجة

لذلك، فالأمر فعلًا بسيط، التبست وجهًا عابسًا، وقالت إنها كانت على وشك تقديم تنازلات مربكة لتمرر لياليها الساكنة، كانت تخجل من نفسها كلما لجأت لغرف الشات بالمساء، وتحدثت إلى أحدهم باسم مستعار، كانت حيلة تنقذها كلما حاصرها السأم، تنهدت وزفرت وقالت حقيقة أعرفها، فكلهم مزعج، ومقرف.. كلهم لحوح يتسلَّى بأحاديث جنسية مريضة.. وعندما كانت تنام ترى كوابيس فظيعة، كلها عنه.. رأته يبتعد ملوِّحًا بيديه، كانت تجري خلفه ولا تلحقه، مرة استحال ريشة بقبض الريح، تأخذه بعيدًا بعيدًا.. ومرة غرق في بحر أسود، أحلامها عنه مخيفة، تحتاج أن تفعل مثلي فتغمض عينيها أكثر فلا تبصره.

- مش محتاجة تقولي حاجة.

- كنتي عاوزاني أعمل إيه؟ أيوه اتصلت، وقلت له أنا مراتك وليَّ

حقوق عليك، وكان فاهم وحاسس وعارف بقصد إيه.. اتفقنا على كل حاجة.. تعرفي؟ اكتشفت إن لسّه دبلتي في صباعه.. طبعًا مع دبلة المدام.. بيني وبينك.. أنا ما اتخلقتش للوحدة.. أفكاري مجنونة وفي الآخر بشوف أحلام مرعبة.. طبعًا فاهماني!

– أكيد فاهماكي.

– نفسي أسألك بجد: انتِ إزاي متحملة حياتك بالشكل ده؟

– منتظرة.. قصدي كنت زيك منتظرة.

– مش فاهمة!

– مش مهم.. صدقيني.. مش مهم أبدًا.

– ضايقتك؟!

– لا، بالعكس، وحشني كلامنا.

– طيب ما لك؟ شكلك مش مبسوط.

- لسَّه زي ما انتِ، ما اتغيرتيش، نفس الإلحاح، مفيش حاجة، صدقيني أنا كويسة.

- كنتي فين كل ده؟ عديت كتير.

- شغل يا «غيداء».

- عارفة؟ ما خلفش لغاية دلوقت.

حدقت فيها بصبر نافد، التقطت نفسًا عميقًا، وقلت بزهق:

- عادي يا «غيداء».

27

في المرة المقبلة، حين يضمني ملاذنا من دونك سأتذكر أن أترك قصاصة دوَّنت بها مشاعري، سأخبئها في أحد جيوبك وأدعي نسيانها، ربما أحشو فراغات جيوبك بكثير قصاصات وأزعم نسيانها أيضًا، وحين تواجهني معاتبًا سأفتعل الدهشة وأهرب للغياب.

في المرة المقبلة، سأخبرك أنني لم أعد أحتمل تلك الرائحة بياقاتك، سأخبرك أن عطرها مستفزٌّ، وأن ضحكاتك التي تزين وجهك كل يوم ما هي إلا محض وهم، سأخبرك عن وقت طويل مضى من دون أن أتوسد صدرك؛ لأدرك أن لي شيئًا ينبض بهذا الكهف المهجور، سأخبرك بأنه لا شيء يضمني غير صمت العتبات وغير صقيع المقاعد وغير فراغ الفراش، لا شيء يحتضنني غير ذاتي وازدحام أفكاري، وجل ما يحتضنني فرحٌ

يتوسد صوتك حين تهمس: «وحشتيني».

– جميل «جوري».. كملي.

كنت لا أزال أرى عينيه من خلف زجاج النظارة ومن خلف صفحات الجريدة التي كان يطالعها، كانت صورته تتأرجح في أعماقي، عشت لحظاتنا المنصرمة كشريط سينمائي متعاقب، تحسست أصابعي التي لامسته بشغف، أنفاسنا اللاهثة، كنت أكرر بداخلي عبارته الرقيقة: «امنحني كلك فما عاد بعضك يكفيني.. فما عاد بعضك يكفيني». كدت أقولها بتلك الروح التي تزعجه، صدمتني صفحات الجريدة بينما تُطوى، مررت بعيني على السطور المزدحمة بالكلمات: «هروب زين العابدين بن علي إلى السعودية، وتولي راشد الغنوشي رئاسة الجمهورية بشكل مؤقت». تقمَّصت وجهًا غير الذي لي وابتسمت، فالعالم يرتج وأنا

أيضًا.. لو أن له قلبًا لأدرك، لكنه قطعة من جليد. عاود الانهماك في الأوراق، تجاهل وجودي، كأنني لست أمامه، لم أجد بُدًّا من مبادلته أسلوبه نفسه، اندسست أكثر بالمقعد ووجهي مثبت به.. فاستمر يفتش بأدراجه، تفقَّد حاسوبه ورسائل الجوال، راجع مقال الأسبوع مرتين، ضبط رابطة العنق وإيقاع صوته، حدَّق بالسقف، سألني إن كان الجو باردًا، وقبل أن أجيب أدار مؤشر جهاز التكييف على وضع تدفئة، أعاد تلميع حذائه، داعب كرتي الاسترخاء ومكعب الألوان.. نقر المكتب بأصابعه.. بالنهاية شكا ألم القولون وتشقق شفتيه.

– ممكن ولاعة؟

نظر لي بتشكك، وشبحٌ هزيلٌ لابتسامة يغزو شفتيه.

– هتدخَّني؟

– غريبة! ليه مندهش؟

– محتاجة تثبتي إيه؟!

– مفيش، ناولني ولاعة من فضلك.

ناولني القداحة وجلس بتحفز يمعن النظر فيّ:

– جربي تدخني سيجار، فاجئيني بعادة جديدة.

أشار لعلبة سيجاره بفتور.

– لا.. مفيش داعي، هدخَّن سجاير، لو هضايقك ممكن أروح مكتبي.

اتسعت ابتسامته أكثر:

– لا أبدًا.. خليكي على راحتك.

جلست قبالته، بالمقعد ارتكزت بؤرة نصف مضيئة كشفت نصف وجهي.. كنت أقلب القداحة بين أصابعي.. قلت:

- ما توقعتش الموضوع يعجبك رغم إني ما بذلتش فيه مجهود، مش تغيير غريب ده؟ أول مرة أعرف إني من السهل أرضيك.

أسند ظهره للخلف بعد أن خلع نظارته.. ظل محتفظًا بها في يده اليمنى:

- انتِ دايمًا بترضيني، والموضوع فعلًا ممتاز.

- مش عاوز تعرف كنت بعمل إيه الفترة اللي فاتت؟!

- سامعك.

- أخيرًا قدرت أروح.

رد بتعبير مقتضب:

- جميل.

- مش عارفة أكتب حرف من ساعتها.. مش عارفة حتى أفكر في الموضوع الجديد.

عقد حاجبيه وقال:

– عادي، بتحصل، ممكن تاخدي أجازة.

– تاني يا «خالد».. انت ما بقيتش عاوز تشوفني؟! أنا لسَّه راجعة من أجازة.

قام من مقعده بحركة مفاجئة واتجه لمبرد المياه.. ارتشف كوبًا من الماء على مهل وتسلل بهدوء إلي مكتبه.. بادرته قائلة:

– عمومًا ما تقلقش، هبعت المقال على بكرة بالكتير.

– مش قلقان، بالعكس أنا واثق فيكي.

فشلت محاولتي للعب على وتر اهتمامه، أشعلت سيجارة لأنفث دخانها الذي تحرك في دوامات ثقيلة وكأن الهواء يأبى أن يحمله.. غشيني الدخان وأخفى نصف وجهه.

تساءلت في نفسي: ما الذي أحاول أن أثبته؟ بالفعل أنا أحترق مع

كل حلقة دخان، حتى سُحبها التي أخفت نصف وجهه لم تكن قادرة على ابتلاعه، أخفى جموده شبحًا لتساؤل لم أجرؤ على النطق به، ولن يجرؤ على تكذيب إجابته، هل أحبني؟ نعم فعل، وكيف لا؟ ألم يخفض لي جناح اللهفة من الحب، ألم يهدني كل يوم صباحًا جديدًا خالصًا من كل أوجاع الحياة، ألم يجد مبررًا لشوقه حين هاتفني متسائلا عن ياسمينة نبتت بحوض زهوري في غير ربيع، ألم يغازلني برسالة نصية تقول: وصباح من دونك حبيبتي هذيان. ألم نختر معا القطعة الأخيرة من الليل لنمسح عنَّا مرارة نهار خال من تقاسيم الحب. ألم يدهشه كم الحميمية التي نحشو بها جلساتنا، ضحكاتي الخجولة، جنونه المطلق، ذاك المرح الذي يباغت صوتين لا يجيدان الغناء. تشابك الأيدي، عناق الأصابع، تقمصنا المشاهد بروايات العشق الكلاسيكية،

نقاشاتنا المحتدمة، القبلة المفاجئة، أنفاس غرامنا المحموم، النوم العميق التائه ف عطرنا المختلط، نعم يحبني، يود لو يضمني، أو أن يلقي السيجارة بعيدًا، أو أن يزهق وهجها ببرودة المطفأة ويدفن وجهه بي، ربما يود لو يصفعني لأفيق، أعده بآخر حلقات الدخان سأتحرر من وجعي وكثير منه.

***

كان مساء اليوم التالي أكثر اختناقًا، ارتشفت قهوتي على مهل، طاردت عيناي الضجيج خارج النافذة.. التقطت من أصواتهم ما يدفع برودة الإحساس، من أضواء اللافتات ما يقلص انحناءات المتاهة فيتقزم الوقت والمسافة، تكثف البخار على زجاج النافذة، رسمت قلبًا منحته حرفه وعدت للداخل أتفقد بريدي.. فاجأتني رسالة من «مجدي»:

- «عزيزتي الأقحوانة:

هل إذا عدت بأكبر قطعة شوكولاتة في العالم منقوشًا عليها اسمك تغفرين غيابي؟! هل إذا جئتك بأسطوانة جوليا بطرس الأخيرة تفعلين؟! وربما تسألين نفسك: لماذا جوليا بطرس؟ لو انتظرتِ لأجبتكِ من دون سؤال، ولكن كالعادة يطاردني فضولك كلما تفوهت بشيء على غير قناعاتك، اسمحي لي أن أقول إن تلك الـ(جوليا) تشبهك تمامًا، لها مثل تحليقك، هل تغفرين إذا عدت بشيء يشبهك فيكون رسولي إليكِ؟ هل تغفرين إذا مر بيننا ألف عام، وعدت كحلم تسرب الريح حزنه؟ فليس للسجين غير أن يُسرِّب حزنه للريح».

لا أعرف أبدًا مَن فينا عليه أن يعتذر، خِلتُ الأيام أخيرًا منحتني بعض السعادة، لكنها تأبى، وكأنني أبحث عن حصاني الأشهب

في وسط عاصفة شديدة الوطأة، وربما كنت أبحث عن الهدوء بثكنة عسكرية، ماذا يمكن أن أقول؟ في لحظات استعدت ما مضى، مرت الوجوه أمام عيني وتلاشت وبقي وجهه هو، أعوام مرت منذ لقائنا الأخير، والآن أستعيد حزن فراقنا الأول، ماذا يمكن أن أقول له؟ أخذت أجمع الكلمات التي سأقولها فور أن ألقاه، أعدتُ صياغة الجمل، رتبتها.. سأقول.. ماذا سأقول؟ أأقول أحببت رجلًا اخترق الظهيرة بسهم نافذ.. فقتلني؟ كل الحروف تخذلني، تتسرب من جب أفكاري لتحت هدومي في ليلي البارد فتمنحني المزيد من الصقيع.. الصمت لغة محكمة الصياغة تفسدها آهة.. آااه «مجدي».. ماذا عساي أكتب لك؟

– «ليس للحنين من يقين سوى الدموع، كيف تفعل ذلك بي؟ سامحك الله.. أبكيتني.. ما الذي فعلته لك فتبكيني ثم تضحكني،

وربما بسرك تضحك مني؟! أتدري؟ أتأمل صورة ابنك الآن، وأستعيد الأيام الخوالي، إن جاز لي التعبير؛ فلم يكن كذلك بكل أسف، أسترجع شيئًا مما كان، ألم نتفق أن بعض المبكيات مضحكات؟ ربما ليست بلذة قذفك بالوسائد بليلنا الطويل، أتذكر مجدي؟ ياللغرابة وكأن لقلوبنا حاجة أن تبلى؛ فترتاد الممر الموحش للذكريات!

مجدي.. طفلك يشبهك والرضيعة كلها أمها، هنيئًا لك، كل ما كنت تريده بين يديك الآن، قبِّل أمل نيابة عني.. لا شيء جديد هنا، أما عن «جوليا» فأعتقد أنني اكتشفت مؤخرًا تشابهًا بيننا، جميل أن لاحظته.

ملحوظة: لم أفهم ما الذي يعنيه التاريخ الذي ذكرته برسالة سابقة، ما الذي تقصده؟ هل تعني ما فهمته؟

أرجوك قل نعم».

في تلك الليلة، حلمت أنني اجتزت النهر بقارب تغطي قاعَه أوراقُ الشجر، خُيِّل إليَّ أن «مجدي» بالضفة الأخرى ويلبس حلة بيضاء، كان واضحًا على الرغم من الضباب، كان مبهرًا بكتفين مرتفعتين وصدر عالٍ، فيه من المهابة ما يأخذ اللب، كان يبتسم ويومئ بوداعة، كدت أصل إليه بينما القارب يخترق الماء وحده من دون مجداف، كنت كلما تقدمت ابتعدت الجزيرة، كل ما أردته ألا يختفي وجهه الأسمر أبدًا.. دار القارب دورة كاملة وحين التفت للجزيرة كان «مجدي» قد اختفى ليحل «خالد» محله، صرخت بصوت عالٍ، كان الصراخ من القوة بحيث وصل لأذني.. قمت فاقدة السيطرة على جسدي، وكأن كل جزء مني يمارس حركته الذاتية، بعثت الإضاءة بمفتاح الغرفة، تأملت كل شيء.. إنه

الفراش، إنه المصباح الجانبي، إنها المرآة، جهاز اللاب توب، الجوال، الساعة، دبابيس الشعر، أوراقي، حوريتي الخزفية، وقلب باهت كنت رسمته على الزجاج.

28

الأربعاء، 17 يناير 2011، الثالثة صباحًا، مطار القاهرة، صالة وصول 3

همهماتهم تتداخل، بقدر بسيط من التركيز تُمكن إحالتها لكلمات

وجُمَل، صوره التي يرسلها بالبريد الإلكتروني تُظهر اختلافًا كبيرًا، نبت له شارب جميل ولحية حرص على تشذيبها، زحف قليل من الشيب إلى رأسه، ما زالت لم تفارقه ابتسامته الخجول، ونظرة عين بها مسحة شجن، هربت من إلحاحه بالزيارة، كنت أدرك أنني لو ذهبت لم أكن لأعود، ربما كان قرارًا صائبًا لو اتخذته في وقته لنجوت من وجع يفتك بي، ربما تبدأ العودة من صالة مغادرة بمطار أو حتى بقطار، فتشت عنه بينهم، يفصلنا زمن وما زالت صورته القديمة بخيالي، تفرست فيهم، انتظرت تلويحه خاصة، دققت النظر، ربما يكون رجل النظارة الشمسية.. لا، ربما يكون رجل القميص الأرجواني، ربما رفيق الجريدة، لا لا.. اللحية.. اللحية. «مجدي» بلحية مشذبة وشارب، نتواصل بالكاميرا أحيانًا.. عليَّ أن أذكِّر نفسي، «مجدي» بلحية وشارب.. بلحية وشارب..

شردت بعيدًا حتى سمعته يقول:

– «جورية».. ما لك؟ مش عارفاني؟!

التفتُّ إليه، لم يكن أمامي بعد أن رأيته إلا أن أذوب في صدره، أو أن أختبئ بأحد جيوب معطفه، لوهلة تخيلت عناقنا، ذراعاه ملتفتان حول ظهري تحملاني أكثر من كونهما تعانقاني، وكأن كل خلية بنا تتأكد من عودتها للحياة، اندسست كخبيئة بحضن زمني، ياااه، الرائحة نفسها! لم أتمالك نفسي حينذاك، طفرت من عيني دموع ساخنة غسلت وجهي، بكيت بهيسترية وأنا أقول: «يا حبيبي يا مجدي».

انعقد لساني على تلك الجملة، وكأن قاموسي كله توقف عندها، كاد قلبي يقفز من بين ضلوعي.

– انت فعلا هنا؟ مش مصدقة؟

– وحشتيني قوي.

– حسيت في وقت معين اني مش هاشوفك تاني، ازاي قدرت تسيبي لوحدي كل ده؟! ازاي قلبك طاوعك؟

– هربت. كنت محتاج أبعد.

– مش انت بس اللي هربت، كلنا هربنا، بس كل واحد بطريقته.

– مش فاهم قصدك، انتِ مخبية حاجة؟

– مش هاينفع هنا، لما نروّح هانقول كلام كتير.

طفرت دمعتان بسرعة من عيني، وتمسكت بيده، تقدمنا للأمام بينما أزيز الطائرات يمتطي السماء خلفنا، اللحظات كلها تتشابه ما بين مجيء ورحيل، العمر يفر على اتساعه، بالسيارة كانت الأجسام الشفيفة العالقة بالفراغ تكشفها هالة الضوء المنبعثة من مصباح السيارة، بدت وكأنها ترقص وربما تحتفل، ضبطت المرآة

الأمامية لأنعم ببريق عينيه، فأعادها لمكانها كما كانت:

– خدي بالك م الطريق.. وخليني أتنفس براحتي، محتاج هوا..

لم نتبادل الكلام بعدها.. بدا أنه غفا بالكرسي، وحين وصلنا لمست كتفه، انتفض فزعًا، عقدت الدهشة حاجبيه ومد بصره خارج النافذة.. صعد السلم بتثاقل.. كان مجهدًا بينما يخطو خطواته الأولى داخل الشقة، قطعت عيناه الصالة بكسل، حينها شغلت زاوية الرؤية أريكتي الحمراء.. دفن نفسه بها مسترخيًا:

– محتاج أنام كام ساعة، بعدها هتعرَّف على العالم بتاعك بتفاصيله.. هنام هنا.. هاتيلي غطا..

صباحًا، أعددت الإفطار، فاجأته بقذيفة هي وسادة، تحسس صدره بفزع:

– أنا فين؟!

- انت في روكسي.

- حاسس كإني لسه هناك، وكأن «لين» نايمة في صدري.. تصدقي؟ ما بتعرفش تنام غير كدا. يوسف بقى حته مني بس بيحب المزيكا، وزيك بردو بيحب الصور، باشتريله مجلات كتير ولما يلمح صورتك بيضحك ويسألني عنك.

ضحكت، واتسعت عيناي بينما أنظر إليه، فرك عينيه واعتدل، تأملت لحيته.. مددت كفي لألمسها فابتسم.

- جميلة، مش كدا!

- وحشتني يا «مجدي».

- وانتِ كمان، وكل حاجة هنا وحشتني بشكل غريب.

- أشك.

- ليه بتقولي كدا؟!

- لو كان ده حصل كنت رجعت.

- في الأول افتكرت إني بعاني من حنين هستيري كل ما أشوفها أو تيجي سيرتها قدامي، بعدها الإحساس بيقل شوية شوية لما تفتكري كمّ القبح غير العادي، الناس التعبانة..الأحلام المحدودة.. الخنقة بالزحمة، والزبالة..والوجع اللي ف كل حته، ليه ما بتكتبيش عنهم؟ وليه دايمًا صور مواضيعك ملونة؟!

- كل الدنيا فيها وفيها، انت بس اللي مش عاوز تشوف غير اللي يخليك تهرب بضمير مرتاح.

- الوضع هناك فعلًا مختلف.. في لندن قادرين يقاوموا حزنهم بطرق كتيرة، بيشربوا شمبانيا في الكريسماس، بيصاحبوا، بيحبوا بشكل مثالي، بياكلوا بشكل مثالي، وبرضه بيشتغلوا بشكل مثالي، بيحتفلوا بمناسباتهم طول الوقت.. بيستنوا سانتا كلوز من السنة

للسنة، بيتلموا قدام دفاية ويتكلموا، ويمكن يتعاتبوا، يرقصوا، يغنوا، بيتمتعوا بكل لحظة، بيتمردوا يا «جوري».. بشوية جنون، إنما إحنا هنا مندفعين للجنون بجنون.. ده الفرق اللي بينّا وبينهم.

- لسّه بتحبها؟!

- ما بقيتش اشوف الأمور زي الأول، مش عارف اتغيرت ولا مكنتش شايف كويس، تصوري انها لسّه مبهورة بلندن! الانبهار عادة بيختفي بعد سنة.. اتنين، إنما خمستاااشر سنة.. ده كدا مرض مزمن، زي غيرتها المجنونة.. إحنا تقريبًا مالناش أصحاب، بيتنا عبارة عن لوحة سريالية كبيرة، كل حاجة فيه بتشتغل بريموت كنترول.. بس هي الوحيدة اللي عارفة مكان مفاتيحه.

فرك كفيه بقوة ونفث فيهما..

- الجو برد؟ أقفل الشباك؟

- مش للدرجة دي.. تعالي لندن وهتعرفي البرد على حقيقته.

- بتابع النشرة وعارفة.

- برد لندن رخم.. لكن كل ما بضمُّهم باحس ذنب تجاهك، كنت بسأل نفسي طول الوقت: يا ترى عاملة إيه لوحدها؟ عايشة إزاي؟ بتضحك ولا بتبكي؟

غمرني حنينه الجارف بفرح طفولي، وانتزعت ابتسامة أحبطتها جملته:

- تعرفي إنها بتغير منك؟! بحكي كتير عن أقحوانتي الجميلة، فترد بكل عصبية وتقول: وكأن مفيش أقحوانات غيرها.. هي ما تعرفش إني بردان من غيرك.. حتى وهمّ معايا.

- لسّه ما اتعودتش؟ مش غريبة؟!

- مش قادر.. ليلنا طويل يشبه فنجان شاي في ليلة باردة، تلقّيه

بين صوابعك عشان شوية دفا، وتسيبيه شوية فتبردي وتيجي تحضنيه من تاني تلاقيه برد.

قطَّب حاجبيه وقال بحسرة:

- دي بطلت تكتب شعر.

تأملت انعكاس صورتي بعينيه العسليتين، إحساس بألفة جديد يتسرب للمكان، لم تكُن الإضاءة مزعجة، ولم تكن حتى مبهجة، كانت بقدر محسوب تمرر هالة مرتعشة لحزمة شاحبة ترمز للشتاء، كان من حين لآخر يرسل نظرة للصورة بالإطار الخشبي، وخاتم الزواج على حافة قاعدة المرآة، وكنا نطرق معًا أبواب الكلام.

- تعالي نخرج.

- نخرج؟!

– خليكي لو مش حابه، بس أنا محتاج أشبع من كل حاجة قبل ما اسافر.

– نخرج سوا، محتاجة اكون معاك.

قلتها بقلق تحفزه رغبة في الكلام.. ولِمَ لا؟ فمن الممكن جدًّا ترك السيارة بالدراسة، يمكن أن أتعلق بذراعه فتذهب عني رعشة البرد، أن نهبط سريعًا باتجاه الجامع الأزهر، وندلف للغورية.. يمكننا تفقُّد البازارات والجلوس بأحد المقاهي.. يمكننا أن نرسل أعيننا برحلة قصيرة للزوايا فنلتقط المصابيح الملونة، والنقوش النحاسية الدقيقة.. يمكننا أن نرتشف كوبين من الشاي معطرين بالنعناع، وحين يغمرنا الدفء ويتسرب من بين شفاهنا البخار، يمكنني بكل وضوح أن أصرخ، أن أقولها: تزوجت وتركت قلبي معلقًا بالخريف كما الخاتم على الحافة. سأقول: تزوجت في حين أغادر المقعد

لأقف أمام الباب العالي فأستشعر عظمته وتقزُّمي، يمكنني أن أفعل ذلك كله بينما أدور بحلقات حول عمود الرخام الكبير، أدور كراقص المولوية حتى يفاجئني السقوط بينما وجهه المعلق بساعة بيج بن غير مهتم بي.

- اتجوزتي؟!

ابتسمت قائلة:

- أيوه اتجوزت..

- بالبساطة دي!

- لما نخرج هحكيلك كل حاجة.

- ليه ما قلتيش؟

- ما تستعجلش.

قلب شفتيه بامتعاض وقال:

– محتاج للنت حالا.. عاوز أطَّمِّن عليهم.

– اللاب عندك، سلم على «لين» و«يوسف».

سكت للحظة وتابعت:

– و«أمل» طبعًا.

أمضى على اللاب توب قرابة ثلاث ساعات.. أخرج من جيبه ورقة وقلمًا وأخذ يدوِّن بشكل سريع، تركته وذهبت لإعداد الغداء. مساء، وفي الطريق، كان الشباب يرفعون لافتات تندد بمقتل الشاب السكندري، لافتات تحمل صورة لوجه مشوَّه وتدين جهاز الشرطة واستغلاله لقانون الطوارئ، كانت الأصوات عالية وطغت على كل شيء، استدرت بالسيارة لشارع جانبي تجنبًا للزحام.. التفتُّ إليه لأجده مشحونًا، قال بلهجة ملؤها الحماس:

– كنت عارف إن ده هيحصل.. كل حاجة توحي بكدا.

بالخارج، تأبطت ذراعه.. لسعتني نظرات الدهشة حين تأمل الأشياء كلها، وكأنه يعيد اكتشافها، جلسنا على المقهى المقابل لجامع الحسين، طلب قهوة مضبوطة وطلبت واحدة زيادة.. كانت الشمس تقترب من الغروب، مخلِّفة وراءها بعض الأشعة الفضية، تسللت من التعريشة محملة بالنسمات، على يميننا حائط من الحجارة القديمة انتشرت عليه رسوم وبقايا أسماء وخطوط ودوائر متداخلة، كلها بالطباشير الأبيض، جعلت الجدار لوحة تعبيرية عنوانها الذكريات، كان واجمًا، تطلعت إليه متسائلة لكنه لم يرد.. ارتعشت شفتاه محاولًا استدراج الكلام واختلق ابتسامة.. مد يده إلى فنجان القهوة، سحب رشفتين وأعاده إلى مكانه.

– بتفكر في إيه؟

– في اللي عملتيه. مش مصدق تكرري نفس الغلطة مرتين.

- زعلان مني؟

- مصدوم.

- طيب ليه؟! أنا ما عملتش حاجة أكتر من اللي انت عملته.. إحنا جرينا لأبعد نقطة في الكون، كل واحد بطريقته.. ومع ذلك إحنا الاتنين قلقانين من بكرة اللي مش عارفينه ولا عارفين عاوز إيه مننا، انت لحد دلوقت مستني قصيدة جديدة تكتبهالك، وأنا زيك يمكن مش منتظرة قصائد، بس منتظرة وخلاص. إيه الغريب في اللي عملته؟!

رفع حاجبيه مندهشًا لكلامي، فتحمست للكلام وقلت:

- طيب هقُلَّك على حاجة ويمكن تقول عليَّ مجنونة: أنا بقنع نفسي كتير إني سعيدة عشان ما أزهقش وأقدر أكمل.. صدقني.. ساعات بكلِّم نفسي بصوت عالي زي أمك زمان.. فاكر يا

«مجدي»؟! ساعات أقول لـ«جورية»: اطمني.. بكرة هيكون أحلى، طالما قادرة تنطقي اسمه جواكي وتبتسمي.. متأكدة، هييجي اليوم وتتعرفوا، وقتها بس هتقول كان عندي حق.

– ويمكن لأ. مش عارف أقلك إيه.

– ما تقولش حاجة، ادعيلي ف سرك.

توقفنا لبرهة.. التقط نفسًا عميقًا، ما الذي كان يفكر به حين خلع المعطف بهذا الطقس البارد؟!

– تعرفي؟ أوقات لما كنت بمشي في الشارع وأشوف العيال الصغيرة وهي بتلعب وطول الوقت بيخترعوا ألعاب بسيطة لكن بتفرحهم وبتخلي ابتساماتهم بوسع البراح.. اللي يرسم مربعات على الأرض وينط ما بينها، واللي يعمل قراطيس ورق مليانة هوا يبيعها للعيال، واللي يقعَّد شوية عيال قدامه ويعمل مدرس وهم التلامذة

أو عسكري وهم الحرامية، واللي يشخبط على حيطة الجيران.. وقتها بحس إن عمرنا ما كنا عيال.. عمري ما شفتك بتلعبي.

– انت لسّه فاكر؟! ههه.. طيب تعرف؟ ساعات بتمنى أرجع صغيرة عشان أجري أجيبلها ورد من جنينة الميدان، وأنا راجعة بتوقع شكلها أول ما تشوفني داخلة عليها.. وقد إيه بتكون مبسوطة.

– وكل ما نيجي هنا هنشوف ونسمع ونحس نفس الحاجات، كأن السنين مش بتمر، نفس الصور زي ما هي: الزحمة، الناس، الأرصفة، الروايح، البضايع، الألوان واليفط.. يااااه، وكأنهم مش خمستاشر سنة.. لأ استني..

حدَّق عميقًا بساعته وقال:

– خمستاشر سنة وشهرين ويومين وتلات ساعات وكذا قارة.. لما

سبتك كنت بدوَّر على «جودو» ، وزي ما أكون لسّه مستني، بس الغريبة ما شفتوش هناك، ساعات بسأل نفسي: مش يمكن يكون كذبة، وإحنا الاتنين صدقناها عشان يحصل اللي حصل؟!

– كلنا في انتظاره يا مجدي.

سادت لحظات من الصمت قطعتها حركة بائعة الترمس على الرصيف المقابل، كانت تجهز مكانها، ما إن استقرت حتى اتجه إليها، التقط قُلَّة من أمامها وشرب في نهم لدرجة أن ابتل صدره، ابتسمت السيدة بوجهه وأشارت لحبوبها الصفراء، أغرته ابتسامتها، ناولها نقودًا فجهزت طبقين، حملهما وعاد إليَّ.

لم نستسلم للجلوس فقمنا، تمشينا باتجاه البازارات، الشارع أكثر دفئًا بحلول الليل، كان يشتري من كل شيء، يشير للبائع بأصابعه فينزل الملابس، يقارن بينها وبين قياسي، يقربها ويبعدها، يرفعها

ويدنيها، عباءات مطرزة برسوم فرعونية وأخرى بتطريزات هندسية متداخلة، انتقى واحدة، وسألني:

- رأيكِ؟

قلت بمرح:

- جميلة.

عادت بعض الأحاسيس المبهجة، شدني من يدي لبازار آخر يبيع المصنوعات الجلدية، حقائب بأحجام وأشكال مختلفة، أحذية من الجلد الطبيعي بنعول مريحة من الكاوتشوك، وأحزمة بكل القياسات، هرع عامل المحل وعرض بضاعته بسخاء.. بعدها حمل عنَّا الأكياس للخارج، سِرنا باتجاه السيارة، وقبل أن ندلف التفت رافعًا أنفه:

- حلوة الريحة دي.. بليلة.. مش كدا؟!

ضحكت من رغبته القوية بتجربة كل شيء.. قلت:

- أيوه بليلة.

اتجهنا للبائع ذي الجسد الضخم والكرش المتهدل.. اخترنا مقعدين على الرصيف، مسحهما الرجل بخرقة نظيفة، ألقى نظرة فاحصة لنا وابتسم.. أشار «مجدي» له:

- يا ريس.. طبقين بليلة لو سمحت.

- زود القرفة والفانيليا.

- هاخد طبق كبير، وانتِ؟

- لا، متوسط، وخليه يزود القرفة والفانيليا.

- نفسي اسألك، ليه خبيتي عني؟! ازاي تاخدي قرار زي ده لوحدك، وتلغيني كأني مت!

- بينَّا عقد جواز رسمي وشهود، عاوزاك تطمن..

قال ملتبسًا بنظرة جدية:

- شفت صورته في البيت ودبلة جواز على رف.. بس فيه صورة تانية ما اتكلمتيش عنها.

- صورة مين؟

- صورة لواحدة غيرك.

- أي واحدة؟ إيه الألغاز دي؟!

- اسمعي يا «جورية».. شفنا المشهد ده في أفلام عربي قديمة، على فكره شفناه سوا بس يظهر إنك نسيتي أو عاوزة تنسي. مشهد ممل لناس عايشين حياة مزدوجة، ست شيك بتوفر واجهة اجتماعية محترمة وولاد صغيرين فوق بيلعبوا وبيحفظوا دروسهم، ويمكن ساعات يختلفوا ويضربوا بعض، حفلة كبيرة تحت على شرف أي حاجة لناس ما تعرفش حاجة عن الشرف، وناس من

كتر الدخان مش باينة وشوشها، ناس تافهة، الحياة عندها مش أكتر من رحلة لأوروبا كل صيف وزيها للساحل كل شتا. تفاصيل باردة تمام زي صورة كبيرة متعلقة ع الحيط، فيها اتنين بيمثلوا السعادة بابتسامة كدابة، قدام الكاميرا بس.. ست عارفة كل حاجة عن جوزها، ومتأكدة إن فيه عشيقة في الضل.. بس كل اللي شاغلها خصلة شعر بيضا ما طالتهاش الصبغة، بذمتك فيه أسوأ من كده؟

فهمت ما يرمي إليه وادَّعيت السذاجة، قلت بمكر:

- عاوز تقول إيه؟

- ببساطة شديدة، عاوز أقُلك إن كل واحد م الناس دي مخبي جواه داعر، وكل واحد فيهم مستمتع بالكدبة لمجرد إنها ألوان بتخبي كآبته، الفرق بينّا وبينهم إن صورنا متحركة وحيّة وصورهم

ثابتة مخيفة، ده اللي يخلينا بنتوجع أكتر منهم، إيه يجبرك تتحملي كل ده؟ بصراحة أنا مش شايف مبرر وانتِ كمان مش مضطرة تقبلي.. إحساسي.. طبعًا مش مبسوط.

- يعني!

- تعالي معايا، لو ع الشغل فيه كتير. عندي معارف في كل مكان، الموضوع فعلًا بسيط، صدقيني.

- «مجدي»، أرجوك، ده جواز رسمي، ولو موجوعة مش هاشتكي لك، ومش لازم تهتم.. كمل حياتك اللي اخترتها بهدوء، عن نفسي سايبة مساحة للاحتمالات يمكن الوضع يتغير، ولو ما حصلش مش هموت، ما تخافش عليَّ.

- وعدتيني يا «جورية» وللأسف ما نفذتيش وعدك.. ليه يا «جورية»؟ ليه؟!

– قدر.. دي الإجابة الوحيدة على سؤالك.. وضعه كزوج فرض حاجات كتير كان لازم أقبلها في وقتها.. أرجوك يا «مجدي».. حاول ما تلومنيش..

جلس مطأطئ الرأس، كان يرفعه كل حين بمرارة لينفث دخان سيجارة أو ليلوك حبات البليلة مضطرًا، حاولت إذابة جمود اللحظة، ربتُّ على ظهرِهِ، احتضنته أناملي بلين فرمقني مستسلمًا وقال:

– يا ريتك ما قبلتي.

قام متباطئًا من مكانه، ناول البائع ثمن البليلة، تبعته صامتة، تعلقت بذراعه فتركها لي بوجوم، دلفنا إلى حيث وضع الباعة طاولات تزخر بتماثيلَ وأحجارٍ وعلبٍ من الصدف، تشاركنا اختيار منحوتات خشبية منوعة كتذكارات، سيهديها لرفاقه حين يعود إلى

لندن.

غريب أن يختفي كل توتره، ويهدأ كل الفوران بداخله بعودتنا؛ ليجد بصندوق بريده الإلكتروني رسالة منها، ما الذي تضمنته حتى يرسم تلك الضحكة المرتاحة، وتستقر ابتسامة وادعة بوجههِ حتى الصباح؟ لا أدري.

***

لأيام أنتظر رده على رسالة كتبتها من تسعة أحرف، وكانت: «م م ك ن ن ت ك ل م؟». أدهشني صموده، فكل ما بيننا الآن لا يمكن التنبؤ بمساره، ولا لأي مدى يمكن أن يصل الزمن القصير الذي تشاركناه، لم تعد قبلاتنا المختلَسة مهما كان زمانها ومكانها قادرة أن تمحو الضجر بيننا، ولا أن تخفف الأثر السخيف بعدها، ولا صعوبة منطقه حين يبرر رفضي لها، هذا التناقض المضحك

المبكي بات يغلف كل شيء، ضجرة كنت أترقب فجرًا جديدًا قبل أن يذبحني عمدًا بـSign out أبدية.

مساء أفقت على واقع مفزع، صور لهما على حائطه الافتراضي.. ما الذي يحدث؟ مارشات صخب حادة تتوالى بجنون، موجة من التوتر تلتهمني، أسمع إيقاع أنفاسي اللاهث، أشعر باستنفار حواسي وألم يسحق رأسي، أود لو أصرخ، أو أن أنتزع قدميَّ المغروستين في الأرض لأفاجئهما هناك، بشرم الشيخ، كل ما حولي مقيَّد بسلك شائك حتى أنا، هل يدرك ما أعانيه الآن بينما يستمتع؟ هل خطرت على باله حين عانقها بهذا الهيام؟ هل تذكرني لحظة جمع الأصداف؟ هل زرت خياله وطفلتاه تهيلان قصر الرمال؟ تابعت الصور بعينين غائمتين.. الضباب يغشى الفضاء لا يتيح لي غير مشهد واحد يجمعهما بالفراش، يطارحها

الغرام بجناح مقمر، ذبحتني خربشاته على جلدها، سمعتها تتأوَّه فيلملمها كقطة، ترمي شعرها الأشقر على كتفيه، تغمض عينيها بدلال، وتتقوقع داخل صدره، أرهقها صدامه فاستسلمت، لن يتوقف قبل أن يفرز رائحته في جسدها، حتمًا هي الآن مبتلة، ربما تبتسم بين ذراعيه، ليته يعيدها للنوم، فنهنأ بالسكون.

أين سأذهب بصوت الإنكسارات بداخلي؟ ماذا لو كتبت له أنني مجروحة وأن ألمي يفوق احتمالي؟ تراه يهتم؟ كيف انتزعته مني بتلك البساطة؟ لماذا صدقت كلامه عن علاقات الزواج المملة؟ كيف أواجهه بثورة لأرفض علاقة تجمعهما لتشطرني نصفين؟ ولماذا عليَّ أن أكون الأكثر حرصًا على استمرار علاقتنا؛ فأحفظ رائحته ومذاقه وصوته وسكونه؟ كيف أقاوم جنون مشاعري؟ وجمح أفكاري، ولماذا أدفع وحدي ثمن الكتمان؟ قلَّبت الصور،

تفقدت ملامحهما، قربتها.. أبعدتها، قارنت بين خطوط وجهيهما وزاويا الابتسامات، تراه حين أمسك بذراعها بتلك الصورة قصد شيئًا ما؟ أعرف تلك الحركة، وكيف تدفع لركن ما بزاوية ما لتنتهي بحريق ما.. في الجهل رحمة، لكنني الآن أعرف أكثر، ليست تلك بحالة رجل يعاني الضجر، ولا هذا الوجه لامرأة تعيسة، ثمَّة دفء يشع منهما، كيف يكون ضجرًا ويكتب بمثل هذا الصفاء؟! اختفت لسعة الوجع وحلت انتفاضة الزلزال، شيء خفي يحركني، كالخوف، كالذعر، كالوجع أكبر مني وأقوى، فكرت أن أهاتفه، لكنني ما استطعت، عدت لصفحته الشخصية، فعَّلت الرسائل، كات عيناي تتجولان ببراح الصفحة في بلاهة، وأعيد تشبيك الكلمات في بلاهة أكبر، بقيت لساعة لا أفهم ولا أعي ما حولي، كان الفجر وشيكا على البزوغ حين كتبت:

«خالد..

هذي جورية

بل امرأة تحتضر على عتبة نص، دموعها الآن تنشق عن روحها، تتذكر أنك لم تضحك بحديثكما الأخير، تتكئ على ظل آخر كلماتك والتي رددتها أنت بقسوة؛ فأنت لم تزل على عهد الجفاء، لم يعد ممكنا أن تتنفس بصدرك؛ فتعبرها دهشة لا يساويها غير عناقك، لم يعد ممكنا أن تكتب لك وكأن أحدًا يملي عليها قصيدة لطاغور« ألق نايك أرضَا يا حبيبي، أترك يديك حرَّتين لتضمني». آآه لو أنها تنساك، ولا تتنفسك مشاعرها، لو أنها لا تبكيك، لو أنها- فقط- لا تتوجع. هل كنت تعنيها حقًّا حين قلتها؟ هل كنت؟ هل قلت لها الكلمات نفسها؟ هل جرؤت؟ هل جئت بها الليلة إلى سريرك؟ هل فعلت؟ هل غفوت بين

ضلوعها؟ هل استمتعت بمداعبة نجومها حتى إذا ما أغمضت عينيك شهدت ميلاد سيلينا جديدة؟».

جاء رده متأخرًا:

- تاني يا «جوري»؟!

- تاني إيه؟!

- ليه بتبعتي الرسايل دي؟

- انت مش شايفني، ولا أنا سامعاك.

- وضع مؤقت.

- وضع سخيف.

- فوقي يا «جوري».. ما تضيعيش اللي بينّا.

- مش مصدقة، انت واعي للي بتقوله؟!

- مجنونة انتِ أكيد، أنا ما قلتش أي حاجة.

- مجنونة لأني بحبك!

- لو ده حقيقي اتحملي.

- مش قادرة، بتخيّلكم مع بعض طول الوقت، وده معذبني.

- دي مراتي يا «جوري».

- ما بقيتش تقولها زي زمان!

- طبعًا بحبك.

- لحد إمتى؟

- إديني فرصة.

- مش هتشوفني تاني يا «خالد».

- براحتك.

- انتَ ما صدقت؟!

- انتِ محتاجة وقت عشان تهدي.

- يعني!

- مش لاقي كلام.

***

يتكرر الكابوس يوميًّا، أقبض على المقودِ بعنفٍ، تحتشد بي طاقة غضب لا يمكن إخمادها، تتمثل بسيارة دفعٍ رباعي أقودها بجنون، الحافة على امتداد الرؤية، تقترب وأقترب، أحاول بكامل طاقتي جذب المكابح، ضغطها، لا شيء يفيد، تواصل الـJeep زحفها نحو الحافة ويغمرها الغبار، إنها النهاية حتمًا، تجذبني الهاوية، أسقط.. أصرخ في جنون.

أفزعني طرقه المتواصل على الباب، نهضت أتطوَّح لأفتح، وعدت إلى الفراش فارتميت كجثة واحتضنت حافته، دخل «مجدي» فاعتدلت.

– ما لك؟ انتِ كويسة؟

– كابوس.

اقترب من السرير وجلس قبالتي:

– تحبي نتكلم؟

أومأت مجيبة بنعم.

– لسّه بتحبها؟ سألتك وما رديتش!

– مش هو ده السؤال.. الموضوع مش كده خالص.. الفكرة كلها إننا بنكمل بعض.. يعني حتى لو حاولنا نبعد لازم نرجع. كل واحد فينا بعيد عن التاني بيشبه بازل ناقص؛ يعني لازم تكملي القطعة الناقصة عشان تكمل الصورة، ولو حسينا ملل فيه خيار لطيف اسمه أجازة زوجية، وقتها اللي عاوز يخرج بيخرج ومفيش أي احتمال للضياع، في النهاية بنرجع صدقيني.. وأفضل م الأول

بكتير.

- مش فاهمة.

- لما فقدِت جنينّا الأول ما كنتش فاهم ولا مستوعب تأثير ده عليها، وقتها كنت بمرّ بأزمة في شغلي خليتني أسيبه، كنت تعبان فعلًا ويمكن كنت محتاج لها أكتر منها، كانت لود مستمر، وما كانش يعدي يوم من غير مشكلة، كانت بتبعد يوم ورا التاني، نفسيًّا أقصد، وما رجعتش غير لما زميلتي «كلارا» اتصلت تكلمني عن وظيفة جديدة بعائد مادي كبير.

سَكَت للحظة، وقال:

- فكريني أوريكي صورة «كلارا».

- برضه ما جاوبتش!

- الأزمة يا «جوري» إنك تكوني بس قادرة تحتفظي بحد في

حياتك لمجرد إنه بعد عنك شوية، أو لو حسيتي خطر، حتى لو مش حقيقي.

- دلوقت أموركم أفضل؟!

- مش دي المشكلة، إنما الإشكال الحقيقي في الأسئلة الكتير اللي عادة إجاباتها واحدة وما بترضيش.. يعني بس لمجرد إنها عاوزة تطمن طول الوقت بتسأل: بتحبني؟ أيوه بحبك، ليه؟ لأني مليش غيرك، وليه أنا بالذات؟ وليه مش غيري؟ لأن مفيش ست زيك، مش بتقولها زي زمان! سامحيني، مش بتبوسني! مرهق.. تعبااان. يااااااه يا «جورية».

- للدرجة دي؟!

- وأكتر.. طول الوقت شكوى ومن غير داعي، نسيت عيد جوازنا، مش عاجباك تسريحتي، مش واخد بالك من فستاني،

شايف بس عيوبي. مش عاجبك أكلي، فيه إيه دونات كلارا عشان تحبه ؟!

– ما كنتش فاكرة الحياة بينكم بالشكل ده!

– اسأليني عن معنى الحب يا «جوري» مش عن حجم مشاعري.

– سامعاك.

– الحب هو إني أكون قادر أستمر رغم كل الصداع ده.

***

أمسى الكابوس لعنة تطاردني كل ليلة، لكني كنت أضيف كل مرة رصيدًا جديدًا من التفاصيل، في الليلة الثانية كانت أمي بزاوية بغرفة زرقاء الجدران، تتابع مشهد السقوط من فوق كرسيها المتحرك عبر جهاز تلفاز قديم، صرخت صرخة نصف موءودة تبعتها كثير همهمات، قبل السقوط بثوانٍ تركت كرسيها المتحرك

لتتبعني، ولكنها سرعان ما انهارت بنصف المسافة، استطعت أن ألمحها تعيد نفسها للكرسي بعد أن التهمني الفراغ.. وفي ليلة أخرى كانت الغانية تلوك العلكة وتعيد تلوين شعرها، كانت تستند بمرفقيها على كرسي أمي، وتنادي «علي» ليشهد انزلاق الـJeep من أعلى الحافة الصخرية، ندت عنهما ضحكة مجلجلة، بعدها طالبها بتغيير القناة فوضعت بفمة كرة زلابية، وعاد ثلاثتهم للداخل.. في الليلة الرابعة كان أبي يتوسطهم بمائدة مستديرة بالغرفة الزرقاء نفسها، قلت لأربعتهم قبل أن أركب الجيب إن عليهم تغيير القناة مقدمًا إن لم تكن لديهم رغبة بمشاهدة غير ممتعة لسقوط مريع، لكنهم أصروا على المتابعة، وكان أبي بنصف شارب ونصف عين مغمضة، ونصف وجه عابس، كانت يده مختفية تحت المنضدة تتحسس فخذ الغانية، أما اليد الأخرى

فكانت تضبط الصورة بالتلفاز، لم تكن السيدة القعيدة غير متابعة لما يحدث تحت المنضدة، بل كانت تراقب من مكانها وكانت ساقاها ترتعشان، استمر «علي» يلتهم الزلابية، وكانت أمه تتشدق بالعلكة شبه مغيَّبة، بينما الـJeep تواصل زحفها لخط النهاية، وعجبًا لي ما زلت أتابع وأواصل السقوط.

لا أدري كيف استطعت النوم دائمًا بين كل سقطة وأخرى تشكلها كوابيسي، لكنني أفقت على وجه «مجدي»، كان يحدق في بعينين جزعتين، وكانت الغرفة تشبه غيمة رمادية بعد أن تسلل لها ضوء الفجر الخفيض.

- انتِ بخير؟!

- كانوا معايا في الحلم.

- كنتي بتصرخي، مش ممكن يكون حلم، ده كابوس.

- كلهم كانوا هنا.

- وأمك؟

- وأمك واااب...

- لسّه حاجتها عندك؟!

- دبلتها لسّه في صباعي وصورها القديمة وشوية هدوم.

- تعالي نزورها.

- وعدتِني هنروح كل سنة، ومن يومها انت في لندن وأنا هنا، كل ما أفتكر آخر مرة كل خلية في جسمي توجعني.

- خلينا نروح قبل ما أسافر.

***

كان صباحًا باردًا على الرغم من الشمس الساطعة، وكان علينا أن نقطع القاهرة إلى قلبِ المدينة القديمة، تلتهمنا العشوائيات

بشوارعها الضيقة، القلعة على امتداد البصر، تقترب مقابر البساتين حيث كانا يرقدان، المسافة طويلة مغبرة، عجزت عن التقاط أنفاسي، حاولت مرارًا أن أفتح ممرًّا آمنًا للعبور، لكنها تمردت عليَّ، فشلت كل أحاديثه في إذابة الجمود، قبضت على المقود وعيناي مثبتتان بالطريق، كل شيء يتحرك سريعًا للأمام، ولكننا بالسرعة ذاتها نتحرك للخلف، وكأننا نقطع المسافة ركضًا بالمكان، صمت يصرخ في الأنحاء على الرغم من الضجيج واختلاط الروائح، وتسرب العادم من فتحته الضيقة. كان محرك السيارة يضج، خلتنا نعطِّل، لكنها توقفت عندما اكتملت المسافة.

ثلاثة مصابيح ما زالت لم تُطفأ، ومع ذلك مرَّرتُ وميضًا مرتعشًا غير مضيء، صبارات ضخمة على صدر كل ممر، لم تشغل الشخوص حيزًا في لوحة الرؤية، كانت لوحة باردة من جمادات

وكائنات رمادية شبه محنطة. ما زالت الكتلُ الحجرية بشواخصها تحمل رموزًا للموت الصامت. المشهد ثقيل كلوحة سريالية بالغة التعقيد، وبالوقت ذاته كان بسيطًا كسحق طابور من النمل.

– ما لك؟

– مفيش.

– افتكرت إنك كبرتي.. ليه متلِّجة كدا؟!

– انت مش فاهم، أرجوك خلينا نخلص ونمشي.

– فيه ريحة كبدة، تعالي نجيب رغيفين من الراجل على الناصية. ما شفتيش منظره وهو بيعمل الساندويتشات.. يا ريتك أخدتي بالك!

– إيه اللي بتقوله ده؟! ده وقته؟!

– كبدة ميتين.. حد طايل؟!

ابتسمت، فقال:

– يا ريت كنتي جبتي الكاميرا وصوَّرتي وجه القاهرة التاني.. الناس هنا بتتنفس وجع.

ترجَّلنا من السيارة، وصلنا صدى لهرولات كثيرة، برز بعض الصبية من ممر جانبي، نظراتهم الحادة اخترقت أنسجتنا. احتضنت حقيبتي وأرسلت عيني للسيارة خلفنا، بعضهم تحلَّق حولها بينما أعينهم تنتهك الزجاج، لم تلههم كآبة الشواخص الحجرية عنّا.. لم تستدرجهم الحروف المنقوشة بالثلث على قطع الرخام لأسماء العائلات: آل سيوفي، آل جيار، آل سلاموني.. ولم يكن اليوم مهيَّأً لوافد جديد، حمدت الله حتى لا نوزع قسائم الأحزان، يكفينا جسدان مؤرقان بالعتاب. اتجهنا إلى حيث كانت مقبرة آل أبو العينين، الجد الأكبر لأبينا، تآكل الشاخص الحجري

وجفَّت أوراق الصبار وتهدلت، ظهر شيخ ضرير يقوده صبي أعرج، جلس على الأرض عاقدًا ساقيه وبدأ التلاوة، التف الصبية حوله في نصف دائرة فاغري الأفواه مسبلي الأعين عدا الولد الأعرج، كان يحملق فيَّ. شغله انعكاس صورته بزجاج النظارة المعتم عن الصوت الآخذ في الارتفاع، لم تكن تلاوة مؤثرة ولم تبعث فيَّ الشجنَ، لكنها كانت عالية بما يكفي لأن تسرقهم من بؤسهم، يالجلال الله، يوزعون ابتسامات شحيحة الروح كهزالهم، وبيضاء باهتة كبقع الوجوه، أنهى الشيخُ التلاوةَ، هرع إليه الصبي، دس «مجدي» بكف الرجل ورقة نقدية قبل أن تدق عصاه ترابَ الأرض ويختفي، مدوا أكفهم الصغيرة لنا فمررنا بها قطعًا نقدية، هرولوا بعدها وسترهم الممر.

سور واطئ يفصلنا عن الخروج، لكنه يسجن قدورًا ضخمة تغلي

فوق مواقد قديمة يتسرب منها البخار، روائح مختلطة يتقافز حولها الأطفال، نسوة يتربعن فوق المصاطب ويُجدن الكلام، رجال يتبادلون السجائر والنكات، عجائز يستنفدن الوقت بضيق، سيدة سبعينية وضعت وابور السبرتو على قدر مقلوبة ووضعت فوقه كنكة القهوة بينما تترقب نضجها.

حوت عيناي المشهد ذاته بذكراه الأربعين، يومها ذكَّرتني النسوة المتشحات بالسواد بقراءة الفاتحة وإهدائه بعض آيات من القرآن لتهدأ روحه بدلًا من الحملقة والنشيج، رمقنني بذهول واتسعت حدقاتهن، لم يكن يدركن سبب البكاءِ، كنت أبكيني وأدفع بتلك النافذة الموصدة بروحي لتنفرج، كان من المستحيل ادعاء أن الغبار الذي غلَّف كل شيء لم يكن ثقيلًا بحيث سكن الفراغات، والتصق ليغلق جميع الثغور، من خلف دموع عيني لم ألمح أي

شيء، كان يومًا غائمًا، تمتمت بسري، بادلتهن التحية وانزويت، التجأت لجدار حجري ولفني خدر عجيب، كأن الروح قد وجدت أخيرًا ملاذًا بالجسد المعذب بالصور، انساب قدرٌ من السكينة يسمح باتساع المشهد لتنفذ أشعة الشمس، لمحت بعض اهتزازات متباعدة لنبتات الصبار ولم تكن بعدُ مهداة للعدم. مضت النسوة لحالهن، عاد اللحَّاد لينثر بعضَ الماءِ حول المقبرة، انبعثت رائحة رطبة يألفها أنفي، لكنها مخضبة بالموت، ذهبت إلى قبر أمي، وهبتها كل الدعاء، أرسلت نظرة لقبره لأكتشف كم أصبحا قريبين ولم يكونا أبدًا كذلك، وكم تباعدا وراحا في سُبات لن توقظهما منه الأشباح.

كان اليوم ثقيلًا، لاحقتني المشاهد كلها، خرجت من روحي كبخار يتكثَّف، كان الصمت أقوى مني فانسحبت إليه، تأبطت ذراعه

فاحتواني برفق.. قرأنا الفاتحة ودعونا لهما.. حدَّقنا بالأفق، كان شفقيًّا.. لمحنا في السماء طائرًا بارع التحليق، ألقينا نظرة أخيرة على المكان الذي ضمهما، وجدناه فارغًا من كل شيء، فقط بعض روائح فقيرة تعود للماضي البعيد.

***

مساءً، انشغل بترتيب حاجياته، بين شفتيه سيجارة احترق نصفها، عيناه معلقتان بشاشة الحاسوب، وعلى وجهه نصف ابتسامة، نصف نظرة غائمة ونصف رغبة في الكلام، نفث دخان السيجارة بحالة من الصفاء ليثير كمًّا هائلًا من غمام، ذكَّرني بليلة كنا نرتق فيها حكاية تنشد الاكتمال، أخرج من حافظته قصاصة قديمة متهرِّئة الحواف، نظر إليَّ بتمعن ونفث الدخان من جديد، اختفت عيناه خلف السحب الرمادية، مَنَحني الورقة بطرفي إصبعين، بدد

إحساسها حالة السكينة التي خلتها، تساءلت بنفسي: ماذا تكون يا ترى؟ رماني بنظرة فيها شيء من الإشفاق، تنهد تنهيدة عميقة أوحت لي بالجواب وقال بصوت ثابت:

- اقرئي.

- فيها إيه الورقة دي؟!

- لقيتها وسط حاجاته.

- فيها إيه؟!

- ورقة بخط إيده، اقريها يمكن تفهمي.

أمسكت القصاصة لأفكك رموزها فهالني جموح المحتوى وانبعثت رائحة أعرفها تعود لزمن بعيد.. كانت بخط أعرفه وكانت تقول:

«هل تتوقع أن يسامحك الله؟ أي حقير أنت؟! لم تكن غير قذر عجنته الخطيئة، وبدلًا من أن تكفِّر عنها ابتعت رابطة عنق

جديدة تلائم قميصه الذي أصبح لك، كان عليك ببساطة أن تعترف له، ولكنك أهديته جوربين وعلبة دخان وطاقم أسنان جديدًا.. وكان أباك.

كان عليك ألا تبتلع طعامها العفن؛ لأنك ببساطة لا تطيقه، وتمقتها على اتساع جرمكما، ولكنك ازدردته بنهم وقبَّلت يديها شاكرًا وابتسمت، لماذا لم تخبره أنك كنت تتقمص جسدها نيابة عنه لأنه لم يقربها لعامين؟ وكنت تفعل ذلك يوميًّا في غفلة منه وتتصنع العفافَ، وكانت زوجته.. زوجة أبيك!

لم يكُن عليك حين تكونان معًا أن تضع وجهًا غير وجهك لتقابل اتهامها لك بالخيانة ضاحكًا، فقط لأنك تخجل أن تخبرها أنك حين تطاردهن فإنك تبحث عن الأخرى فيهن، لكنها لا تعرف، وتلك كانت زوجتك.

كان عليك ألا تنبش الركام فلا تفجعك منحوتة من صنعك لابن بار فشلت أن تكونه، ولا تعذبك ابنتك الجميلة بصورة لامرأة سيشهد العالم ذبح براءتها كل ساعة، فافعل ما شئت فكما تدين تدان».

- إيه الكلام ده؟!

- دي الحقيقة.

- حقيقة ! معقول ده أبونا؟!

- أيوه، أبونا بكل جبروته.

- مش قادرة أصدق.

- لازم تصدقي عشان تغفري.

- أغفر؟!

- لازم تسامحي عشان تكملي، لازم يا جورية. كل اللي عدى

حاجة واللي جاي حاجة تانية، صدقيني فرق معايا كتير اني عرفت، ولو مش متأكد مكنتش قلتلك. من قلبي بادعي ربنا يسامحه، مكانش مسئول عن حاجات اترسخت في قناعته لكل السواد ده، أبوكي كان ضحية لكل ظروفه. وامك كانت ضحية لضعفه مش لقوته، واحنا ومش محتاج اقلك، كنا ضحايا للاتنين.

حاولي تسامحي بجد، من غير ده هاتفضلي تلفي ف نفس الدايرة.

أشعل لي سيجارة وأخذت منها ذاك النفس العميق، بكيت كطفلة صغيرة، لم يربت على كتفي، لم يسألني عن السبب، حتما كان ليعرف، راقبني بحنان بالغ، حتى هدأ بكائي، ونظرت إليه في دهشة لأقول:

– يااه، بعد العمر ده!

راقبت وجهه بينما يلملم أغراضه، ويتفحص علب المشتروات،

ويعبث بغلاف لهدية لم تفتحها زوجته بعد، التقت عينانا وسألني إن كانت ستروقها، قلت نعم، قلتها بمرارة كبيرة بينما أتذكر أبي، لم أجد له صورة بمخيلتي غيرها، كان يغازل امرأة العلكة ويطارحها الغرام، بينما ترتعد أمي خلف الباب وتبكي في قهر، تعجبت لحال بعضهم، أنصاف ملائكة وأنصاف شياطين، مختلون يمارسون المجون في العلن، ومع ذلك يسألوننا مساحة من القداسة تحتلها صورهم، في تلك اللحظة كان يمكن أن أحاكمهم بتهمة الانتحال، فعلى اتساع جرمهم بدوا بأعيننا آلهة، ولم يكونوا غير شواخص حجرية صنعناها في أسوأ كوابيسنا، وربما صنعوا أنفسهم في غفلة منا، هم لا يدركون أنهم حين يتلبسون مسوخهم الجديدة؛ فإنها تشف عمَّا تحتها؛ فلا هم آلهة مقدسة ولا هم شواخص حجرية، هم بالنهاية مجرد أنصاف من عدمٍ تتوارى خجلًا من

أعمدة الضوء، يكفيك أن تمد يدك بمعول أفكارك لترشق جمجمة الوحش؛ فيتهشَّم كليًّا، يكفيه صرخة منك ليتلاشى، لكن بالنهاية حين يسقط وحشك الذي هو صنيعتك سيفاجئك أنك سبقته إلى السقوط.

لم يكُن من المفترض أن أنتظر تَرِكَة فريدة تحمل صورًا شعرية وظلالًا ملونة ودلالات رائعة تستحق الكثير من باقات البنفسج لأضعها على مقربة من قبرهما، وربما بمسافة ضيقة تفصل بينهما ليتقاسما الألوان والرائحة والدعوات، لم يكن السبب المباشر يرجع لعدم حيازتهما تلك المسببات لتنعدم النتائج؛ وإنما لثقة بأنني ما عدت أستطيع الجزم بأن العالم نفسه سيتضرر لو لم أفعل أو سيهتم لو أنني فعلت، فعلى الرغم من كرمه الزائد متمثلًا في إهدائي أحدث نسخ غرائبه، أشعر أنني اكتفيت، لا حاجة لنبش

جديد خلف سطور الأحجيات، تلك الأشياء كلها حدثت حين كان السابقون يعدون لحيوات بغيضة سيتركونها لي كإرث أسود آخذ في التعملق، كان من المهم لثبات صحة عقلي أن أواصل كتابة رسائل يومية وبرقيات امتنان وخطابات مسجلة بعلم الوصول، خاصة لمن يتجاهلون الرسائل؛ فهؤلاء هم من توجهت لهم بالشكر كله، كان عليَّ في النهاية أن أنحني لهم احترامًا وأكرر الثناء اليومي لعظيم منجزهم، ولكوني شاركتهم الأنفاس، وبعض الضحكات وكثير كثير احتقار.

– ما لك؟

– كأني عايشة كابوس زي كوابيس كل يوم.

– دي حقيقة ولازم نقبلها. يمكن لو كنا عرفنا زمان كانت الأمور اختلفت. تعرفي.. أجمل شيء في الحب إنه بيخليكي تسامحي، ما

كرهتوش، فعلا ما كرهتوش، وكان جوايا يقين إن فيه شيء أكبر منه بيحركه.

- ياريت أقدر اعمل زيك.

- هاتقدري، أنا متأكد.

نظر إليَّ بعمق، النظرة ذاتها التي تغلِّف وجهه حين يأخذه التأمل.. كانت تحمل رضا لم أعهده، تشاركنا سيجارة بعد أن أحرقنا القصاصة.. بصمت ودعنا بقايا جرحنا، تساءلنا: هل يأكل الحزن نفسه، أم أنه يتغذَّى على أوجاعنا؟ أدركت من نظرتنا أنه ينهشنا كليًّا، لأعوام أفكر في احتمالات الإجابة، أرتب أوراقي لأكتب فكرة بعد فكرة، احتمالًا بعد احتمال، أحرق سيجارة تلو سيجارة وأحرق روحي قبل كل شيء.. ودومًا أتعثر، لماذا إذًا لا يكون الأمر تلقائيًّا هكذا؟ لماذا لا يكون صادمًا كالموت، أو سلسًا

كحرق قصاصة، أو حتى مفاجئًا كضيف ثقيل؟ كل ما في الأمر حينها أنك تفتح الباب لتستقبل روحك التي تركتك، كل ما في الأمر أنك ستودع شبحك الذي جالسته حين افتقدتها، وحكيت له أسرارك كلها وشاركته لحظات الفرح وأعوام الحزن.. كل ما في الأمر أنك ستعود وحدك من دونه، ربما تفكر أن تراسله على الأوراق ليعرف عنك.. كل ما في الأمر أنك ستتحرر منه لتستقبل ذاتك.

انصرفت لإعداد عشاء شُغل عنه بلملمة أغراضه، كان يدندن لحنًا لفيروز، ويرسل المزيد من حلقات الدخان.

صباحًا وقبل أن يذهب واجهتني عيناه، لم يكن لومًا، كان وجعًا مغلفًا بحنين.

- لآخر مرة هاقلك ارمي كل حاجة ورا ضهرك وتعالي.

– في يوم هتتعرفوا وهتكون راضي.

– ويمكن لأ.. وقتها هتندمي.

– مش هيحصل.. في كل الأحوال مش هيحصل.

– بتمنّى.

عانقني واجمًا ملتبسًا بابتسامة:

– هستنَّاكي.

– هوصَّلك.

وقف في منتصف الصالة يتحسس جيوبه، بعدها التقط نفسًا عميقًا واكتسى وجهًا آخر وخرج، في الطريق إلى المطار ظل يثير مواضيع كثيرة لا تناسب لوعة الوداع: العولمة والفضاء المعلوماتي، أقباط المهجر، الرأسمالية التقدمية، اتفاقية أوسلو وخطر الاستيطان، حروب التطهير العرقي وطمس الهوية.. أشياء

غريبة معقدة ومبهمة.. لم ألقِ بالا لها، كنت أغالب ضيقي وأقاوم مشاعري، بالمطار عبرنا بوابة الدخول، وحين وصلنا صالة السفر حدَّق كل منا في الآخر وتلألأت بأعيننا الدموع، عانقني طويلًا، دارت برأسي أفكار كثيرة، استسلمت لها، كنت أشعر بإنني لو ضغطت على نفسي أكثر لانفجرت، أو لتناثرت قطعا صغيرة، قال أشياءً عدة، آخرها السؤال الذي لم أقرر بعدُ إجابته:

– هشوفِك تاني؟!

– أكيد.

– هستناكي.

خرجت من المطار أمضغ صمتي، أغالب رغبة قوية في البكاء، لسعتني البرودة، ورجاؤه الذي أوجعني:

– ما تسمحيش لحد يحبك أكتر من نفسك، اتعرفي على «جورية»

ويا ريت تحبيها بجد؛ لأنها تستحق.

29

ليلة مؤرقة بتلفاز على بُعد مترين، جهاز الريموت كنترول مجرد أداة تفجِّرني عن بُعد، المشاهد كلها مكررة ومملة، حتى الحائط الافتراضي بشكله الثابت وتفاصيله النمطية، ربما لم أخبرك أنني فعَّلت حسابًا وهميًّا على الفيس بوك باسم «الرومانسية»، لم تكن الصورة لي، إنما لامرأة أخرى لها شفتان مكتنزتان وتضع حمرة

فاقعة وكثيرًا من الظلال الرمادية، لا أخفي عليك أن طلبات الصداقة تنهال عليَّ كعروض عمل بالخليج بأجر مغرٍ.. كلها عروض رجالية محترمة، أنواع ترسل على الخاص عبارات خادشة، وتفترض أنها مقدمة لازمة لصداقة شعارها «أصدقاء بلا حدود».

فعَّلت حسابًا «فيس بوكيا» آخر، لكن تلك المرة لرجل وسيم، باسم «مسافر وحيد»، كانت مأساة أن أكتشف أن رسائل الإنبوكس تصلني بعروض العمل ذاتها والمدفوعة الأجر، الفرق أن المائعات يرسلنها، دعتني «آن» لزيارة بالساحل الشمالي، ثم «رشا» و«لطيفة» من المغرب، ربما بقليل من الضغط كانت لتفتح الكاميرا، راقهن الجسد الفتيّ، كان الأسمر بالصورة نصف عارٍ يتوسد رمل الساحل ويرسل حلقات الدخان، لا أنكر أن الباي

والتراي كانتا مذهلتين.. لكن، هل تصلك مثل تلك الرسائل؟!

الحسابات الوهمية تنقذني من وسواس قهري، ترفع عني الحرج وتفتح أبواب الخيال، الشيء الوحيد والمؤكد أن حسابي الحقيقي الذي تعرفه هجرته بشكل شبه نهائي؛ لأن كل ما أكتبه على الحائط من عبارات تخبر عنَّا يوتر أعصابك، الآن أعاني الوحدة، فتحت الصفحة التي اعتزلت وأصبحت أرقبهم عن بُعد، من دون ترك أثر.. لم أُضِف تعليقًا واحدًا منذ أسبوع، وظل الحائط شاغرًا بحاجة لمن يطرقه، لم يأتِني أي إشعار لرسالة أو حتى مشاركة.. تذكرت حين حدثتك عن كاتب مشهور مسن له ميوعة النساء، ويكتب يوميًّا كتابات لها تأثير فيلم إباحي تجيزه الرقابة بحجة «قليل من التوظيف مقبول، المهم التناول». ضبطت هذا الكاتب بصفحة أدبية مغمورة تضع له إشارات الإعجاب على كل ما

يكتب، راقها أن قال: أعشق امرأة هي شهوة تمشي على قدمين. فردت بتبجح: لا عجب سيدي أن تعشقك كل النساء. حذفت صديقي المخنث هذا بعد أن راسلته من حسابي الوهمي، لن أخبرك بمحتوى الرسالة مهما حاولت، أضفت فتاته لحساب «مسافر وحيد» وقبلت وتجاهلت حسابي كفتاة تمامًا.. راسلتني مرتين.. وأجبتها. توقَفَت بعدهما عن مطاردة العجوز المخنث، سبها على صفحته، فضحت ألاعيبه الشاذة.. بعدها اختفى الاثنان.

حذفت كذلك فتاة الثلاثين ذات الشعر المستعار، على الرغم من أنها لم تفعل شيئًا غير أن مطَّت شفتيها برقاعة، ووضعت لوفة مستعارة على رأسها بلون أرجواني والتقطت بعض الصور.. لكني ترددت كثيرًا قبل أن أحذف القاص صاحب أخطاء التهجي والنحو

الأكثر بشاعة في تاريخ اللغة، سأرسل له كالعادة قصته الأخيرة بعد التعديل.

قلتُ: إن العالم بقدر من الأنانية يضبط إيقاعنا ليلائم نوتته. كذَّبتني.. أعتقد لأنك اعتدت ضبط نوتته ليلائم إيقاعك أنت. أنا لا أحب الشطرنج ولا أيًّا من ألعاب الذكاء، على الرغم من أني أكدت العكس؛ لأنها لا تثبت سوى نقص بي، انعدام ثقة ربما.. ليس لغباء أعانيه ولكن لغرورك المفرط، ألا يمكن أن تخسر دورًا ولو من قبيل التغيير؟! هل تدرك أنني في المرة السابقة لاحظت تذمرك قبل ثوانٍ من انتهاء اللعبة ليقينك أني أقرأ أفكارك؟ أخبرتني أن البنت في لعبة الورق تشبهني، لكنك ساعة كئيبة على حائط تشهد احتضار العالم يوميًّا ببرود.. لكن، لماذا لست هنا؟!

يذيعون «تيتانيك» على القناة التي يملكها رجل الأعمال طليق

المذيعة التي قُتلت بحينا الهادئ، أفضِّل الظهيرة للأفلام الرومانسية لأنها تفوتني غالبًا.. مشهد بهذا الجرم يعيد اليقظة لحواس اعتادت الغياب، يقظة كالتي انتابتني عندما أنهيت رواية بدأت بمشهد كلاسيكي بقاعة اجتماعات، وفاجأتني النقلة المثيرة لسيدة الأعمال الأربعينية في حوض استحمام ممتلئ عن آخره بفقاعات الصابون.. خرجت منه عارية تمامًا إلا من طلاء أظافر لتمارس اليوجا بغرفة وردية. «شادن» امرأة قررت الانتحار، ومنحت نفسها مهلة أسبوعًا قبل أن تنفذ قرارها، سافرت ماليزيا برفقة سائقها الوسيم، تقاسما الغرفة والفراش وزجاجة بيرة ولوح شوكولاتة كبيرًا وبعض ثرثرات.. كان اسمه «آدم».. «شادن» و«آدم» تناقشا بلا ملل، تحاورا لساعات، حدثته كأنها تحدث نفسها، أخبرته عن أشياء حدثت وأشياء تحدث وأشياء ودت لو لم

تحدث، ضحك «آدم»، انتابته رغبة في إدهاشها، حكى عن كومة جرائد يبتاعها يوميًّا ليلعب السودوكو وعن رفيقة حلم تشبه «شادن» يضاجعها كل ليلة بلا ملل. وعن عجوز تقرأ الفنجان أخبرته ذات سأم عن أنثى حلم ستسلبه حياته.. قالت امرأة الفنجان: إن «آدم» سيقضي سبعة أيام في الجنة يأكل ما يأكل المصطفون ويشرب ما يشربون وبعدها سيموت.. بنهاية الأسبوع كانت «شادن» قد تحررت من هواجسها تمامًا، وتخلت عن رغبة الانتحار، لكنها قبل أن تغادر وضعت له السم بمشروبه كي لا يفشي سرها.

دخلتُ غرفة الشات ربما أتعثر بك، انتابتني غصة كل يوم مع غلق جهازي.. واضطراري للانتباه لكل تفصيلة بالفيلم، توترت عندما ضمها بمقدمة الباخرة، كانت تتشكل بين ذراعيه، تلك

الناعمة التي لا تأكل بيديها، لا ترقص حافية، لم تنزع ثيابها لرجل قط، ولم تمارس الجنس مع أحد، ولا تعرف كيف تبصق، بل لا تعرف ما هو البصق. يأتيها شاب امريكي بسيط ليقلب حياتها رأسا على عقب، يخرجها من جب ارستقراطيتها، ينتشلها من أحاديث النسوة المنمقات، يفتش في أنوثتها، يبادلها أسرار عالمه، فترقص معه في الطوابق السفلية، تذهب معه إلى دهاليز محركات السفينة، تشاهد رسومه للعاريات لتكون واحدة منهن، تقضي معه ليلتها الأولى كامرأة، تتعلم البصق في المحيط، تلعن عالمها المتداعي، تنام على لوح عائم وتعده أن تعيش حياتها بعده، فتتزوج وتنجب، شاهدت الفيلم كاملا، كان وقتا أشعلت فيه نيران الذاكرة والشوق إليه، كأنني وجدت من تشاركني الحديث عن رجل أحببته، وتمنيت بقاءه كما لم أتمن شيئا آخر. ثارت أنفاسي حينما

انتفضت مشاعرها، منحتني إحساسا هائلا بالرغبة، تورد وجهها حين تراقصا وكنت مثلها، كدت أهاتفك لأقول: اشتقتك حين رسمها عارية ولأجله تعرت، تآكلت روحي عندما خربشت الزجاج فالتهمها بجنون، وارتج كل شيء، اتسعت عيناي حين اشتعلت نارا، تمنيت لو أكونها، ولا أتركك إلا رمادًا بين ذراعي، مارسنا طقوسهما كثيرًا، في كل مرة كنا نخلف أثرًا ما، نترك ياسمينة، نُسقط ورقة توت، نقضم تفاحة، في كل مرة ترمينا السماء لأرض هي البراح فنمارس عشق آدم وغرام حواء.

***

أعرف يقينًا أنك هنا، ربما لا يمكن العبور إليك وتنشُّق أنفاسك، ربما لم يتبق لي غير بعض أوراق ألملمها من ثنايا الذاكرة، أحتضنها لتسبح عيني بين الأسطر، فرب كلمة أتعثر بها وفيها

أدركك، ربما لن تأسرني جزيرتك؛ فتعود الروح لركام روحي التي ستتبت خلسة بين ضلوعك. ربما لم يعد ممكنًا إلا أن أتخيل نفسي أدفن قلبي المتآكل بتل الوجع بينما تكفكف أنت دموع امرأة أخرى، وتقبل ما بين عينيها وجبينها. ترى ما الذي يمكن أن أقوله حين أواجهني بأنني اعتدت غيابك؟! ترى ما الذي سترجوني أن أخبرك به حين أنظر في المرآة فلا يأتيني انعكاسك؟! ترى ما الذي ستفعله في حال قررت زيارتك هنا.. في زاويتي المنسية.. حيث المسافة بيننا شاشة حاسوب وصندوق رسائل مهملة..

- هنا ؟!

- هنا.

- مفتقداك.

- انتِ كمان وحشاني قوي.

- ممكن أسمع صوتك؟

- ليه غيَّرتي الرقم؟!

- استنيتك كتير تتصل.

- مش بتحبيني يا «جوري» !

- فعلا مفتقداك.

- بتمنعي نفسك عني!

- ممكن نتكلم؟

- حقيقي مش فاهمك.

- عاوزه أشوفك.

- تعالي الصبح.. مستنيكي في «زايد» .

- هجيلك المكتب.

***

24 يناير 2011

ها أنا ذي في الطريق إليه، سأواجهه اليوم بكل ما في رأسي ويكاد يفجِّره، كانت الشمس قد ارتفعت قليلًا، والنسمات باردة بعض الشيء، وصلتُ إلى الجريدة قبل الظهيرة على الرغم من أن اليوم زحام، زحام بشر، وزحام مشاعر وزحام روائح، لافتات وباعة أعلام، هتافات وصور.. تفاصيل لا تمت بصلة لنا، ولا تليق بعازف الفيولين حين يغازل أنثى الهارب على مسرح ضوئي. عشرة احتمالات صحو مستحيل تهدر، أجدل بعضها مشنقة، لأقتل فكرة ناقصة تربط بين أصابعه وكل خلية بي، ما الذي حدث؟ يمر اسمك الآن مثقلًا بالوجع، لا تندهش؛ فكل ما في الأمر أني امرأة وحيدة لم يعد لديها الوقت الكافي لممارسة الفقد،

لم يعد لديَّ بحر لألوِّن زرقته ولا سماء لتزركشها العصافير، أنا قارب متهرئ بلجة بحرك، ويدرك أن مصيره في ليلة شتوية إلى النار.

- وحشتيني.

- ....

- لسّه بتحبيني؟

- مبقيتش عارفة.

- اعترفي بحبك زي زمان وانقذي نفسك حالًا.

- أعترف بإيه؟ وليه؟ وإيه فايدة علاقة بتجمعنا وكل واحد فينا في ناحية لوحده؟ ها.. قل لي؟

- انتِ روحي يا «جوري».. وعارفة ده كويس.

أمعنت النظر بعينيه، كانتا مرتعشتين، وبين أصابعه قصاصة

يدوِّرها بعصبية.. من دون وعي جذبتها، كتبت بالمنتصف وبخط واضح: «امنحني كلك، فما عاد بعضك يكفيني».

- كلامي ليكي، جميل إنك مش ناسياه.

- مشاعرنا مش مجرد كلام.

- ما قصدتش. ليه دايما شايفاني كدا؟

ابتلعت ريقي بصعوبة، كان حلقي جافًّا كما لو كنت أركض بمسافة ماراثونية غير معلومة النهاية.

غادر مقعده، اتجه إليَّ، جلس قبالتي ليهبني شراك عينيه:

- ما لك؟ بتهربي مني ليه؟

- خايفة.

- إيه مخوفك للدرجة دي؟ انتِ بتتراجعي يا «جوري»، بتخلطي كل ورقك بتخبُّط مش جديد عليكي.

سرحت ببصري للوميض الآتي من خارج النافذة، القاهرة المبهرة بمبانيها الضخمة، ولافتة كبيرة تعنون لـ«سيلانترو» يثبتها شاب على ارتفاع كبير.

- تعالي في حضني. محتاجلك.

فضحته الرغبة، كل كلمة نطق بها حوت حرفًا مما يريده، عيناه، أفكاره، حركاته واضطراب أنفاسه، أشعلَ سيجارًا بيد راجفة، كان ينظر إلي، لم يتحرك، حتى أن عينيه توقفتا في محجريهما، أدخل كمًا من الدخان إلى رئتيه ثم نفثه بوجهي، قدم لي السيجار ودعاني للمشاركة فرفضت، لا شك أنه أدرك أنه يرتكز على كومة من الأوهام، انتفضت مشاعره بقوة، فتقدم نحوي وارتعشت أنامله، برقة تحسس شعري، شعرت بحاجة كبيرة إلى قدرة الله في تلك اللحظة، يجرحني أنني ضعيفة، أشعر بظمأ وحاجة إليه، خفت أن

يضمني فتعود اللهفة، تحاملت على نفسي وتراجعت خطوة للوراء، رأيتني أركض ثائرة لكرامتي، غاضبة لن يرضيها جوعه، هو الآن منهزم أمام زلزال أفكاره، منتهى العبث أن يراودني عن حضنه، وكل ما أفكر فيه دخان الـCOHIBA، أفتقد الرائحة، أظنه غير النوع لـCIGAR. لا أثر للجاكومو بقميصه، ولا يروقني عطره الجديد، تستفزني صورتهما الجديدة على المكتب، ضمه لها بتلك الطريقة أمر مبالَغ فيه، ليس من ضرورة أن يستعرضا قوائم حبهما على البشر، له ضحكة مرتاحة بالصورة ولا أظنها مصطنعة، أين قطع الشطرنج التي ابتعناها معًا؟ أنا في حاجة إلى تصديق أن أمورنا بخير، وأن حاسة الشم لديَّ بها مشكلة، وأن تلك الصورة لهما مجرد صورة قديمة لا روح لها، ربما غيَّر نوع السيجار لضرورة صحية لنسبة نيكوتين أقل أو لنوع تبغ أكثر جودة، أو

لأنها مجرد هدية من صديق، لا أعتقد أنها مَن طالبته بذلك.. فيمَ يعنيها سيجاره على أي حال؟!

- ما لك حبيبتي؟!

- حبيبتك!

- ايوه حبيبتي.

- الحب المشروط ابتزاز عاطفي.

- سيبك من الكلام ده وتعالي.

اقترب من جديد ليلمسني.. ليته لم يفعل، فلم يحدث شيء.. أي شيء غير أن فتحت عيني على مصراعيهما، تواجهنا، تمنيت لو أن لي جسدًا غير الذي لي فأتركه وأذهب، أو أن لي عقلًا غير الذي لي فيتوقف الصخب، احتضنني بقوة من دون كلمة، سافرت كفاه، استكنتُ كدمية لا دور لها، قبلاته فجرت شلالًا من الرفض،

كنت منتبهة، يقظة تمامًا، أعي كل شيء.

– ما لك؟!

– مفيش.

– انتِ متغيرة.. فجأة بقيتي كارهة مشاعرك.. فجأة بقيت «خالد» الأناني اللي بيشبع رغباته وبس.. قوليلي.. هتكتبي عني إيه في روايتك؟ نفس اللي كتبتيه عنهم؟! هدخّلك زيهم عام حزن جديد بمزاجي الأناني وقلبي الجبان اللي ما بيرحمش؟!

– مش محتاجة أحبك عشان أثبت إني بحب «جورية».

– ده كلام جديد.

رمقته في شرود.. لم يكن لقاؤنا هذا مبهجًا كصدفتنا الأولى.. كان ثقيلًا كلياليّ الفارغة.. كنت يوميًّا أغيِّر ترتيب الصور بألبوم سيدي بو سعيد، وأتفقد ما بين عينيه وشفتيه، وما بين ضلوعه،

أتفقد كل شيء: همسنا، لمساتنا، وكهوفنا.. تحسست ركامًا من الثلج بيننا ولم أجدا أثرًا له.

– ضميني.

الأشياء كلها تخفت، وفي النهاية يبدو الأمر كله كابوسًا، الصباحات كلها عادية، والمساءات كلها مملة، أتفقد أثره بفراغ ما، حشوة فراش، حافة فنجان، رماد سيجارة، بقايا شوق، مفردة غير الموت تصف احتراقنا بالبعد، نُهَير تفجَّر عند قدمينا بالكهف الذي ضمَّنا، سيلينا التي انتظرت بكل سنوات العطش الأولى لتهب للسنبلات اخضرارها وللزهور عبيرها، سيرفانتي، صوت الناي، موسيقى القمر، ورشفات العسل، قبلاته.. عجبًا وكأنه لم يكن يومًا هناك.

– محتاجلك.

دخلت متاهتي، كلانا يدرك أنه مختنق بالآخر، يحترق بأوجاعه، كلانا يدرك أنه آتٍ للمنعطف الأخير، تساءلت: ما الذي انطفأ؟ كان واضحًا جدًا سر ترددي، فثمة نوبة من الضجر تلتهم كل شيء، أستجمع طاقة تخذلني وتراكيب لاثنين غيرنا، لا صور تقدر على افتعالِ أي شررٍ، ينتفض الجسدُ بنوبة عرقٍ، للأنفاس رائحة غريبة، والحضن كئيب يبعث الضيق.

- همشي.

- جورية.

أرخيت جفني في صمت، علمت في تلك اللحظة أن اسمي ليس للنداء، لكنه للعدم.

- انتِ سيلينا الجميلة.

- زمن مسروق.

- حبنا؟!

- زمن مسروق، مجرد زمن مسروق.

واجهت خوفي من اقتراب يعقبه سفر، وكأن العمر يخشى الاكتمال، بتلك اللحظة أحرقت وأغرقت القارب.

- المرة دي هختم الرواية.. أوعدك.

- تقصدي إيه؟!

- مبقيتش فاهمك.

- مش مهم، أبدا مش مهم.

- جورية، تقصدي إيه بكلامك.

لم يكن هناك من رد لسؤالٍ يعرف إجابته، سؤال واحد وإجابة واحدة محتملة تقدر على استعادة ما بيننا، نظر مسهدًا، التبست ابتسامة حفزها تساؤل مدهش طغى على كل شيء.. هل كنا حقًّا

حقيقة؟

حين هممت بالذهاب انزلقت أوراق بروفة العدد الجديد، لم أجد بي رغبة للملمتها، كانت عيناه معلقتين بها.

- لو مت يا «جوري» هتحضري العزا؟!

- سلام يا «خالد».

- «جوري»!

ما شعرت بغيابي إلا عندما سمعت صوته يناديني بينما أتابع إلى خارج الغرفة بثبات، حين خرجت إلى البهو، رأيتهم يزيلون الغبار عن لوحة نرجس، تجاهلتهم بينما أعبر للخارج.

انهارت علاقتنا، لا أملك شعورًا محددًا، ربما حفنة انفعالات متناقضة سأعتاد تمريرها مع أقراص الفاليوم، جزءٌ مني يرفض استعادتك بتلك الصورة، على الرغم من أني أريدك دائمًا، لكنها

رغبة في الحب أكبر من جملة «أنتظرك بزايد»، أحبك في حالاتك كلها. لكني أردت شيئًا يبقى، ربما يتوتر أحيانًا كبحيرة يربكها المد بليلة مقمرة، شيء يشبه مسافة بين ضجرين، وربما صوت بين صمتين، شيء أكثر من مجرد حروف افتضت بكارة الأوراق ليعبر فوقها المارون، شيء أبلغ من جملة شعر تترك نزفًا بالروح.. صوته يتردد بخفوت:

– مستنيكي في زايد.

– .....!

***

أرغب أن أترك هنا.. بمقعد بلا مكان..

في الطريق، صادفت محلًّا جديدًا، قلت لنفسي: سأجرب القهوة هناك.. مشيت بعمق أكثر من المرات كلها، سمعت وقع قدمي

على الأرض، كان الشارع خاليًا وكأنه لي وحدي.. دببت بخفة واستنشقت بعض المرح وكثيرًا من النشوة..

في الداخل، بدوا من عالم آخر، يتحركون كدُمًى بمشهد تتشكل فيه بؤر الضوء كزهور الماء، يمرون كالهوام بعالم أثيري يناسب زاوية الكاميرا ومساحة مفترضة من كادر ثابت، يخضعون لمؤثر صوتي وفق موسيقاي وليس من نوتة لأحدهم.

«آخر أوجاع الشتاء» عنوان فصلي الأخير، وربما تبدو الجملة عنوانًا مناسبًا لرواية ضخمة، سأجلس هنا لأحفِّز إرادتي كما ريح تشكل متاهة بقلب إعصار، تدور بقلب الركود، بالزوايا، بالطرقات، بين كل صمت وصمت، سأستعين بها لأدفع حضورك الشبحي، ولأؤجج شهوة قتل الحروف على مشانقِ الأوراقِ، سأعزف لحنًا أخيرًا بالمفردات المتاحة، سأتتبع الخيط الأخير

للدخان هنا، وسط الناس. خلف مساحة عريضة من الزجاجِ ينظفونه يوميًّا بلا كلل ليكشف عورة المدينة، أو ليكشف جنونهم، ربما في لحظة التحرر يمكن أن نكتشف كثيرًا من أشياء، ومذاقات أخرى لقضمات التفاح، ربما نستطيع أن ندرك السبب في أنهم يمنحون كل شيء صبغة من كل شيء؛ فحبك حلو كسُكَّر، فراقنا حزين كناي، ابتسامتك مدهشة ككرزة، دموعنا مجهدة كسفر، حروفك رقيقة كبيلسانة، غرامنا مربك كبحر، صمتك قاسٍ كجبل، حنيننا قاتل كموت.

سكون غريب تؤطره الملامح، يقطعه ذاك المؤقت الزمني المسمى الحياة، رائحة الإسبرسو النفَّاذة تباغت كل شيء؛ فتبدد رغبة في النعاس وتجدد الحاجة للكتابة.

سأمنح كلًّا منهم لحظة منتقاة، وعالمًا له القدرة على افتعال

الصخب، سألقي التحية على العابرين، والجالسين، والثائرين، والصامدين، والمتوارين خلف الجدار، سألتقط هزائم رجل الغياب، وشجون امرأة الكرسي، ومساحيق أنثى العلكة، وتعاويذ صياد اليمام، ووجع الجرح المستعرض بالروح، وخطوات اللائذ بالرحيل، وانتكاسات رجل الهزائم، واحتراق سيدة الندوب، وانشطارات غيمة التصحر، ورقصة الباليرينا، وألحان الهارمونيكا، ومتوالية الكرسي الهزاز، وخدعة قطعة السكر، وكلمات الرجل ذي الكلمات بلا نكهة، وخذلان صديقتي من الشارع.

لكني حين فتشت عن شيء يناسبك، كانت الكلمات أقرب لرسائل العزلة، وجدتني أكتب:

«ابقَ بعيدًا كي أمارس متعة البحث عن مستحيل جميل».

هكذا تكون النهاية لائقة..

وكأن العالم كله يشهد تلك اللحظة، لم يكن عسيرًا أن أفعل، كانت آخر دفقات المشاعر، وما أغرب المفارقة! كنتَ من حفزني لكتابتها، واليوم أهديك سطورها، لعل الإهداء سيكون:

لهذا الرجل العالق أبدًا كشوكة بالجرح..

خالص محبتي.

جوري عبد الحكيم.

30

الأكثر جمالًا بيننا.

المتخلّي عن حضوره.

التارك فسحة نظيفة بشغور مقعده.

جمالًا في الهواء بغياب صوته.

صفاءً في التراب بمساحته غير المزروعة.

الأكثر جمالًا بيننا.. الغائب.

قاطعُ المكان وقاطع الوقت بخفَّة.

لا يترك للمكان أن يسبيه ولا للوقت أن يذرّيه.

مُذَرٍّ نفسه في الهبوب السريع.

غير تارك تبنًا لبيدره ولا قمحًا لحقل سواه.

المنسحب من شرط المشي للوصول.

المنسحب من الوصول.

وديع سعادة